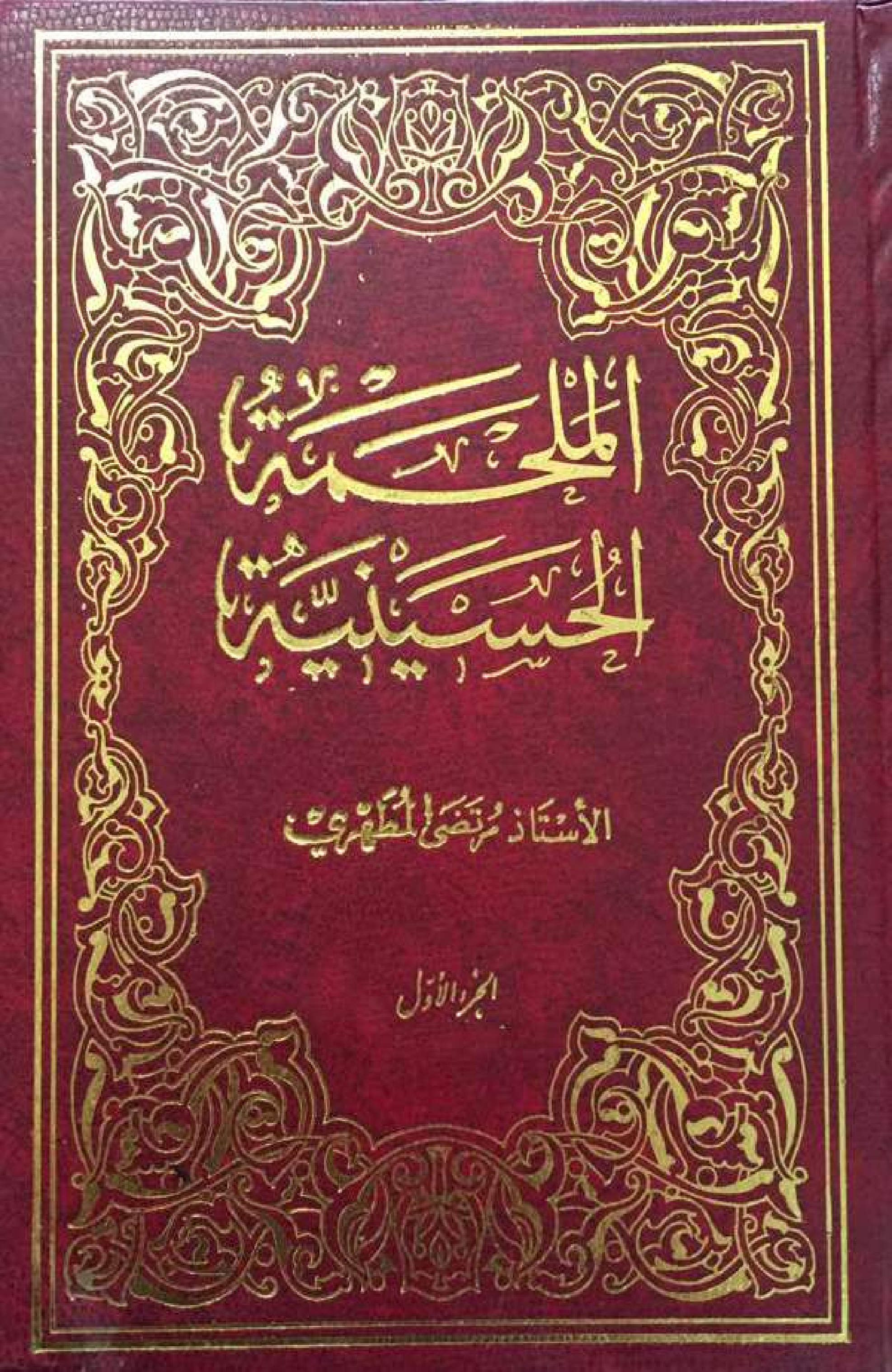

الملحمة
الحسينية
الأستاذ مرتضى المطهري
الجزء الأول



من كتب
عبير الربيعي



الملحمة الحسينية



مكتبة
الفكر
الجديد



الأستاذ مرتضى المطهري

الجزء الأول

الطبعة الثالثة- قم
١٤١٣هـ-١٩٩٢م

منشــورات
المركز العالمي للدراسات الاسلامية
قم- ايران
ص- ب ٤٣٩

اسم الكتاب:	الملحمة الحسينية- الجزء الأوّل والثاني
المؤلف:	الأستاذ مرتضى المطهري
الناشر:	المركز العالمي للدراسات الاسلامية
الطبعة:	الطبعة الثالثة
المطبعة:	مطبعة اسماعيليان
تاريخ الطبع:	١٤١٣هـ. ق-١٩٩٢م
النسخة:	٤٠٠٠
السعر:	كل دورة ٤٥٠٠ ريالا

مقدمــة النــاشر
« ملحمة فريدة ، بقلم كاتب فريد »

أجل ، إنه الكاتب الشهيد ، العالم الشهيد ، الأستاذ الشهيد ؛ إنّه الشهيد مرتضى المطهّري ، الابن البّار للشريعة السمحاء ، واللسان الصادق الأمين ، يحدّثنا عن « ملحمــة » ملحمة ليست كغيرها من الملاحم ، إنها « الملحمة الحسينيّة » .

إنّه يحدثنا عن فرادة هذه الملحمة ، فيكشف لنا عن مكنونٍ من دررها ، وكلّها درر ؛ ويتناولها من جانب مضيء من جوانبها المشرقة ، وكلّها إشراق ، ويضع أيدينا على جوهر هذه النهضة المباركة ، التي شكّلت منعطفاً حاسماً في مسار التاريخ الإسلامي المجيد ، كما كانت ، وما زالت ، وستبقى مناراً مشعّاً يقود السالكين في دروب الحقّ ، ومعارج الحقيقة .

« الملحمة الحسينيّة » واقعة فريدة في التاريخ كلّه ؛ فهل أجدر من خبير كشهيدنا ، يكشف لنا عن فرادتها وأوحديّتها ؟ لا ، فليس ينبئك كمن هو خبير .

« الملحمة الحسينيّة » مدرسة فريدة ؛ باقية ما بقيت الأيام ؛ فهل أجدر من أستاذ جامعي عبقري روحاني كشهيدنا ، يكشف لنا عن فرادتها بين المدارس ، بلسان المنطق والفصاحة ، وحديث الواقع والحقيقة ؟ لا ، فليس يعلّمك كمن هو معلّم .

« الملحمة الحسينيّة » منارة فريدة ، بعثت وتبعث بإشعاعها على مرّ

العصور ، كاشفة زيف التحريف ، معرّية باطل الانحراف الذي شاب مسيرة الدعوة الإسلامية في بواكير أيّامها ، مقوّمة ما طرأ عليها من اعوجاج ، مزيلة ما علق بها من أدران المصالح الضيّقة ، ونزعات التسلّط والسلطان ؛ فهل أجدر من محقّق أريب كمحقّقنا الشهيد ، بأن يأخذ بأيدينا إلى دروبها ، ويسبر أغوارها فيكشف لنا عن فرادتها في الإشعاع ؟ لا ، فليس يرشدك إلى الحقّ والحقيقة كمن هو محقّق .

« الملحمة الحسينيّة » كانت فريدة بأبطالها ، بقائدها ، بأهل بيته الكرام ، بأصحابه وأنصاره الميامين ، برفاق دربه البررة ، بالأصالة والحقّ الذي كان رائد كلّ منهم ، تلك الفرادة التي اجتذبت أفراداً كثراً من معسكر الأعداء إلى معسكر الحق ، وأرواحهم على أكفهم قدّموها قرباناً للحق ، في حين لم يسجّل التاريخ أن فرداً واحداً مال من معسكر الحق إلى معسكر الباطل ، رغم مغريات الأمن والسلامة ؛ حقيقة ليس أجدر من كاتبنا بتبيان أصالتها وفرادتها .

يتناول كاتبنا هذه الملحمة الفريدة من جانبها الحيّ الملتهب صدقاً وحماساً ، المشعّ أصالة ونبل هدف ، تناوُلَ الجراح وقد أشرع مبضع الحقيقة والواقع ، وراح يزيل ما تراكم عليها من أدران الوهم والخيال ، ويكشف زيف ما علق بها من تشويه الأساطير والخرافات ، ويدفع ما لحق بها من مبالغات وشطط ، تلك العلل التي كادت تخرج بها ـ لولا أصالتها وفرادتها ـ عن أصلها وجوهرها وحقيقتها ، ثم يبرزها إلينا صافية نقيّة ، لا أمت فيها ولا شك ، قويمة لا عوج فيها ولا انحراف ؛ ويقدّمها لنا ـ كما هي جوهراً وحقيقة ـ حركة مباركة هادفة ، وقد قامت على منهج ، وسارت بخطوات راسخة مدروسة نحو الهدف ، محقّقة ما شاءه لها بطلها ومفجّرها سيّد الشهداء عليه رضوان الله وسلامه ، متسلحاً بإيمانه الأصيل ، عارفاً طريقه ، واضحةً أمامه أهدافه ، بيّنة أمامه غاياته ، رافعا أشرف لواء وأسمى راية ، لواء الحق والحقيقة والإيمان ، وراية الشهادة والعطاء والرضوان .

وقد سلّط أستاذنا الشهيد في « ملحمته » الأضواء على الهدف والدافع الأساس لتلك النهضة المباركة ، ألا وهو الأصل الإسلامي الكبير والعظيم : « الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر » ، مبيناً ـ دون تجاهل لتأثير أسباب أخرى ـ

بالوقائع والتواريخ وتسلسل الأحداث ، أن هذا الهدف السامي ، كان الباعث والمحرّك والدافع لهذه النهضة العصماء ، وأن هذا الهدف ـ بعد أن رأينا تحقّق مفاعيله في الواقع ـ كان مفجّرها والغرض منها ، دون غيره .

وها هو بطلها سلام الله عليه ، يقول في بدء تحرّكه : « إنّي ما خرجت أشراً ، ولا بطراً ، ولا مفسداً ، ولا ظالماً ؛ إنّما خرجت لطلب الإصلاح في أمّة جدّي ، أريد أن آمر بالمعروف وأنهى عن المنكر ، وأسير بسيرة جدي وأبي . . . » .

وهذا فصل الخطاب !!

ولم ينس المؤلف الشهيد ـ وهو يواكب سير « ملحمته » مواكبة الرفيق الأمين ـ أن يتناول بالدرس والتحليل والتدقيق كلّ ما يمتّ إلى « ملحمته » بصلة ، فأتت شاملة وافية ، آسية شافية ، بعد أن سخّر لها صدقه وأمانته ، فوصل بها ، ومعها ، إلى ما أراد ، وكان الحقّ ما أراد .

أراد فتح العيون المغلقة ، على الحقيقة ، وتبصرة من غلب عليهم رين الغفلة ، ومن أصابهم داء التحريف والانحراف ، فوقعوا في غياهب العتمة ، ومهاوي الظلمة ؛ فقدّمها إليهم صافية نقية لا عيب فيها ولا شائبة ، وأبرزها لهم حركة رائدة في سبيل الحق ، واقعيّة المنطلق والغاية ، فالحق باعثها ، والحقّ سبيلها ، والحقّ رائدها ، والحق سلاحها ، والحق غايتها التي بلغت مداها .

كما لم ينس الشهيد الكبير أن يرفع صوت الغضب في وجه من يحتفلون بذكرى هذه الملحمة المجيدة ، احتفالاً خاوياً أجوف ، يخرج بها عن أصالتها وجوهرها ، لا غرض لهم سوى البكاء والنحيب ، لمجرّد البكاء والنحيب ؛ ويتوسلون للوصول إلى هذا الغرض بوسائل غير مشروعة ، يختلقون الأكاذيب ، ويخترعون القصص المؤثرة ، بحجّة أنها تدفع الناس إلى البكاء ، في حين أن الحريّ بهم ـ وهم على ذلك ـ أن يبكوا على أنفسهم ، أن يبكوا على اجتراحهم للكذب ، أن يبكوا على ما وصلوا إليه من ذلّة وهوان ، بعد أن أضاعوا جوهر هذه النهضة الملهمة ، متناسين ما تدعو إليه الذكرى من سموّ وقيم ، متناسين أن الذكرى ليست سوى باعث على اليقظة والتحفز ، باعث على الوقوف بإباء وشمم في وجه العتاة الجبابرة ، باعث على القيام في وجه كلّ مستعمر جائر ، باعث على

بلورة الأصالة الشخصية للأمة ، باعث على رفض الذل والخنوع ، باعث على العزّة ، التي أرادها لنا إسلامنا العظيم ، وأرادها لنا بطل هذه الحركة المباركة ، التي نحتفل بذكراها وذكراه ، وهو القائل :

« ألا وإنّ الدعيّ ابن الدعيّ ، قد ركز بين اثنتين : بين السلّة والذلّة ، وهيهات منّا الذلّة ؛ يأبى الله ذلك لنا ، ورسوله ، والمؤمنون ، وحجورٌ طابت وطهرت . . . » !

وتناسوا أنّه قال :

« والله ، لا أعطيكم بيدي إعطاء الذليل ، ولا أقرّ إقرار العبيد » !

تلك هي أقواله ، وتلك هي تعليماته وإرشاداته إلى شعبه وأمته ، فهو يرسم لهم طريق الحياة المثلى ، ولا طريق سواها ؛ فبمثل هذا فليحتفل المحتفلون !

وبالعودة إلى « ملحمة » الشهيد ، ومواكبته لمسيرها ، نراه يحدثنا في الجزء الأول من كتابه عن التحريف في هذه الواقعة ، وعن أنواعه وأسبابه ، وعوامله ، وبواعثه ، مستوفياً كلّ ما يحتاجه هذا الموضوع من درس وتحليل وتحقيق .

كما نراه يحدّثنا في الجزء الثاني منه عن مقولة « الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر » شارحاً محقّقاً ، مستوفياً كلّ تفاصيل ودقائق وشروط هذا الأصل الإسلامي الخطير ، وأثره في حياة الأمة ؛ معرّجاً في ختام بحثه على حقيقة عاشوراء وجوهرها الأصيل ، المتناغم مع هذا الأصل الإسلامي العظيم .

وفي الجزء الثالث من كتابه يحدثنا الشهيد عن الإطار العام لواقعة كربلاء ، وعن الجذور التاريخية لها ، كما يحدثنا عن قيمة الشهيد والشهادة في إطار المنطق السليم ، والأهداف المقدّسة ، وحسّ السمو ، وتوفّر الإدراك ، وشجاعة الروح والجنان ، وتوازن القول والعمل ، وتناغم الخُلق وكيفيّة الأداء ، أمور تميّزت بها هذه الواقعة وسمت .

كما يتحدّث إلينا عن فلسفة النهضة الحسينية وماهيّتها ، دون أن يغفل عن إيراد ملاحظات هامّة حول التحريف الذي أصابها ، وأسبابه ، وأنواعه ، ودوافعه ؛ معرّجاً على المثل التي حملتها هذه الملحمة المباركة .

ويختتم المؤلف الشهيد الأقسام العشرة لهذا الجزء الثالث بملاحظات نقديّة تتناول بعض الكتب التي تعرّضت لهذا الحدث الكبير .

هذا ، ولا يفوتنا ـ والحديث يتناول كاتبنا الفريد ـ أن نعرّج على بعض ما تركه لنا هذا الرجل الكبير من آثار تشهد على ما كان يمتاز به من علم واسع ، وثقافة عالية ؛ وما بذله من جهد لا يدانى في سبيل إعلاء كلمة الدين الحنيف ، ومحتواه الفكري الأصيل ، وفي تعريته لأساليب المحرّفين ، وأغراض المغرضين ؛ يساعده ما عرف عنه من سعةٍ في اطّلاعه ، وسعة في تحصيله ، وسعة في صدقه وإيمانه وتقواه ، وسعة في حسن خلقه ، وسعة في محبّته للناس ، كلّ الناس ، يعطف ويرشد ، يحنو ويعظ ، كالأب الحارس العطوف .

ترك لنا ـ رحمه الله ـ من الكتب القيّمة ما يربو على خمسين كتاباً ، تمّ نشر أكثرها ، نذكر منها : كتاب العدل الإلهي ، الإدارة والقيادة في الإسلام ، نظام حقوق المرأة في الإسلام ، مسألة الحجاب ، الإنسان والمصير ، النبي الأمي ، تفسير الكون ، قصص أهل الحق ، أصول الفلسفة ، المجتمع والتاريخ ، الحياة الخالدة ، وغيرها .

إضافة إلى مقالات وأبحاث منفردة ، وشرائط تسجيل وفيرة ، تناول فيها كلّ مناحي الحياة ، إلى أنواع العلوم : من فقه ، ومنطق ، وفلسفة ، وعرفان ، وتفسير ، وقانون ، واقتصاد ، واجتماع ، و . . .

ولا ننسى خطاباته وكلماته البليغة الهادفة ، التي لم تخل منها مناسبة اجتماعية هامة ، أو مجلس ديني ، أو موقع علمي ؛ فقد كان ـ رحمه الله ـ معيناً ثرّاً دفّاقاً ، لا ينضب من عطاء ، ولا تعوزه همّة أو نشاط ، فالنفس الصادقة الكريمة لا تعرف البخل في العطاء ، ولا تعرف الكلل والعناء .

وأدعكم الآن مع « الملحمة الحسينيّة » ، تنهلون بأنفسكم من معين صفحاتها ما يروي العطش والغليل ، وما يشفي الظمأ إلى المعرفة الحقّة ، الخالية من العقد ، البريئة من السفاسف ، بالأسلوب السهل المباشر الصادق ، الذي التزمه كاتبنا الكبير في « ملحمته » المجيدة ، وما أصدق ما استشهد به من قول :

« كم من شاعر يولد بعد مماته » !!

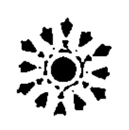
ونحن نقول :

« كم من عبقري يعرف بعد وفاته » !!

ورضى الله هو القصد . . .

الأستاذ نادر التقي

الدار الإسلامية



القسم الأول

التحريف في واقعة كربلاء
أنواعه وعوامله

المحاضرة الأولى : معنى التحريف وأنواعه

المحاضرة الثانية : عوامل التحريف

المحاضرة الثالثة : التحريفات المعنوية لواقعة كربلاء

المحاضرة الرابعة : واجبنا ومسؤوليتنا تجاه التحريف

المحاضرة الأولى

معنى التحريف وأنواعه

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين باريء الخلائق أجمعين والصّلاة والسّلام على عبد الله ورسوله وحبيبه وصَفيّه سيدنا ونبيّنا ومولانا أبي القاسم محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، وعلى آله الطيّبين الطّاهرين المعصومين . أعوذ بالله من الشيطان الرجيم :

﴿ فبما نقضِهم ميثاقَهم لَعَنّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُم قاسيةً يُحرّفون الكَلِم عن مواضِعه ونَسُوا حَظّاً مما ذكروا به ﴾ [1] .

يتناول موضوع بحثنا التحريفات التي تعرضت لها واقعة كربلاء التاريخية ، فقد تعرضت هذه الواقعة الكبرى أثناء عرضها إلى تحريفات عديدة ، ولهذا فإننا سنلخص هذا البحث في أربعة فصول . في الفصل الأول سنتحدث عن معنى التحريف وأنواع التحريفات الموجودة في العالم، كما سنشير إلى أنواع التحريفات المختلفة التي تعرضت لها حادثة عاشوراء التاريخية . أما الفصل الثاني فسيدور البحث فيه حول عوامل التحريف ، أي إننا سنبحث في الأسباب والبواعث التي تؤدي إلى حصول التحريف في قضايا العالم بشكل عام وما هي العلة الكامنة وراء تحريف البشر للوقائع والأحداث وأحياناً الشخصيات

---

(١) سورة المائدة : الآية ١٣ .



التاريخية ؟ لا سيما أثناء نقلهم وروايتهم لحادثة كربلاء ، وما هي العوامل التي كانت مؤثرة في حصول التحريفات في هذه الواقعة . والفصل الثالث سيكون عبارة عن شرح للتحريفات التي حصلت بشأن هذه الواقعة والحدث التاريخي . وأخيراً سيخصص الفصل الرابع لشرح الواجبات والمهمات المُلقاة على عاتقنا نحن المسلمين علماء وجماهير تجاه هذه القضية .

البحث الأول : حول معنى التحريف .

فما هو معنى التحريف ؟

التحريف في اللغة العربية يرجع إلى الجذر ـ حَرَفَ ـ أي حرف الشيء عن مسيره واتجاهه الأساسي الموجود أو الذي ينبغي أن يكون . بعبارة أخرى فإن التحريف عبارة عن نوع من التغيير والتبديل ، غير أن التحريف يشتمل على شيء لا تصدق تسميته بالتغيير والتبديل ، فأنت إن قمت بعمل ما بحيث يؤدي إلى عدم إيصال المفهوم المراد من جملة أو رسالة أو شعر أو عبارة ما ، بل هو يوحي بمفهوم آخر ، فعندئذٍ يقال : إنّك قد حرّفت تلك العبارة ؛ فمثلاً : يحدث لك أن تحدّث أحدهم بأمر أو قول ما ، فينقل ذلك الشخص حديثك إلى شخص آخر في مكان آخر ، ثم يأتي هذا الشخص ويقول لك إنّ فلاناً يقول بأنك قُلْتَ كذا وكذا ، وإذا بك تدرك بأنّ ما قلته أنتَ يختلف كثيراً عمّا ينقله لكَ هذا الشخص . أي إنّ الرجل قد ادخل زيادةً أو نقصاناً على حديثك الأصلي ، كأن يكون قد حذف بعضاً من كلماتك التي تفيد المقصود ، وأضاف أشياء أخرى من عنده ، وبالتالي فإن حديثك يكون قد مُسخ وتحوّل إلى شيء آخر تماماً . عند ذلك تقول بأنّ هذا الرجل قد قام بتحريف حديثي . وخاصة إذا تصرّف أحدهم بالسندات والوثائق الرسمية فيقال إن فلاناً زوّر الوثيقة .

كانت هذه أمثلة لتوضيح معنى كلمة التحريف ولا حاجة إلى مزيد من التوضيح بهذا الشأن . والآن نتطرق إلى شرح أنواع التحريف :

هناك أنواع عديدة للتحريف اهمها : التحريف اللفظي والتحريف

المعنوي . التحريف اللفظي عبارة عن تغيير الشكل الظاهري لموضوع ما ، كأن تضاف عبارة إلى حديث أو موضوع أو تحذف عبارة منه . أو أنْ يتم التلاعب بذلك الحديث عن طريق تقديم وتأخير جمله وعباراته بشكل يؤدي إلى تغيير في المعنى ، وفي الحالتين فإنّ ما يحصل هو نوع من التصرف في ظواهر وألفاظ الحديث .

بينما في حالة التحريف المعنوي فإنّك لا تتصرف في اللفظ . إذ يبقى اللفظ على حاله . لكنك تقوم بتفسير ذلك اللفظ بشكل يؤدي إلى مفهوم مخالف للمفهوم الذي قصده المتكلم . أي إنك تفسّرُ الموضوع بشكل يطابق وجهة نظرك ولا يطابق وجهة نظر المتكلم الأصلي .

إنّ القرآن الكريم تطرق إلى مفهوم التحريف لا سيما فيما يتعلق بأعمال اليهود . ومن خلال نظرة للتاريخ البشري يتضح لنا بأنّ هؤلاء القوم هم أبطال التحريف على امتداد التاريخ . لا أدري ما هو عنصر هؤلاء القوم وعرقهم حتى تراهم يميلون ميلاً عجيباً إلى قلب الحقائق وتحريف الوقائع . ولهذا تراهم يُمسكون بمقاليد الأمور والشؤون التي يمكن لهم من خلالها ممارسة عملية قلب الوقائع وتحريفها . لقد سمعت أنّ بعضاً من وكالات الأنباء العالمية الشهيرة التي دائماً ما ننقل عنها الإذاعات والصحف أخبارها هي في الواقع تحت سيطرة اليهود . لماذا ؟ حتى يتمكنوا من عكس قضايا العالم حسب وجهة نظرهم .

إنها الصفة الملازمة لليهود على مر التاريخ حتى أنها أصبحت جزءاً من طبيعة العنصر اليهودي ، الأمر الذي يشير إليه القرآن الكريم بشكل عجيب أثناء عرضه لسلوكهم وتصرفهم مع نبي الله موسى (ع) وتحريفهم لتعليماته كما ورد في إحدى آيات سورة البقرة في قوله تعالى :

﴿ أفتطمعون أنْ يؤمنوا لكم وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله ثم يُحرِّفونه من بعد ما عَقَلُوه وهم يعلمون ﴾[1] .

---

(١) سورة البقرة : الآية ٧٥ .

نعم إنهم يُحرّفون الكلام ليس من باب عدم الفهم أو سوء الفهم ! لا ، بل إنهم قوم أذكياء وحاذقون ، لكنهم في نفس الوقت يقلبون الحقائق ويمسخونها عن وعي وسابق تصميم عندما يعرضونها للناس . وهذا هو التحريف . أي تدوير الكلام ، وعرض الأمور بطريقة معوّجة وحرفها عن منهجها الأصلي ؛ إنهم قوم حرّفوا تعاليم الله . وقد وردت أمثلة كثيرة على أعمالهم هذه في القرآن الكريم سواء عندما تم ذكر كلمة التحريف أو عندما جاء التعبير بشكل اصطلاحات مرادفة . وكما يذكر المفسرون فإن القرآن الكريم في تناوله لمسألة التحريف لم يقصد التحريف اللفظي فقط بل التحريف المعنوي أيضاً ، أي تحريف المعنى المقصود للقضايا من خلال التفسير المُحرّف . وحتى لا نخرج عن سياق بحثنا نعود إلى أصل البحث ونقول .

إن للتحريف منازل أيضاً حسب الموضوعات المحرّفة فمرةً يجري التحريف لقول عادي من أقوال الناس كأن يتم تحريف ما قاله فلان على لسان فلان من الناس . ولكن مرة أخرى يتم التحريف أثناء التعرض لموضوع اجتماعي كبير كأن يحرّف كلام شخصيات عظام أو سلوك شخصية تاريخية عظيمة يكون قولها وعملها يُشكلان سنداً تاريخياً للأجيال ومثالاً يُجتذىٰ به على مر الزمن . فعلى سبيل المثال عندما يُنسب قول للإمام علي (ع) وهو منه براء . أو أن يُفسَّر كلامٌ له على غير منحاه . فعند ذلك يصبح الأمر خطيراً للغاية . كذلك عندما تنسب أخلاق معنية إلى النبي أو إلى الأئمة الأطهار وهم منها براء . أو عندما يتناول التحريف حادثة تاريخية كبرىٰ هي بمثابة وثيقة اجتماعية هامة وذات قيمة أخلاقية وتربوية للمجتمعات البشرية . هل تتصورون معي الخطر العظيم والأهمية البالغة لمثل هذا التحريف سواء أكان التحريف لفظياً أو معنوياً . إذ إن الموضوع هنا ليس موضوعاً بسيطاً وعادياً . فمرةً يتم تحريف شعر حافظ (الشاعر الإيراني الشهير) أو كما جرى مثلاً في قصة (الفأر والقطة) ، فعلى الرغم من قيمة هذه الموضوعات الأدبية وأهميتها إلا أنها تبقى أموراً عادية لا تؤثر كثيراً في اتجاه الحياة العامة ومسيرتها .

لقد كتب أحد الأساتذة مرةً مقالاً حول كتاب (الفأروالقطة) الشهير وهو

الكتاب الأدبي القيّم وعرض فيه مقدار التلاعب الكثير الذي تعرض له هذا الأثر الأدبي سواء في الزيادة أو النقصان في الموضوعات والأشعار الواردة إلى الحد الذي أصبح فيه أصل الكتاب غير معروف ومجهولاً تماماً . ثم كتب مُعلّقاً بقوله بأنه لا يوجد قوم في الدنيا يخونون الأمانة بمقدار الشعب الإيراني حتى إنهم سمحوا لأنفسهم بالتلاعب بآثارهم وتصرّفوا وحرّفوا بها كيفما شاؤوا . والأمر لا يقتصر على أثر أدبي مُعيّن . لقد ألحقوا مثلاً أبياتاً كثيرة من الشعر بكتاب « المثنوي » المعروف ونسبوها إلى الشاعر المؤلف « مولوي » بحدود لا حصر لها . فهناك مثلاً بيت من الشعر حول أثر المحبة في المثنويات حيث يقول ما مضمونه :

بالحب ينقلب المرار حلاوة   بالحب ينقلب النحاس إلى ذهب

وهو أمر معقول وقولٌ حق ، فالمحبة لها سحر الكيمياء التي تستطيع أن تحول الوجود المر في الإنسان إلى وجود حلو ونحاسه إلى ذهب لكنهم جاؤوا بعد ذلك وأضافوا لهذا الأصل الصحيح أشعاراً أخرى وقالوا مثلاً وبدون أية مناسبة : المحبة تجعل من الحية صرصوراً أو إن المحبة تحوّل السقف إلى جدار أو إنّ المحبة تجعل من الشمام بطيخاً ، وهي أمور ليس لها أي علاقة بالموضوع أبداً . وطبيعي القول بأنه لايجوز التلاعب والتحريف بهذا الشكل بالموضوعات لكن مثل هذا التحريف لا يشكل صدمة لحياة وسعادة المجتمع البشري ولا يسبب أي اعوجاج في مسيرة المجتمع الإنساني . بينما تشكل عملية التحريف في الأشياء المرتبطة بأخلاق الناس وتربيتهم ودينهم أمراً خطيراً، والأخطر من ذلك كله لو تناول التحريف المستندات والآثار والأسس التي تستند إليها البشرية في حياتها العامة .

وحادثة كربلاء شئنا أم أبينا حادثة اجتماعية كبرى بالنسبة لشعبنا وأمتنا، أي إنها حادثة مؤثرة للغاية في تربية أهلنا وأخلاقهم وعاداتهم وسلوكهم . إنّها الحادثة التي تدفع بشعبنا ، بشكل آلي ، ودون تدخل أية قدرة خارجية ، إلى أن يتوجه الملايين منه لصرف ملايين الساعات من جهدهم ، وإنفاق الملايين لسماع ما يرتبط بها من قضايا . إنّ هذه القضية ينبغي عرضها كما هي ودون زيادة أو نقصان لأنه في حالة أي تدخل أو تصرف في اللفظ أو المعنى مهما كان بسيطاً سيرتّب بلا شك حرف اتجاه الحادثة عن

مسارها وبالتالي إلحاق الضرر بأمتنا بالتأكيد بدلاً من إفادتها منها .

والآن أعود لأقول : إننا وللأسف الشديد قد حرّفنا حادثة عاشوراء ألف مرة ومرة أثناء عرضنا لها ونقل وقائعها ! حرفناها لفظياً أي في الشكل والظاهر أثناء عرض أصل الحادثة ، مقدمات الحادثة ، متن الحادثة والحواشي المتعلقة بالحادثة . كما تناول التحريف تفسير الحادثة وتحليلها . أي إنّ الحادثة مع الأسف قد تعرّضت للتحريف اللفظي كما تعرضت للتحريف المعنوي . أحياناً يحصل التحريف بشكل يتناسب ـ نوعاً ما ـ مع أصل القضية وينسجم مع مقدماتها ، غير أنه في أحيان أخرى يتم التحريف ليس فقط دون أي تناسب أو اتّساق مع أصل القضية ، بل إنّ التحريف ينسف أصل القضية ويمسخها تماماً ويخرجها بشكل مضاد للأصل بالكامل . وأقول بكل مرارة : إنّ التحريفات التي أصابت هذه القضية على أيدينا كانت كلّها باتجاه التقليل من قيمة الحادثة ومسخها وتحويلها إلى حادثة لا طعم لها ولا معنى . والمسؤولية تقع هنا على الرواة والعلماء ، كما تقع على العامة من الناس ، وهو ما سأوضحه لاحقاً إنْ شاء الله .

إنني أنقل لكم أولاً بعض التحريفات التي تعرض لها الشكل الظاهري للقضية أي التحريف اللفظي للحادثة ، أي ما نُسب إلى أصل الحادثة من أقوال . إن المادة المزورة والمدسوسة كثيرة للغاية ولا يمكن حصرها بسهولة، وإذا ما أردنا جمع كل المآتم الكاذبة فإننا ربما سنحتاج إلى عدة مُجلدات ضخمة ! ولكنني أعرض عليكم نموذجاً فقط من هذا التحريف :

المرحوم الميرزا حسين النوري أعلى الله مقامه وهو أستاذ المرحوم الحاج الشيخ عباس القمّي والمرحوم الحاج الشيخ محمد باقر البيرجندي والمرحوم الشيخ علي أكبر النهاوندي ، والحاج النوري هذا مُحدّث نادر ومتبحر في فن الخطابة والحديث ، وصاحب حافظة ذهنية قوية جداً ، ورجل حماسي ، يملأ قلبه الإيمان ، وله ذوق رفيع ، لكن بعض كتبه كما يقال لم تكن تناسب شخصيته ولهذا تعرض إلى اللوم ، غير أن كتبه بوجه الإجمال جيدة ، وخاصة كتابه المعروف باسم « اللؤلؤ والمرجان » وهو من الكتب الجيدة جداً بالرغم من حجمه الصغير .

والحديث في هذا الكتاب يتناول وظائف أهل المنبر وقُراء المآتم الحسينية . والكتاب كله عبارة عن فصلين ؛ الفصل الأول يتحدث فيه المؤلف عن الإخلاص وشرط خلوص النية في كل قارىء تعزية أو خطيب منبري وواعظ حسينيّ ، وضرورة ابتعاده عن الجشع المالي وحُب الكسب والارتزاق ، ولا أريد هنا الغوص كثيراً في هذا الباب الذي فصّله المؤلف بشكل عجيب . أما الشرط الثاني الذي وضعه المؤلف لقارىء التعزية والخطيب المنبري فهو الصدق ، وهذا هو بيت القصيد الذي أردت الإشارة إليه حيث تم شرحه في الكتاب بشكل لا أتصور أن أحداً آخر قام بمثل هذه المهمة وبحث في موضوع الكذب وأنواع الأكاذيب كما كتب الحاج النوري ، وهو عمل ـ كما أعتقد ـ لا نظير له في الدنيا ، فالرجل متبحّر بشكل عجيب ! .

لقد ذكر هذا الرجل الكبير في كتابه هذا نماذج من الأكاذيب المعروفة التي ألصقها الكثيرون بحادثة كربلاء ، وهي تماثل أغلب ما أقوله ، بل كله ، وهذا ما كان يشكو منه المرحوم الحاج النوري ، حتى أن هذا الرجل الكبير يصرّح بقوله :

« من الواجب أن نقيم المآتم على الحسين (ع) ، أما المآتم التي تقام عليه اليوم فهي جديدة ، ولم تكن هكذا فيما مضى ، وذلك بسبب كل تلك الأكاذيب التي ألصقت بحادثة كربلاء دون أن يفضحها أحد ، إننا يجب أن نبكي الحسين (ع) ولكن ليس بسبب السيوف والرماح التي استهدفت جسده الطاهر الشريف في ذلك اليوم التاريخي ، بل بسبب الأكاذيب التي أُلصقت بالواقعة » .

كما وردت في مقدمة الكتاب إشارة إلى منبع الأكاذيب حيث نقرأ قوله :

« كتب لي أحد العلماء من الهند يشكو من كثرة الأكاذيب التي يروّج لها قُراء التعزية الحسينية في تلك البلاد وقد رجاني أن أعمل شيئاً بهذا الخصوص كأن أكتب كتاباً يُساهم في منع استمرار الخطباء من الكذب على المنابر الحسينية » .

ثم يكتب الحاج النوري رضوان الله عليه مُضيفاً :

« إنّ هذا العالم الهندي يتصور أنّ قُراء التعزية الحسينية يبدأون بنشر

الأكاذيب بعد أن يصلوا إلى الهند ، ولا يدري أن المياه ملوّثة من رأس النبع ، وأن مصدر المآتم الكاذبة هي كربلاء والنجف وإيران ، أي مراكز التشيّع الأساسية نفسها » .

والآن أودُ أن أذكر لكم بعض النماذج من التحريفات التي يتعلق قسم منها بوقائع ما قبل عاشوراء والبعض الآخر بالوقائع التي حصلت في الطريق إلى كربلاء ، وأخرى تتعلق بأيام الإقامة في شهر محرّم الحرام أو بأيام الأسر . وهناك البعض منها مما هو متصل بحياة الأئمة الأطهار الذين توالوا بعد حادثة عاشوراء ، ولكن أغلب النماذج ستكون مرتبطة بيوم عاشوراء نفسه .

والآن سأورد لكم نموذجين من كل حالة . ولكن قبل ذلك أجدُ من الضروري الإشارة إلى أن الناس مسؤولون أيضاً عمّا يجري في هذا المجال . الا ترون أنفسكم أنتم المشاركين في هذه المآتم الحسينية بأنكم مسؤولون أيضاً ؟ أتعتقدون فعلاً بأن المسؤولية تقع على عاتق الخطباء لوحدهم ؟! أبداً ، فهناك مسؤوليتان كبيرتان ينبغي على جمهور العامة تحملها على الدوام .

أولاً : إن النهي عن المنكر واجب على الجميع . وعليه فإنّ من يعرف بأن ما يقال على المنابر كذب وافتراء ـ وأكثر الناس تعرف ذلك ـ فإن من واجبه عدم الجلوس في مثل هذه المجالس لأنه عمل حرام والواجب يتطلب منه مقاومة هذا الكذب وفضحه .

وثانياً : لا بد لنا جميعاً من قهر هذه الرغبة اللامسؤولة المنتشرة بين الناس والخطباء ، والتي تتوقع من المجالس الحسينية أن تصبح مجالس حارة وحماسية أو كما يصطلح عليها البعض « كربلاء ثانية » . فالخطيب المسكين تراه أحياناً يقع في حيرة إذا ما تكلم الصدق وقال الحقائق دون زيادة أو نقصان من على المنبر الحسيني إذ إنّ نتيجة ذلك ستكون نعت مجلسه بالمجلس البارد وغير الحماسي وبالتالي عدم رغبة الناس بدعوة هذا الخطيب مجدداً ، مما يضطره إلى اختراع بعض القصص الخيالية لإدخال الحرارة إلى مجلسه !

وواجب الناس هنا هو مقاومة هذه الرغبة اللامسؤولة وإثبات ذلك

بسلوكهم ، فلا يقوموا بتشجيع مثل هذا الخطيب الحسيني الذي يريد تحويل مجلسه إلى كربلاء ثانية بأي ثمن كان .

فما معنى خلق كربلاء ثانية ! ينبغي على الناس أن تستمع إلى المآتم الحسيني الصادق حتى تتسع معارفهم وينمو مستوى التفكير لديهم ويعرفوا بأن اهتزاز روحهم مع أية كلمة من كلمات المآتم الحسيني يعني تحليقها وانصهارها مع روح الحسين بن علي (ع) ، وبالتالي فإن دمعة واحدة إذا ما خرجت من مآقيهم كافية لمنحهم ذلك المقام الكبير لأنصار الحسين . أمّا الدموع التي تخرج من خلال العرض المأساوي ورسم المجزرة وتشريح الذبح والمذبحة فلا تساوي شيئاً ، حتى لو كانت بحراً من الدموع !

يذكر في هذا المجال أنّ أحد العلماء الكبار المتواجدين في إحدى المحافظات ـ الإيرانية ـ وهو من العلماء الذين يحملون بعض المعاناة والألم والحس الديني ، وكان على الدوام يعترض على هذه الأكاذيب التي تقال من فوق المنابر وتعبيره في هذا الصدد هو : ما هذه السموم التي تُنفث فوق المنابر ؟

جاءه مرةً أحد الوعّاظ يقول : أتعلم أنّنا لو تخلينا عن مثل هذه الحكايات لتوجّب علينا إغلاق هذه الدكان ؟!

فرد عليه العالم : إنها أكاذيب يجب علينا عدم ذكرها على المنابر مهما حصل .

ومرّت الأيام وشاءت الأقدار أن هذا العالم أراد مرةً إقامة مجلس تعزية في مسجده الخاص ، ودعا نفس ذلك الواعظ ، وقال له قبل أن يرتقي المنبر بأنه يُريد أن يُقيم مجلساً حسينياً نموذجياً لا تُذكر فيه إلا الحقائق ، وأنه ينبغي على الواعظ الالتزام بهذه التعليمات وأن لا يقرأ من الأحاديث والذكر الحسيني إلاّ من الكتب المعتبرة . وأن يتجنّب ذكر أي شيء من تلك السموم المعروفة . فاستجاب الواعظ وقال لأخينا العالم : المجلس مجلسك وأنا تحت أمرك .

وهكذا بدأ المجلس الحسيني في الليلة الأولى بحضور العالم نفسه الذي كان

جالساً أمام المحراب باتجاه القبلة إلى جانب المنبر . وبدأ الواعظ بالحديث ولّما انتهى به المطاف إلى قراءة التعزية الحسينية التزم فعلاً بألاّ يقرأ إلاّ من الكتب المعتبرة ولا ينقل إلاّ الحقائق ولا يقول إلا الصدق .

ولكن المجلس ظل بارداً ولم يهتز أبداً أي أحد من الحضور . هنا بدأ العالم المسؤول عن تنظيم المجلس يُفكر جدياً بالأمر ويقول بينه وبين نفسه بأن المجلس مجلسي فماذا سيقول الناس عني بعد ذلك ؟ والنساءُ ستقول لا بد أن الرجل ليست عنده نية صافية حتى صار مجلسه مجلساً بارداً ، فلو كان الرجل ذا نية حسنة وكان مخلصاً حقاً في نواياه لكان مجلسه قد تحوّل بالفعل إلى كربلاء . وشيئاً فشيئاً بدأ يشعر أنه سيفقد ماء وجهه إذا ما استمر الموقف بهذا الشكل . وأخيراً حسم الأمر بالتفاتةٍ منه إلى الواعظ مشيراً إليه خفية أن يمزج أقواله ببعض تلك السموم حتى يسخن المجلس !!

باختصار يمكن القول إنّ هذه الرغبة اللامسؤولة لرؤية واقعة كربلاء وبشكلها المأساوي من طرف الناس كانت هي الدافع لاختلاق الأكاذيب . ولذلك فإنّ أغلب التزوير والكذب الذي أُدخل في مواعظ التعزية كان سببه الرغبة في الخروج من سياق الوعظ والتحليق في خيال الفاجعة ، وبعبارة أخرى : فمن أجل شدّ الناس إلى صورة الفاجعة التاريخية وتصويرها المأساوي ودفع الناس إلى البكاء والنحيب ليس إلاّ ، كان الواعظ على الدوام مضطراً للتزوير والاختلاق .

لقد سمعت بهذه القصة عدة مرات ولا بد أنكم سمعتم بها أيضاً والقصة هذه ذكرها أيضاً الحاج نوري في مقدمة كتابة المعروف . تقول القصة إنّ أمير المؤمنين علياً(ع) صعد يوماً إلى المنبر ليخطب في الناس. وحصل أن عطش الإمام الحسين (ع) وطلب ماءً فقطع أمير المؤمنين خطبته وطلب من الناس أن يأتوا بالماء لابنه الحسين، فكان أبو الفضل العباس وهو طفل صغير أول من نهض ليأتي بالماء حيث ذهب إلى أمه وأحضر الماء ، وعاد إلى المجلس والماء فوق رأسه وقد تبللت ثيابه إلى آخر القصة بتفاصيلها المعروفة !! . ولّما رأى أمير المؤمنين (ع) هذا المنظر انسابت الدموع على خديه، ولما سُئل عن سبب البكاء؟ أجاب عليه السلام :

تذكرتُ كذا وكذا . . . إلى آخر الخيال والتحليق المعروفة نهايته .

الحاج نوري هنا يناقش هذه القصة الخيالية بشكل جميل حيث يقول : إذا ما صدّقنا جدلاً صحة هذه القصة فهذا يعني أن أمير المؤمنين (ع) كان يُلقي تلك الخطبة في الكوفة إذ إنه عليه السلام لم يصعد إلى المنبر ويخطب إلاّ في زمان خلافته ، مما يعني أن ابنه الحسين عليه السلام كان رجلاً يناهز الثالثة والثلاثين من العمر في ذلك الوقت ، فهل من المعقول والمنطقي أن يقوم رجل بذلك العمر مثل الإمام الحسين عليه السلام ليطلب الماء من أبيه وهو يخطب بالناس ويعظهم ؟! وماذا لو كان مثل هذا السلوك قد صدر من شخص عادي ؟ أما كنّا قد وجّهنا تهمة الوقاحة وسوء الأخلاق لمثل هذا التصرف ؟! ثم إنّ أبا الفضل العباس كان قد بلغ سن الخامسة عشرة على الأقل في ذلك الزمان فأين طفولته ؟! وقس على ذلك بقية التفاصيل المختلقة جملةً وتفصيلاً . فهل هذا من شأن الإمام الحسين ؟! ثم ما قيمة مثل هذه القصة المليئة بالأكاذيب ؟ وهل ترفع من شأن الإمام الحسين (ع) أم تخفض من شأنه ومقامه ؟ بالتأكيد إنها تخفض من مقامه ومنزلته لأننا لفّقنا الأكاذيب على الإمام ، وسفحنا ماء وجهه وتحدثنا عنه بشكل هبط بمستواه إلى أدنى مرتبة بين بني البشر ، فأب مثل علي (ع) مشغول بالخطابة ، وابنه يعطش فلا يحتمل الانتظار حتى تنتهي الخطبة فيشرب فيقاطع أباه ويقول : إنني عطش فأحضر لي ماءً .

النموذج الآخر للتزوير والاختلاق هو قصة الرسول والرسالة حيث يقال : إن رسولاً قدم إلى الإمام الحسين (ع) حاملاً معه رسالة يُريد جوابها، فيقول له الإمام أنْ اذهب وعُد إلينا بعد ثلاثة أيام . وأنه لمّا عاد إليه بعد ثلاثة أيام وسأل عنه قيل له بأنه عازم على المغادرة وقد بدأ تحركه ، فقال في نفسه : طالما الأمر كذلك فلأذهب لأرى كيف يكون جلال شاه الحجاز (يقصد الإمام الحسين) وعظمة موكبه . وانطلق فإذا به يرى الحسين نفسه وقد جلس على كرسي فخم وبنو هاشم على كراسي كذا وكذا ، ثم إذا بهم يحضرون الهوادج المزخرفة . . يا للحرير ويا للديباج !! يا لها من فخامة ! ثم أحضروا المخدّرات ، وأركبوهن بكل احترام وتعظيم في تلك الهوادج ، وإلى آخر الديباجة . . .

يقولون هذا وغيره ، ثم يقفزون فجأة إلى اليـوم الحادي عشر من المحـرّم ، ليقولوا للناس : انظروا مـاذا حلّ بحـرم أبي عبد الله (ع) في هـذا اليوم بعـد تلك العظمة والجلال والفخامة التي كانوا عليها في ذاك اليوم !!

وحول هذه الادّعاءات يقول الحاج نوري :

ما معنى هذا الكلام ؟! وها هو التاريخ يروي أن الإمام الحسين (ع) ، كان عندما غادر الحجاز يتلو هذه الآية الكريمة :

﴿ فخرج منها خائفاً يترقّب ، قال ربِّ نجّني من القوم الظالمين ﴾ .

مشبهاً حالته (ع) بحالة موسى بن عمران عندما فرّ من فرعون وهـو يقول : ﴿ عسى ربي أن يهديني سواء السبيل ﴾ .

وكانت قافلته (ع) بسيطة للغاية . ثم من قال إن عظمة أبي عبد الله تقـاس بالكرسي المذهّب الذي يجلس عليه أو بالذهب المرصّـع أو الديبـاج والحريـر الذي يكسو هوادج أهل بيته ؟ أو بالخيول والجمال والخدم والحشم المرافقين للقافلة !! .

هناك نموذج آخـر للتحريف في وقـائع عـاشوراء وهـو القصة التي أصبحت معـروفـة جـداً في القـراءات الحسينيـة والمـآتم وهي قصـة ليلى أم عـلي الأكـبر . هـذه القصـة لا يـوجـد في الحقيقـة دليـل تـاريخـي واحـد يـؤكّـد وقوعها . نعم فأم علي الأكبر موجودة في التاريخ واسمها ليلى بالفعـل ولكن ليس هناك مؤرخ واحد يشير إلى حضورهـا لمعركـة كربـلاء . ومع ذلـك فما أكثر المآتم التي تقرأ لنا قصة احتضان ليلى لابنها علي الأكبر في ساحة الوغى !والمشهد العاطفي الخيـالي المحض ! حتى إنـني حضرت شخصيـاً في قم مجلسـاً حسينيّـاً أقيـم بـاسـم آيـة الله البروجـردي ، دون أن يـكـون هـو حـاضـراً بـالطبـع ، وقـد سـمعـت في هـذا المجلس أن عليـاً الأكـبر نـزل إلى ساحة الوغى وإذا بالحسين يتوجـه إلى أمه ليلى ويطلب منهـا الدخـول إلى إحدى الخيم ونثر شعرها والتوجه إلى ربها بالدعـاء ليُرجـع ابنها سـالماً إليهـا !فإني سمعتُ جـدي رسول الله (ص) يقـول بأن دُعـاء الأم بحق ابنها مستجـابٌ ! فهـل هنـاك تحريف أكثر من هذا . أولاً ليس هناك ليلى في كربـلاء حتى يُحدِّثهـا الإمام . ومن

ثم ثانياً هل هذا هو منطق الحسين في المعركة ؟ أبداً فمنطق الحسين يوم عاشوراء كان منطق التضحية والجهاد . ثم إن كل المؤرخين متفقون على أن الحسين كان يجد الأعذار لكل من يطلب التوجه إلى المبارزة ما عدا ابنه علي الأكبر فإنه لمّا استأذنه بالقتال أذن له كما تذكر كل الروايات : « فاستأذن في القتال أباه فأذن له »[1] . ولكن رغم ذلك ما أكثر الأشعار التي نظموها بحق ليلى وابنها في خيم كربلاء !!

نموذج آخر سمعته في طهران ، وهو أمر عجيب جداً عندما كنت في أحد المجالس الحسينية التي عقدت في بيت أحد كبار علماء هذه المدينة قبل عدة سنوات ، كان القارىء يتحدث عن ليلى وابنها علي الأكبر ، ولمّا وصل إلى المحل السابق حيث توجهت إلى الخيمة ونثرت شعرها بناء على طلب الحسين فإنها نذرت أيضاً زرع الطريق من كربلاء إلى المدينة بالريحان إذا ما استجاب الله تعالى دعاءها وأرجع لها ابنها سالماً من المعركة !! أي إنها ستزرع طريقاً طوله ثلاثمائة فرسخ بالريحان !! قال القارىء ذلك ثم راح ينشد ويقول :

نَذْرٌ عليّ لَئِنْ عادوا وإنْ رَجعُوا لأزرعنّ طريق التّفتِ ريحانا

لقد ذُهِلْتُ لما سمعت ، وزاد تعجبي من هذا البيت من الشعر العربي، وصرتُ أسألُ نفسي من أين جاء وسط هذه التعزية ؟! ثم ذهبْتُ أبحث في بطون الكتب وإذا بي أجدُ بأن ـ التفت ـ هي منطقة غير منطقة كربلاء أولاً ، ثم إنّ بيت الشعر كله لا علاقة له بحادثة عاشوراء لا من قريب ولا من بعيد بل إنه نُظم على لسان مجنون ليلى العامري وهو ينتظر ليلاه التي كانت تقيم في هذه الناحية ، وإذا بقُراء التعزية صاروا يقرأونه على لسان ليلى أم علي الأكبر ، وحُرِّفت التفت إلى طف كربلاء وواقعة عاشوراء . تصوروا لو أنّ مسيحياً أو يهودياً أو مُلحداً كان حاضراً في مثل هذا المجلس ، ألا تنتظرون منه أن يقول : ما هذه التّرهات التي تشوب تاريخ هؤلاء القوم ؟! إنه لن يقول بأنّ قُرّاء التعزية قد اختلقوا مثل هذه القصص من عندياتهم . بل إنه سيقول والعياذ

---

(١) اللهوف على الطفوف ص ٤٧

بالله : ما أحمق نساءهم اللواتي ينذرن زرع الريحان من كربلاء إلى المدينة !! فما هو معنى هذا الكلام ؟!

الحاج نوري يذكر تحريفاً آخر أسوأ مما سبق ويقول : تصوروا في ذلك اليوم القائظ جداً من عاشوراء وتحت حرارة الشمس الحارقة وفي الوقت الذي لم يترك الأعداء فيه مجالاً لإقامة الصلاة ، وعندما أراد الإمام إقامة صلاة الخوف[1] وقد أقامها بتلك العجلة المعروفة فإنه لم يسلم من سهام الأعداء إلّا بعد أن جعل اثنان من أصحابه من جسديهما مجنّاً يحميه ، وقيل إنهما هلكا من كثرة الرماح التي أصابتهما حتى انتهى من تأدية ركعتي صلاة الخوف ، ففي مثل هذا الجو الاستثنائي وفي تلك الحالة تصوروا الحُسين وهو يطلب من أهله وأنصاره أنْ يُقيموا له حفل عرس ليزوّج القاسم من إحدى بناته ، وهي الرغبة التي لا يُريد أن يحملها معه إلى القبر !!

تصوّروا ـ بالله عليكم ـ هذا الكلام الذي كثيراً ما يتردد على لسان بسطاء الناس الذين يتمنون رؤية عرس ابنهم أو بنتهم قبل موتهم ، فينسبونه إلى شخص كالحسين بن علي وهو في خضم المعارك ، وفي ذلك اليوم التاريخي الذي لا مجال فيه حتى لإقامة فريضة الصلاة ، يطلب رؤية عرس القاسم من إحدى بناته ، نعم أنهم يتقولون على الحسين بأنه يُريد تزويج ابن أخيه من بنته وإقامة حفل زواج لهما مهما كان مصغراً في ذلك اليوم بالذات ، لأنه قد يرحل من هذه الدنيا وبالتالي تذهب معه هذه الرغبة إلى عالم الآخرة !!

عرس القاسم ! وهل هناك مَنْ لم يسمع في كل تعزية من التعازي الحسينية بعرس القاسم . هذا العريس الشاب صهر الإمام الحسين في يوم عاشوراء !! إنه اختلاق محض لا وجود لأي أساس له في كل الكتب المعتبرة . لكنه كما يكتب الحاج نوري فإن أول من أدخل هذه القصة في التاريخ الحسيني المزور هو الملا حسين الكاشف في كتابه (روضة الشهداء) .

---

(١) صلاة الخوف هي صلاة الفريضة نفسها ، وتؤدّى قصراً .

وأصل القضية كذب واختلاق مئة بالمئة ، فلو أنَ سيد الشهداء (ع) ظهر مُجدداً بيننا ورأى وسمع ـ بالطبع إنه الآن يشهد كل ذلك روحياً ولكننا نقصد الحضور الجسدي ـ ما نقول عنه فإنه سيسمع بأصحاب وأعوان لا وجود لهم أبداً .

ورد مثلاً في كتاب (مُحرق القلوب) الذي اتفق أن كاتبه هو أحد الفقهاء والعلماء الكبار من الذين لا علم لهم بهذه الأمور ، أن أحد أصحاب الإمام الحسين في يوم عاشوراء هو هاشم المرقال ـ الذي نبع من الأرض طبعاً ـ !! وأنه كان يحمل بيده رمحاً طوله ثمانية عشر ذراعاً ! .

كما ادّعى أحدهم بأنّ رمح سنان ابن أنس الذي يُنسب إليه قطع رأس الحسين كان يبلغ ستّين ذراعاً . ولمّا سألوه كيف يكون ذلك ! قال بأنّ الله قد بعث له مثل هذا الرمح من الجنة ! .

إنّ هاشم بن عتبة بن مرقال هذا الذي يذكره العالم الكبير في كتابه ـ محرق القلوب ـ من أصحاب أمير المؤمنين علي (ع) وقد مات قبل عشرين عاماً من معركة عاشوراء .

كما نذكر له أعداء لا وجود لهم . ففي كتاب (أسرار الشهادة) يصبح رقم جيش عمر بن سعد مليوناً وستمائة ألف شخص . ونحن هنا لا بدّ أن نسأل : من أين جاء كلّ أولئك الجند ، وهل كانوا كلهم في الكوفة ، هل يعقل هذا ؟!

وكما ورد في نفس هذا الكتاب فإنّ الإمام الحسين (ع) قد قتل ثلاثمائة ألف شخص بيده فقط !! في هيروشيما كان عدد قتلى القنبلة الذرية ستين ألفاً . وقد حسبتُ من طرفي مقدار الوقت اللازم لقتل هذا العدد ، فلو أنّ الإمام لم يكن يعمل أي شيء سوى الضرب بالسيف وأن سيفه كان يحصد في كل ثانية أحد الأشخاص فإن قتل هذا العدد الكبير كان سيحتاج إلى ثلاث وثمانين ساعة وعشرين دقيقة .

وبعد أن رأوا أنّ هذا العدد الكبير من القتل لا يتلاءم مع عدد ساعات ليوم قالوا إن يوم عاشوراء كان سبعين ساعةً !!

كذلك قالوا عن أبي الفضل العباس بأنّه قتل خمسة وعشرين ألفاً . ولمّا حسبتُ مقدار الوقت اللازم فيما لو كان يقتل شخصاً في كل ثانية لكان الأمر يتطلب ست ساعات وخمسين دقيقة وبضعاً من الثواني .

إذن لا بد لنا أن نُصدّق كلام الحاج نوري عندما يقول : إذا ما أراد أحد أن يبكي أبا عبد الله الحسين اليوم ويذكر مصائبه فعليه أن يبكي مصائب الحسين الجديدة . أن يبكي حُسيناً لكثرة الأكاذيب والاختلاقات التي نُسبت إلى واقعة عاشوراء وشخصية الإمام .

النموذج الأخر للتحريف هو يوم الأربعين (أربعين الحسين) . عندما يحين موعد الأربعين نسمع جميعاً بالتعزية الخاصة بيوم الأربعين والناس جميعاً يعتقدون بأنّ الأسرى من آل بيت الرسول قد ذهبوا في ذلك اليوم من الشام إلى كربلاء والتقوا هناك بجابر ، كما التقاه الإمام زين العابدين (ع) . في حين أن المؤلف الوحيد الذي يذكر هذا الموضوع هو السيد ابن طاوس في كتابه (اللهوف على الطفوف) لكنه هو نفسه كذّب ذلك أو على الأقل لم يؤيده في مؤلفاته الأخرى . وهذه القصة لا تذكرها الكتب المعتبرة إطلاقاً ، كما أنه ليس هناك أي دليل عقلي على حصولها . ولكن هل من الممكن اقناع الناس بعدم حصول مثل هذه الواقعة التي يسمعونها كل عام على المنابر وفي المجالس والتعازي الحسينية ؟!

إنّ أول زائر لقبر الإمام الحسين (ع) هو جابر ، ومراسم الأربعين ليست سوى الزيارة المعروفة التي قرأها جابر على قبر الإمام . لا يوجد شيء اسمه تجديد عزاء أهل البيت ولا قدوم الأسرى من آل النبي إلى كربلاء . إنّ الطريق من الشام إلى المدينة لا يمر عبر كربلاء أبداً فالطريق إلى المدينة يفترق عن الطريق إلى كربلاء من الشام نفسها .

إنّ الشيء الذي يحز في القلب هو كون واقعة كربلاء من أغنى الوقائع التاريخية المُدعمة بالوثائق والأسناد المعتبرة . في السابق كنتُ أتصور أن سبب كل هذه الأكاذيب التي الصقت بهذه الحادثة يكمن في عدم معرفة الوقائع الصحيحة للواقعة . ولكنني بعد المطالعة والتدقيق لاحظت أنه ربما كانت واقعة كربلاء

واحدة من أندر الوقائع التاريخية المدعمة بكل تلك الأسناد التاريخية الباقية منذ ذلك التاريخ البعيد أي منذ أربعة عشر قرناً خلت . فالمؤرخون الإسلاميون معتبرون دوّنوا ونقلوا لنا وقائع عاشوراء بالأدلة والوثائق الدامغة منذ القرن الأول والثاني . والروايات الموجودة في هذا الشأن إما متطابقة أو قريبة جداً من التطابق مع بعضها البعض ويبدو أن أسباباً معينة كانت وراء حفظ كل تلك التفاصيل من عوامل التزوير والاختلاق، وربما كانت الخطب الكثيرة أحد الأسباب التي جعلت وقائع القضية محفوظة في التاريخ من جهة، وأهدافها معروفة للجميع من جهة أخرى . فالخطبة في ذلك الزمان كانت بمثابة البيان الرسمي أو الإعلان الحكومي للدولة في الوقت الحاضر . تماماً كما هي حال البيانات الرسمية التي تصدر عن الدول بشأن الحروب ووقائعها والتي تعتبر أفضل وثيقة تاريخية كانت حول الخطب آنذاك . ولذلك نرى أن الخطب التاريخية الأساسية سواء الخطب التي وردت قبل دخول المعركة أو خلالها وكذلك خطب آل بيت النبوة في الكوفة وفي الشام أو غيرها من المدن ، بعد انتهاء الواقعة ، كلها تُبين بوضوح أهداف المعركة وخط سيرها الأساسي . يُضاف إلى ذلك ، أن هدف أهل البيت ، من وراء تلك الخطب ، كان يهدف فيما يهدف إلى إلقاء الأضواء على أسباب وقوع الحادثة وعرض تفاصيلها للناس وشرح أهدافها لهم، وهذا بحد ذاته يُشكل سبباً من أسباب بقاء تفاصيل الواقعة مدوّنة في الوثائق التاريخية .

إن الحوار الطويل الذي دار بين طرفي النزاع في واقعة كربلاء مدون في بطون الكتب التاريخية الأمر الذي يُبين لنا ماهية الواقعة وجوهرها . كما أن الرَّجز الذي أُنشد أثناء الواقعة وقبلها ـ وهو كثير ـ يمكن أن يُبيّن لنا ماهية المعركة وأهدافها لا سيما الرَّجز الذي ورد على لسان أبي عبد الله الحُسين . بالإضافة إلى ذلك كله فقد تم تبادل رسائل كثيرة بشأن حادثة كربلاء سواء قبل وقوع الحادثة أو خلالها أو بعدها . فهناك الرسائل المتبادلة بين الإمام وأهل الكوفة والإمام وأهل البصرة ، والرسالة التي كتبها الإمام إلى معاوية نفسه [مما يُبيّن لنا أن الإمام كان يُعدّ نفسه للانتفاضة بعد حكم معاوية] كذلك الرسائل المتبادلة بين الأعداء أنفسهم كرسالة يزيد إلى ابن زياد ورسالة ابن زياد إلى يزيد وابن زياد إلى عمر بن سعد وعمر بن

سعد إلى ابن زياد . لقد أصبحت كل تلك الرسائل وثائق دوّنها لنا التاريخ .

ولذلك فإن وقائع المعركة التاريخية واضحة المعالم تماماً ومليئة بالفخر والعزة والمجد . ولكننا شوّهنا هذه الصفحة التاريخية المشرقة وارتكبنا خيانة كبرى بحق الإمام الحسين (ع) بحيث إنه لو ظهر إلى عالم الوجود المادي اليوم لاتّهمنا بقلب حقيقة الواقعة رأساً على عقب، ولقال: إنني لستُ ذلك الحسين الذي رسمتموه في خيالكم، وإنَّ القاسم بن الحسن الذي صورتموه في مخيلتكم ليس هو القاسم ابن أخي . وعلي الأكبر الذي رسمتموه في مخيلتكم ليس هو ذاك الابن الأصيل من صلب الحسين، والأعوان الذين تتحدثون عنهم ليسوا بأعواني وأصحابي في يوم عاشوراء . نعم فنحن قد صورنا القاسم ذلك العريس الذي لا هم له إلاّ البحث عن زوجة له ولا هم لعمه أيضاً سوى تزويجه ! فهل حاولتم مرة مقارنة هذا القاسم الذي اختلقتم شخصيته مع شخصية القاسم التاريخية الحقيقية ؟ دعونا نتذكر التواريخ المعتبرة حول واقعة عاشوراء . فهي تنقل جميعاً هذه التفاصيل المعروفة عن ليلة عاشوراء .

فالإمام الحسين (ع) يجمع أصحابه في تلك الليلة في خيمة « عند قُرب الماء »[1] ويُلقي عليهم خطبته المشهورة التي يطلب فيها إليهم استخدام ظلام الليل ستاراً للفرار وترك المنطقة لأن العدو لا يطلبه إلاّ هو . ولا أريد هنا الخوض مفصلاً في تلك الخطبة ولكن خلاصتها تفيد بأن الإمام إنما أراد بتلك الخطبة القول لأصحابه بأنكم أحرار وفي حل من بيعتكم لي ، وهو ما ينطبق على أهل بيته وإخوانه وأبنائه وأبناء إخوانه وكل أنصاره. نعم لقد قال لهم ذلك بعد أن كان قد مجّد موقفهم البطولي وأعلن رضاه عنهم وأعلن صراحةً بأنه ليس هناك أصحاب في الدنيا أحسن وأفضل من أصحابه ولا أهل بيت أحسن من أهل بيته .

وهل نسيتم ماذا كان موقفهم جميعاً ! إنهم أجابوه جميعاً : وهل ذلك ممكن

---

(١) بحار الأنوار مجلد ٤٤ ص ٣٩٢ ، أعلام الورى ص ٢٣٤ ، إرشاد الشيخ المفيد ص ٢٣١ . مقتل الحسين للمقرم ص ٢٥٧ . والظاهر أن هذه الخيمة كانت مُخصصة لتجميع قُرب الماء منذ اليوم الأول للنزول بتلك الأرض .

ـ سيدي ومولاي . ماذا سنقول لنبينا ، ومن ثم أين الوفاء وأين الإنسانية وأين حبة وأين العاطفة ؟ إلى آخر تلك الخطب التي ألقوها والتي تثير كل واحدة منها هيجان في وجدان المرء ، وتعطيه الحماس المنقطع النظير، حيث يقول أحدهم : هل تساوي النفس شيئاً حتى نبخل بها فداءً لشخص من مثلك ؟! ألا ليتني كنتُ موتُ وأحيا سبعين مرةً لأتمكن من تقديم تلك الروح سبعين مرةً فداءً لك . وآخر يقول ألف مرة ، وهناك من تمنى لو أن جسده سرعان ما يحيا بعد كل حتراق ، حتى يتمكن من التضحية به دائماً وأبداً ، فداءً للحسين . ولقد كان من المتكلمين أخوه أبو الفضل العباس ثم تبعه بنو هاشم جميعاً ، الأمر الذي دفع الإمام إلى تغيير الموضوع والبدء بالحديث إليهم عن تنبؤاته وعن احتمالات الوضع ممكنة في اليوم العاشر من المحرم ، وهنا أنبأهم بالشهادة فما كان منهم إلاّ أن تلقوا الخبر بالبهجة والسرور .

وهذا الشاب الذي ظلمناه بهذا الشكل وخلقنا منه تلك الشخصية التي لا يهمه من الحياة إلاّ الزواج كان حاضراً أيضاً في مجلس الكبار وهو ابن الثالثة عشرة فهل تتصورون موقفه في تلك اللحظة ؟ لقد سأل سؤالاً يدل على الرغبة حقيقية الكامنة في أعماقه .

والظاهر أن هذا الشاب كان جالساً في المؤخرة ينتظر وصول دوره حتى يتكلم ولمّا أنبأهم الإمام بخبر موتهم غداً بدأ يفكّر بينه وبين نفسه إنْ كان هذا ... يشمله أيضاً ؟ وصار يخاطب نفسه : « ربما كان يقصد سيدي الحسين بأن الموت سيُصيب الكبار فقط بينما أنا الطفل الصغير لا يشملني مثل هذا الحتف ... ، ولذلك نهض فجأة وسأل مولاه الحسين قائلاً : « وأنا في مَنْ يُقتَل »؟ ... الآن الأمنية الكامنة وراء السؤال . فرد عليه الإمام قائلاً : أجبني أولاً عن السؤال الذي سأطرحه عليك حتى أُجيبك عن سؤالك هذا .

وتصوري بأنّ الإمام إنما طرح هذا السؤال متعمداً حتى يحصل الحوار ... ويُدرك الناس في المستقبل بأنّ هذا الشاب ، إنما دخل المعركة ، وعرّض نفسه للقتل عن سابق وعي وإدراك ، وليس عن جهل وعدم اطّلاع ، وحتى لا

يقولوا عنه أيضاً بأنه لم تكن لديه آمال سوى الزواج ، ويقيموا له حفل عرسه ، وينعتوه بالعريس ، ويتجنّوا عليه !!

ولذلك فإنّ الإمام يسأله أولاً : « كيف الموتُ عندكَ ؟ » فيجيب فوراً ودون تردد : « أحلى من العسل » . يعني يا مولاي إنْ تسألني عن طعم الموت عندي فإني لا أجدُ طعماً أحلى من طعم الموت وهو عندي أحلى من العسل الذي يتمناه الجميع لطعمه الحلو اللذيذ .

إنه لموقف يهز الأبدان ويُحرّك المشاعر كلها ! نعم من أجل هذه المواقف ، وبسبب تلك الروح العالية ، دخلت واقعة كربلاء بوابة التاريخ الكبرى ، وظلت خالدة على مر العصور ، وواجبنا الحفاظ عليها خالدة ، مضيئة ، مشرقة ، لأن تكرار مواقف الحسين والقاسم ليس أمراً سهلاً وقد لا تتكرر مثل هذه المواقف في التاريخ أبداً .

من هنا نستطيع القول بأننا لم نعمل شيئاً يُذكر إذا ما أسسنا مثل هذه الحسينيّة[1] باسم هؤلاء بعد مرور أربعة عشر قرناً . لأنه لو كان الأمر لايتعدى أمنيات العرس والزواج لشخصية تاريخية مثل القاسم لما كان المطلوب صرف كل تلك الجهود والأموال وتأسيس كل تلك الحسينيات وإلقاء المحاضرات لكن القضية غير ذلك تماماً، فهؤلاء كانوا جوهرة الإنسانية ومصداق الآية الكريمة: ﴿ إني جَاعِلٌ في الأرضِ خَليفةً ﴾[2] إنها شخصيات ملائكية بل ما فوق الملائكة .

وبعد أن سمع الإمام جواب ابن أخيه قال : يا بن أخي أنت في من يُقتل أيضاً ولكن «بعد أنْ تبلو ببلاء عظيم» . ولذلك فإنه أخذ إجازة النزول إلى ميدان القتال في اليوم العاشر من محرّم بعد إصرار شديد ، ولمّا كان صبياً نحيف البدن فإنه لم يحصل على الدرع التي تناسبه ، ولا على الخوذة التي تناسب رأسه الصغير ،

---

(١) المقصود هنا (حسينية الإرشاد) .

(٢) سورة البقرة : الآية ٣٠ .

بـ الأسلحة أو الحذاء المناسب (الجزمـة)[1] . وكما يـذكر الـرواة فإنّـه لمّا وضـع عمة على رأسـه بدا كـأنه فلقـة القمر[2] . لقـد كان جميلاً ووسيماً إلى درجـة أن شبهه بقطعةٍ من القمر .

قـال الراوي : لقـد رأيت شريط أحـد حـذائيـه مفتـوحـاً ، ولن أنسى أنـه الأيسـر ، وهذا يعني أن الحذاء لم يكن له .

وكما يقول الراوي فقد كان الإمام مـستعداً راكباً على فرسه وبيده اللجـام مما يعني أنـه كان عـلى أهبة الاستعـداد كي يهبّ لنجـدة ابن أخيـه ، وإذا بـه يـسمـع .

يقولون : انطلق الإمام (ع) على فرسه انطلاق الصقر ، فقد كـان الصوت صوت ابن أخيه وكـان ينادي بـأعلى صـوته يـا عماه ، يـا عماه . إنـه القـاسـم بن حسن . ولمّا أدركه الإمـام كان هنـاك ما لا يقـل عن مائتي رجـل من الأعداء قـد حطوا بهذا الصبي ، لكنهم سرعان ما تبعثروا وفروا من أمام الحسين .

يقول الراوي : كان أحدهم قد نزل عن فـرسه يـريد ذبـح القاسم فسُحق تحت حوافر خيول رفاقه . وهنا لا بد من التأكيد بأن الـذي قتل هنـا تحت الأقدام هو العـدوّ الذي أراد الـسـوء بالقـاسم وليس القاسم نفسـه كما يُقـرأ في بعض التعازي الحسينية . على كل حال لمّا وصل الإمام كان الغبار قد منع الرؤية وأشاع جواً من الفوضى حول القاسـم ، ولكن بعد أن هدأ الجـو واتضحت معالم المـوقف انحنى الحسين (ع) على بدن القاسم (ع) ثم حضن رأس ابن أخيه وقال يخاطبه :

« يعـزّ والله عـلى عمّـك أن تـدعـوهُ فـلا يُجيبـك ، أو يُجيبـك فـلا ينفعـك

---

(١) (الجزمة) كلمة تركية وهي ضرب من الأحذية طويلة الساق .

(٢) منـاقب ابن شهـر آشـوب المجلد ٣ ص ١٠٦ كـما وردت عبـارة مشـابهـة في كتـاب أعـلام الـورى ص ٢٤٢ . وفي كتاب اللهوف عـلى الطفـوف أيضاً ص ٤٨ وفي بحـار الأنوار المجلد ٤٥ ص ٣٥ وإرشاد الشيخ المفيد ص ٢٣٩ ومقتل الحسين للمقرم ص ٣٣١ وتاريخ الطبري ص ٢٥٦ .

صوته »[1] . وهنا أرسل الشاب صيحة صعدت روحه على أثرها إلى بارئها .

اللهم اجعل خواتيم أعمالنا خيراً وعرّفنا بحقائق الإسلام .

اللهم أبعد عنّا هذه الجهالة وعدم المعرفة بكرمكَ ولطفكَ يا الله .

اللهم وفقنا جميعاً إلى العمل بخلوص النية يا الله .

اللهم اقضِ لنا حاجاتنا المشروعة يا الله .

واغفر لأمواتنا جميعاً .

لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم .

وصلى الله على محمد وآله الطاهرين .



---

(١) مناقب ابن شهر آشوب المجلد ٤ ص ١٠٧ ، اللهوف ص ٣٨ . بحار الأنوار مجلد ٤٥ ص ٣٥ ، إرشاد الشيخ المفيد ص ٢٣٩ . أعلام الورى ص ٢٤٣ . مقتل الحسين للمقرم ص ٣٣٢ . وتاريخ الطبري مجلد ٦ ص ٢٥٧ .

المحاضرة الثانية

عوامل التحريف

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين بارىء الخلائق أجمعين والصلاة والسلام على عبد لله ورسوله وحبيبه وصفيه ، سيدنا ونبينا ومولانا أبي القاسم محمد (ص) وعلى آله لطيبين الطاهرين المعصومين . أعوذ بالله من الشيطان الرجيم :

﴿ فبما نقضِهم ميثاقهمْ لعنّاهم وجعلنا قلوبهم قاسيةً يُحرِّفون الكَلِم عن مواضِعِه ونَسوا حظاً مما ذُكِّروا به ﴾[1] .

لقد قلنا فيما مضى إنّ التحريف قد أصاب واقعة عاشوراء سواء من النوع للفظي أو النوع المعنوي ، وإن هذا التحريف قد تسبب بفقدان هذه الوثيقة لتاريخية وهذا المنبع التربوي العظيم لتأثيره المطلوب أو الحد منه كثيراً بل وفي بعض الأحيان إلى إحداث تأثير معاكس للغرض الأساسي ، وإنه ينبغي علينا جميعاً أن نُطهّر وننزه هذه الوثيقة التاريخية المقدسة من التحريفات التي لوثتها .

وفي هذه الليلة سيتناول بحثنا دوافع التحريف ومن ثم سنتعرض إلى لتحريف المعنوي للواقعة في المحاضرات القادمة .

---

(١) سورة المائدة : الآية ١٣ .



عوامل التحريف

إن دوافع وأسباب التحريف نوعان وهما :

أولاً : عوامل عامة : أي تلك البواعث التي تكون سبباً لحصول التحريف في التاريخ البشري بشكل عام . وهي لا تخص واقعة عاشوراء بالذات . وعادةً ما تكون أهداف العدو ، سبباً في حصول التحريف للحوادث المختلفة عبر العصور . فحتى يتمكن العدو من تحقيق أهدافه ، والوصول إلى مراميه ، تراه عادةً ما يتوسل إيجاد التغيير والتبديل في سير حوادث التاريخ وإذا لم يتمكن ففي تفسير وشرح حركة التاريخ بما يتلاءم ووجهة نظره المفترضة . وهناك أمثلة كثيرة على ذلك ليس مجال ذكرها هنا لكنني أؤكد بأنّ حادثة كربلاء كان لها نصيب أيضاً من هذا العامل . أي إنّ الأعداء صمموا منذ البداية على تحريف وتزييف النهضة والثورة الحسينية .

وكما هو متداول ومتعارف عليه في العالم بأنّ الأعداء يسرعون باتهام الثورات المقدسة بالإفساد والإخلال والدعوة إلى الفرقة وإيجاد الاختلاف . فإن الحكومة الأموية بذلت كل جهدها لإضفاء هذا الطابع على النهضة الحسينية .

فمنذ اليوم الأول كانت الدعاية المضادة قد وضعت هذا الهدف نصب عينيها . وعندما وصل مسلم بن عقيل إلى الكوفة كتب يزيد إلى ابن زياد طالباً منه التحرك نحو الكوفة وقائلاً له : بأنّ مسلم بن عقيل قد قدم إلى الكوفة بهدف الإضلال والإفساد وإيجاد الاختلاف بين صفوف المسلمين !! ولذلك فإنه ينبغي عليك قمع هذا التحرك .

وبعد اعتقال مسلم وجلبه إلى دار الإمارة ، فإن أول كلام قاله ابن زياد لمسلم هو : يا بن عقيل ! ما الذي أتى بك إلى هذه المدينة ؟ لقد كانت المدينة قبل قدومك آمنة مطمئنة وقد جئت إليها لخلق الفتنة وبث الفرقة والدعوة إلى التمرد والعصيان ! لكن مسلم رد عليه بالطبع رداً شجاعاً إذ قال له : قبل كل شيء أقول لك بأنّ مجيئي إلى هذه المدينة لم يكن برغبة مني بل بطلب من أهلها

ورسائلهم التي دعتنا إلى المجيء موجودة . ثم إنّ الناس قد كتبت في رسائلها أيضاً بأنّ أباك زياداً عندما كان والياً على الكوفة قتل صُلحاءها وسلّط أشرارها علينا ولم يترك ظلماً أو إجحافاً إلّا ارتكبه ومارسه ضد الناس . ولذلك فإنهم دعونا لإقامة العدل وقد جئنا لتحقيق هذا الهدف .

إذن الحكومة الأموية مارست أنواع التحريف المعنوي في هذه الواقعة . لكن التاريخ الإسلامي رغم ذلك كله لم يتأثر بتلك التحريفات . إذ إنك لا تجد مؤرخاً أو مفكراً واحداً يرى والعياذ بالله بأنّ نهضة الحسين بن علي (ع) لم تكن نهضة مُحِقّة أو أنه قام بهدف بث الفرقة وإيجاد الفتن وزرع الاختلاف . أبداً فالعدو لم يتمكن من تحريف واقعة كربلاء . ففي واقعة كربلاء ينبغي القول وللأسف الشديد بأنّ كل أنواع التحريف التي حصلت إنما حصلت من جهة الأصدقاء والمُحبّين .

العامل الثاني : الباعث أو العامل الثاني للتحريف يكمن في الواقع في حُب البشر وميلهم لخلق الأساطير وهذا أمر يتكرر في كل تواريخ العالم . فالبشر على العموم يمتلكون حس عبادة الأبطال وتقديسهم الأمر الذي يدفعهم إلى خلق الأسطورة من أبطالهم القوميين أو الدينيين[1] . والدليل الواضح على ذلك ما يتداول بين الناس من أساطير متعددة حول ابن سينا والشيخ البهائي ! .

لا شك في أنّ ابن سينا كان نابغة من نوابغ عصره وأنه كان يمتلك من القوى الروحية والجسمية الخارقة للعادة . إلّا أن ذلك بحد ذاته كان الدافع لدى الناس لخلق الأساطير حوله . فمثلاً يقال إن ابن سينا رأى مرةً رجلاً يمشي على بعد فرسخ منه فقال انظروا إلى ذلك الرجل فإنه يأكل خبزاً مغمساً بالسمنة . ولمّا سألوه وكيف عرفت أنه يأكل خبزاً مغمساً بالسمنة ؟! قال : إنني رأيتُ البعوض

---

(١) في ليالي عيد الغدير كان للدكتور علي شريعتي عدة محاضرات بهذا الشأن حيث تناول بالتفصيل موضوعة الحس البشري العام نحو خلق الأسطورة والأبطال وعبادتهم وتقديسهم وتصويرهم بشكل خارق للعادة .

يحوم حول خبزه مما يعني بأنّ الخبز الذي يحمله مغمّس بالدهن .

وهنا تظهر بوضوح ملامح الأسطورة على تلك الحكاية لأن الذي يرى البعوض من على بُعد فرسخ يستطيع رؤية السمنة التي تُغطي الخبز دون عناءٍ يُذكر .

او أنْ يقال بأن ابن سينا لم يستطع مذاكرة دروسه في الليل في الفترة التي كان يتابع فيها دراسته في مدينة إصفهان وذلك بسبب أصوات طرقات النحاسين في مدينة كاشان [مدينة كاشان تبعد مئات الكيلومترات عن إصفهان] وعندما ذهبوا ليُجرّبوا الأمر وطلبوا من النحاسين في كاشان عدم ممارسة أعمالهم في إحدى الليالي قال ابن سينا إنه بالفعل قد تمكن من مذاكرة دروسه ومن ثم استسلم لنوم هادىء في تلك الليلة . إنها الأسطورة بكل وضوح .

وقد حصل نفس الشيء بالنسبة للشيخ البهائي .

فاختلاف الأساطير أمر لا ينحصر في واقعة عاشوراء . فالناس تستطيع قول أي شيء تريده عن ابن سينا دون أن تلحق الضرر بأي أحد او اي مكان . لكن الأفراد الذين يمتلكون شخصية طليعية ، والذين تعتبر أقوالهم وأعمالهم ونهضتهم وثورتهم سنداً وحجةً ووثيقةً تاريخية لا يجوز تحريف أحاديثهم ولا شخصيتهم ولا تاريخهم .

فما أكثر الأساطير التي اختلقناها نحن الشيعة عن أمير المؤمنين علي(ع)! أنْ يكون علي عليه السلام رجلاً خارقاً للعادة أمر لا يشك به أحد. كما أنه لا جدال حول شجاعة علي (ع) فالصديق والعدو يعترفان بشجاعته الخارقة للعادة . ولم يشترك علي (ع) في أي معركة ولا نازل بطلاً من أبطال المعارك إلا صرعه وهزمه شر هزيمة . ولكن هل يكتفي ويقنع أصحاب الأساطير وصُنّاعها بهذا المقدار ؟! أبداً .

فعلى سبيل المثال قالوا بأن علياً (ع) عندما اشترك في معركة خيبر ونازل مرحب الخيبري وهو من الأبطال المعروفين جداً بشجاعتهم الخارقة وكما يذكر

المؤرخون بأنه ضربه بالسيف ضربةً قسمته إلى نصفين [وأنا بدوري لا أدري هل كان النصفان متساويين] فقد أوحى الله سبحانه وتعالى إلى الملك جبرئيل بالنزول إلى الأرض ووضع جناحيه تحت سيف علي حتىٰ يخفف من وقع الضربة ويمنع بالتالي من أن تنشق الكرة الأرضية إلى نصفين وتموت الأبقار والأسماك والحيوانات ! وأنه حصل بالفعل أن نزل جبرئيل إلى الأرض ووضع جناحيه تحت السيف ، الأمر الذي منع انشقاق الأرض لكن ضربة علي قسمت مرحب إلى نصفين متساويين تماماً وأنه لو وضع كل نصف في كفة ميزان لما اختلفا بشعرة واحدة بالوزن !!

والأدهى من ذلك بأنّ جبرئيل قد جُرح بسبب تلك الضربة مما أدىٰ إلى مرضه أربعين يوماً الأمر الذي أخّر صعوده إلى السماء كل تلك المدة . ولّما صعد إلى السماء وسأله ربّه اين أمضيت تلك الأيام الأربعين ؟ قال ربي إنك أمرتني بالنزول تحت سيف علي وقد فعلت ولّما كنتُ قد جُرحت من جراء تلك الضربة فإنني كنتُ أداوي جراحي كل تلك الفترة !!

والتفنن في سرد الأساطير وتطويرها لم يقف عند حد . فهذا يقول بأنّ سيف علي قد نزل على مفرق مرحب وشقه إلى نصفين ثم استوى على النصف من مقعد حصانه بالكمال والتمام ! وآخر يقول بأنّه ما أنْ سلّ عليٌ سيفه حتىٰ كان مرحب قد صار نصفين دون أن يدرك مرحب نفسه ما حلّ به وأنه صار يسأل علياً وهو في تلك الحالة : وهل هذه هي كل قوتك يا علي ؟! وهل هذه هي كل بطولتك يا علي ؟! فقال له علي حرّك نفسك يا مرحب فما كان من نصفيه المشقوقين إلّا أن وقعا على الأرض !!!

يقول الحاج نوري هذا الرجل العظيم في كتابه (اللؤلؤ والمرجان) بعد أن ينقد هذه الاختلاقات والأساطير الخيالية ، يقول بأنهم كتبوا عن اشتراك أبي الفضل العباس في معركة صفين [حيث إن أصل اشتراكه في هذه المعركة ليس معلوماً وإن صحّ اشتراكه فيها فإن ذلك يكون قد حصل وهو صبي في سن خمسة عشرة] . وأنّه قد رمى بالرجل الأول إلى الهواء بضربة سيفه ، ثم ألحقه

بالثاني والثالث وهكذا حتى الثمانين بسرعة فائقة للغاية بحيث إنه لمّا رمى الرجل الثمانين كان الأول لم يزل في الهواء ! وهكذا شرعَ في شقهم إلى نصفين ابتداءً من الأول إلى الثمانين في المرحلة اللاحقة من الضربات السريعة المتلاحقة !!

حقاً إنّ بعض التحريفات التي حصلت في واقعة كربلاء سببها وجود حس الأسطورة لدينا . يقول الأوروبيون إنّ تاريخ الشرق مليء بالمبالغات والأساطير وهذا صحيح . فعندما يتحدث ملّا آقا الدربندي مثلاً عن كربلاء كما ورد في كتابه « أسرار الشهادة » بأن عدد الخيالة في جيش عمر بن سعد كان يبلغ (ستمائة ألف) خيّال ، وأن المشاة كانوا يناهزون (المليون) شخصاً فهذا يعني أن جيش عمر بن سعد قد بلغ (المليون وستمائة ألف) شخص من أهل الكوفة ! فما أكبر الكوفة آنذاك حتى يكون جيش ابن سعد بهذا الحجم ؟! فالكوفة كانت مدينة حديثة التأسيس آنذاك ولم يكن قد مضى على تأسيسها سوى خمسة وثلاثين عاماً عند ما أمر بذلك عمر بن الخطاب . وقد كان الهدف من إيجادها عسكرياً حتى يكون هناك مركز نظامي للمسلمين قرب الحدود الإيرانية . ولم يكن معلوماً في ذلك الوقت هل بلغ تعداد سكان أهلها المائة ألف أم لا ؟ فهل يُعقل إذن أن يجتمع من أهلها ذلك العدد الخيالي ومن ثم يقتل منهم الحسين (ع) لوحده (ثلاثمائة ألف) إنها قصة لا تناسب العقل بتاتاً وبالتالي فإنها تُفقد الواقعة قيمتها التاريخية .

يُنقل في هذا المجال أن أحداً كان يبالغ كثيراً بشأن كبر حجم مدينة هرات حيث كان يقول : ـ إن هرات كانت كبيرة جداً في يوم من الأيام . ولمّا سألوه : وكم كانت كبيرة مثلاً ؟ قال : في وقت واحد كان عندنا في المدينة واحد وعشرون ألف طبّاخ أعور اسمهم أحمد . فتصوروا كم هو عدد سكان المدينة ومن ثم كم هو عدد الطباخين الذين اسمهم أحمد وبالتالي كم هو عدد العوران في المدينة حتى يمكننا تعداد واحدٍ وعشرين ألف طباخ أعور اسمه أحمد في مدينة هرات !!

إن حس صناعة الأساطير يستطيع فعل الكثير . ولا يجوز لنا أنْ نُسلم أمر مثل هذه القضية التاريخية الهامة لأيدي صُنّاع الأساطير :

« فإن فينا أهل البيت في كل خلف عدولاً ينفون عنه تحريف الغالين وانتحال المُبطلين وتأويل الجاهلين »[1] .

بالنسبة إلى قضية مدينة هرات وأمثالها فليقُل المبالغون ما يُريدون قوله . ولكن بالنسبة لواقعة تاريخية مثل واقعة عاشوراء ، تلك الحادثة التي نحن مُطالبون بإحيائها سنوياً باعتبارها مدرسةً تربوية وعقائدية حية . فهل يجوز السماح بتسريب كل ذلك الحس الأسطوري والقصص الخيالية إلى مثل هذه الواقعة البالغة الأهمية ؟!

العامل الثالث : وهذا هو العامل الخاص ، فالدافعان السابقان اللذان تطرقنا إليهما آنفاً أي العداوات التاريخية وتحريضات العدو من جهة ومن جهة أخرى حس صناعة الأسطورة لدى البشر عموماً فإنهما يتكرران في كل تواريخ العالم . لكن الأمر بالنسبة لواقعة عاشوراء لا يتوقف عند هذين الدافعين فهناك دافع خاص كان هو الآخر سبباً في تسرّب التحريف والتزوير إلى هذه الواقعة التاريخية . إنّ تعليمات أئمة الدين منذ زمن النبي الأكرم (ص) والأئمة الأطهار عليهم السلام جميعاً تؤكد علينا بضرورة إحياء اسم الحسين بن علي (ع) ، وتجديد عقد الولاء معه سنوياً وذكر مصيبته كل عام . لماذا ؟ وما معنى هذه التعليمات التي وضعها لنا الإسلام ولماذا كل هذا الاهتمام من قبل أئمة الدين بهذا الموضوع ولماذا كل هذا الترغيب والتشجيع لزيارة الحسين بن علي (ع) ؟

يجب علينا التدقيق جيداً بهذه الأسئلة . قد يقول البعض بأن الهدف من وراء ذلك كله مواساة سيدتنا فاطمة الزهراء (ع) !!! أليس أمراً مثيراً للسخرية ؟ فهل تحتاج الزهراء إلى المواساة بعد مرور ١٤٠٠ عاماً على المأساة في الوقت الذي نعلم فيه جميعاً بأن اجتماع الحسين الشهيد والزهراء البتول أمر ينص عليه قول الحسين (ع) نفسه وهو من ضرورات الدين أيضاً . فما معنى مثل هذا الكلام إذاً ؟! وهل أن فاطمة الزهراء عندكم طفلة صغيرة حتىٰ تظل تلطم وتبكي بعد ١٤٠٠ عام حتىٰ نأتي نحن لنُعزّيها ونأخذ بخاطرها ؟! هذا هو الكلام الذي يُخرِّب

---

[1] أصول الكافي المجلد الأول ص ٣٢ وكتاب فضل العلم ، بصائر الدرجات ص ١٠ .

الدين . فالحسين عليه السلام أسّس مدرسة عملية في الإسلام . والحسين بن علي (ع) نموذج عملي للثورات الإسلامية . والتعليمات الدينية الواردة إلينا بهذا الشأن تهدف إلى المحافظة على هذه المدرسة الحية .

والأئمة أرادوا بذلك أن يطل علينا الحسين (ع) كل عام بنداءاته الحلوة والبليغة والحماسية ويُنادينا بأعلى صوته :

« ألا تَروْنَ أنّ الحق لا يُعمل به وأن الباطل لا يُتناهى عنه ليرغب المؤمن في لقاء الله مُحقّاً »[1] ،

ويُنادي بنا : « الموتُ أولىٰ من ركوب العار »[2] .

و« لا أرى الموت إلاّ سعادة والحياة مع الظالمين إلاّ برما »[3] .

لتبقىٰ هذه النداءات حيةً إلى الأبد . كما أرادوا لنا أن نُحيي أقوال الحسين الأخرى مثل :

« « خُطّ الموت على ولد آدم مَخطَّ القلادة على جيد الفتاة »[4] . و« هيهات منّا الذلة »[5] .

نعم إنهم أرادوا لمثل هذه المواقف التاريخية أن تبقى حيةً إلى الأبد حيث يقف ذلك الرجل بكل شجاعة الرجال الذين لا يعرف لهم التاريخ نداً ولا نظيراً

---

(١) بحار الأنوار المجلد ٤٤ ص ٣٨١ . تحف العقول ص ٣٣ . مقتل الحسين للخوارزمي ج ٢ ص ٥ .

(٢) مناقب ابن شهر آشوب ج ٤ ص ١١٠ . اللهوف ص ٥٠ . بحار الأنوار ج ٤٥ ص ٥٠ . كشف الغمة ج ٢ ص ٣٢ .

(٣) بحار الأنوار ج ٤٤ ص ٣٨١ . اللهوف ص ٣٣ . تحف العقول ص ١٧٦ .

(٤) بحار الأنوار ج ٤٤ ص ٣٦٦ . اللهوف ص ٢٥ .

(٥) اللهوف ص ٤١ . مقتل الحسين للخوارزمي ج ٢ ص ٧٦. تاريخ الشام لابن عساكر ج ٢ ص ٣٣٣ . مقتل الحسين للمقرم ص ٢٨٧ . ملحقات إحقاق الحق ج ١١ ص ٦٢٤ ـ ٦٢٥ . نفس المهموم ص ١٤٩ . تحف العقول ص ١٧٤ .

أمام ثلاثين ألفاً من الرجال في وقت يُعاني منه أهله وعياله أشد المعاناة ليصرخ بوجه العدو قائلاً :

« ألا وإنّ الدّعي ابن الدّعي قد رَكَزَ بين اثنتين بين السّلة والذلة وهيهات منّا الذلّة يأبى الله ذلك لنا ورسوله والمؤمنون وحجورٌ طابت وطَهُرت »[1] .

لقد أراد منّا أئمتنا أن تظل مدرسة الحسين حية ، أن تبقى التربية الحسينية حية وأن تُنفخ روح الحسين في هذه الأمة ومن ثم تشع على الأطراف . هذه هي فلسفة الحسين المشرقة ومعالمها واضحة لا تحتاج إلى التبيان .

فلا تَدَعُوا إذن لواقعة عاشوراء أن يُصيبها الصدأ أو تدخل عالم النسيان . ـ حياتكم وإنسانيتكم وشرفكم مرتبطة كلها بهذه الواقعة . إنكم تستطيعون حفاظ على الإسلام بهذه الطريقة وتُحيون تعاليمه بالمدرسة الحسينية .

لقد أراد لنا أئمتنا الأطهار أن نُحيي مجالس العزاء الحسينية وهذا أمر صحيح . إن فلسفة إقامة مجالس العزاء الحسينية فلسفة صحيحة ورفيعة المعاني ـعية . وكلما بذلنا من الجهود في هذا السبيل شرط أن نُحدِّد أهدافنا من وراء ـث فإننا نكون قد مضينا على الطريق الصحيح . ولكن للأسف الشديد فإن ـعض لم يُدرك هذا المعنى وصاروا يتصورون بأنّ الاجتماع في تلك المجالس ـكاء على الحسين (ع) بحد ذاته دون التعرف على أهداف المدرسة الحسينية ـتعرف على فلسفة النهضة الحسينية ومعرفة شخصية الحسين التاريخية ، يكفي ـيكفر عن الذنوب !

يذكر الحاج نوري في كتابه « اللؤلؤ والمرجان » بأن البعض يقول بأن إقامة مجـ ـس الحسينية والبكاء على الحسين فيه من الثواب الكثير بحيث يمكن للمرء ـ يستخدم هذه الوسيلة للتكفير عن كل ذنوبه ! وهذا الأمر يذكرنا بالمدرسة ـكـيفية المعروفة اليوم تحت شعار « الغاية تبرر الوسيلة » فما دامت الغاية جيدة ـبـ مهما نوع الوسيلة المستخدمة ! وهكذا يُحرّف هذا البعض أهداف المدرسة

---

[1] ـصدر السابق .

الحسينية عندما يقولون : ما دام الهدف مقدساً ومنزهاً وهو البكاء على الحسين وهو لا شك أمر جيد وينبغي أن يحصل . ولكن ما هي وسيلة البكاء ؟ أي وسيلة كانت ! ما دام الهدف مقدساً فليس مهماً إذن نوع الوسيلة المتّبعة . سواء أكانت التعزية مُختلقة أو كانت مهينة لمدرسة الحسين وشخصيته التاريخية ، أكانت صحيحة أولم تكن ؟ المهم أن يحصل عمل البكاء وتسيل الدموع وهذا أمر يكفي بحد ذاته كتبرير أو كوسيلة ! ! أن نستخدم الزمّارة في العزاء، ونضرب بالطبول، أو نرتكب المعاصي أو نلبس الرجال ملابس النساء ، أو أن نُمثّل عرس القاسم في عاشوراء ! أنْ نُحرّف ما شئنا ونُزوّر ما استطعنا ، كل هذا ليس مهماً فمن أجل ثواب الحسين يجوز فعل ما لا يجوز فعله في المقامات الأخرى ! فالكذب والتزوير والتحريف والتمثيل وإلباس الرجل لباس المرأة كلها أمور مسموحة ومُبرّرة ، وكل معصية ترتكب هنا قابلة للغفران فالهدف الأعلى هدف مقدس ! فكان نتيجة كل هذا أنْ دخل التزوير والتحريف على هذه القضية المقدسة بشكل غير معقول !

قبل حوالي خمسة عشر عاماً وأثناء زيارة لي لمدينة إصفهان التقيت هناك بالعالم الكبير المرحوم الحاج الشيخ محمد حسن نجف آبادي أعلى الله مقامه ونقلت له آنذاك قصة التعزية الحسينية التي كنت قد سمعتها لتوي في المدينة وكانت قد أثارت استغرابي بشكل مثير للغاية لا سيما وأن قارىء التعزية كان من المدمنين على شرب الترياق[1] وشرحت لعلمنا المذكور قدرة ذلك القارىء على إبكاء الناس بكاءً شديداً وذلك من خلال نقله لقصة امرأة عجوز عاشت في زمن المتوكل وكانت تريد زيارة قبر الإمام الحسين (ع) الأمر الذي كان محظوراً على الناس آنذاك بل إنّ فاعلها كان يتعرض لقطع اليدين إلى ما هنالك من التفاصيل حتىٰ وصل إلى الفقرة التي ذكر فيها بأن جند المتوكل ألقوا بتلك العجوز في البحر، الأمر الذي دفع بالعجوز في تلك الحالة إلى النداء بأعلى صوتها : يا أبا الفضل العباس ! وفي تلك اللحظة التي كانت قد أوشكت فيها على الغرق ظهر لها فارس من وسط أمواج البحر وقال لها هيا تمسكي بركابي واقفزي ورائي فقالت له العجوز ولماذا لا تمدّ إليّ

---

(١) نوع من الحشيشة المخففة .

يدك ؟ فقال لها ومن أين لي اليدان حتى أمدّهما؟ فقد كانت يداه مقطوعتين ، وهنا ضجّ الجمهور بالعويل والبكاء .

عندما أتممت شرحي للعلامة الشيخ النجف آبادي قال لي اجلس إذاً أشرح لك أساس هذه الحكاية ، قال : في أحد الأيام وبينما كنت حاضراً في أحد المجالس الحسينية في بازار إصفهان قرب مدرسة الصدر [القصة جرت قبل زمانه ، وهو إنما ينقلها من مصادر موثوقة عنده] وقد كان مجلساً حسينياً من الوزن الثقيل لا يحضره إلا كبار علماء إصفهان ومن بينهم العلامة الكبير المرحوم الحاج ملا إسماعيل الخاجوئي الذي كان حاضراً أيضاً في ذلك المجلس وإذا بواعظ حسيني معروف ينقل لنا هذه القصة حيث قال : كنت أنتظر دوري ضمن قائمة الوعاظ المتعددين الذين ينبغي عليهم قراءة التعزية الحسينية على التوالي حتى يحين موعد الظهر ، وأستمع إلى الوعاظ الذين سبقوني وأتابع باهتمام قدرتهم على إبكاء الناس وشدهم إلى المنبر إلى أن حان دوري ، وكنت أفكر بطريقة أنافسُ بها الوعاظ فلم يخطر على بالي شيء حتى جاءتني هذه الفكرة فاختلقتُ هذه القصة من عندياتي وبذلك كسرت الرقم القياسي في البكاء . ويضيف هذا الواعظ لكنني عندما ذهبتُ عصر ذلك اليوم لأحضر مجلساً حسينياً آخر وبينما أنا أنتظر دوري رأيتُ أن الواعظ الذي سبقني ينقل هذه القصة وقد أغرق الناس بالبكاء أيضاً ! وهكذا إلى أن صارت تكتب شيئاً فشيئاً في كتب التعازي الحسينية بل وتُطبع أيضاً !

نعم أيها الحُضور الكرام ، فعندما نقول بأن قضية الحسين قضية خاصة تختلف عن بقية القضايا وأنه يجوز لنا استخدام الوسيلة التي تُعجبنا حتى نبكي بواسطتها الناس ! فإن هذا الوهم وهذا الخيال الكاذب والخطأ الفادح المعشش في أذهاننا يصبح بحد ذاته عاملاً ودافعاً كبيراً لحصول الاختلاق والتزوير !

المرحوم الحاج نوري [صاحب كتاب اللؤلؤ والمرجان] هذا الرجل عصبه . أستاذ المرحوم الحاج الشيخ عباس القمي ، والذي يرجّحه العلماء على الشيخ عباس القمي ، بل إن هذا الأخير ومعه آخرون أيضاً يشهدون له بأنه كان رجلاً متبحراً بشكل فريد في العلوم ورجلاً ذا تقوى . يقول هذا الرجل في كتابه

المذكور بأنه إذا كانت الغاية تبرر الوسيلة فعلاً فأنا باستطاعتي أن أقول ما يلي : لمّا كان أحد أهداف المؤمن إدخال السرور إلى قلب أخيه المؤمن وبما أن أخي المؤمن هذا يُسر كثيراً لسماع الغيبة فيكون إذاً من واجبي اغتياب الناس أمامه حتى يُسر كثيراً وبذلك أكون قد حققت هدفاً من الأهداف الإسلامية !! وإذا ما اتُهمت بأنني قد ارتكبتُ المعصية أنفي ذلك وأقول بأنّ هدفي كان مُقدساً حيث إني اغتبتُ الناس بهدف إدخال السرور على قلب أحد المؤمنين !!

ثم يذكر الحاج نوري مثالاً آخر في كتابه عندما يقول بأن يأتي أحدنا مثلاً ويُقبّل امرأة غريبة ولمّا كان هذا العمل حراماً ونحن بدورنا سنستنكر عمله هذا . فكيف به إذا أجابنا أيضاً بأنه إنما أراد من وراء عمله هذا إدخال السرور إلى قلب إحدى المؤمنات !! وهكذا دواليك ، حيث يمكن بذلك تبرير أعمال الزنى واللواط وشرب الخمرة وغيرها . فأي غوغاء هذه ؟!! وما هذا الحديث المخرب للشريعة ؟!! والله إنه عملٌ مخالف لأقوال الحسين (ع) وأعماله . فكيف يجوز لنا عمل كل شيء من أجل إبكاء الناس في المجالس الحسينية ؟! فالحسين استشهد من أجل رفع كلمة الإسلام ولواء الإسلام :

« أشهدُ أنك قد أقمت الصلاة وآتيت الزكاة وأمرت بالمعروف ونهيت عن المنكر وجاهدت في الله حق جهاده »[1] .

لقد قتل الإمام الحسين حتى تبقى سُنن الإسلام حية وتعاليم الإسلام وقوانينه خالدة ، لا أن يكون مقتله حجةً وتبريراً لمخالفة تلك السنن والاستهتار بها . إننا بهذه الأعمال خلقنا من الحسين صورة المُخرّب والعياذ بالله ، فالحسين (ع) الذي نرسمه نحن في مُخيلتنا هو ذلك الحُسين المخرّب والمهدّم للإسلام .

هناك قصة أخرى يذكرها الحاج نوري في كتابه أيضاً حيث يقول فيها إن أحد طلاب الحوزة الدينية في النجف وهو من أهل (يزد) ذكر لي مرة ما حدث له

---

(١) مفاتيح الجنان ـ زيارة الإمام الحسين (ع) في ليالي عيد الفطر وعيد الأضحى .

وهو في الطريق إلى خراسان عبر الصحراء في إحدى رحلاته مشياً على الأقدام إذ قال : كنتُ قد توقفت في إحدى الليالي في قرية من قرى (نيشابور) ولّما كنت لا أعرفُ محلاً للاستراحة قررتُ الذهاب إلى مسجد القرية وفي تلك الليلة كان من المقرر أن يصعد الإمام إلى المنبر لوعظ الناس عن المناسبة الحسينية ولّما بدأ قارىء التعزية بالقراءة، إذا بي أرى فرّاش المسجد يأتي بكمية من الحجر والحصى ويُعطيها إلى الإمام القارىء الذي ما أن شرع بقراءة التعزية حتى أمر بإطفاء الأضواء وبدأ الحجر والحصى يتساقط على رؤوس الناس ثم تعالت أصواتهم وارتفع صراخهم ونحيبهم وبعد ذلك بقليل عادت الإنارة إلى المسجد وانتهت التعزية وعندها رأيت الناس يخرجون من المسجد وهم يبكون وآثار الجراح على رؤوسهم فعجبتُ كثيراً مما رأيت وذهبتُ إلى إمام الجماعة وسألته عما جرى والهدف من وراء ذلك ؟! فأجابني بأن هؤلاء الناس الذين شاهدتهم الآن قد عملت معهم المستحيل حتى يبكوا على الحُسين ففشلت مما دفعني في النهاية إلى اختيار هذا الأسلوب باعتباره الأسلوب الناجع الوحيد لإبكائهم حتى يكسبوا الأجر والثواب الكثير !! وهذا يعني أن الغاية تبرر الوسيلة .

بعبارة أخرى من أجل الحصول على الثواب والبكاء على الحسين نستطيع عمل أي شيء لتحقيق هذا الهدف حتى ولو كان ذلك لا يتحقق إلاّ بضرب الناس على رؤوسهم بالحجارة ! هذا هو العامل والدافع الخاص الذي قلنا إنه السبب في حصول التحريف والاختلاق والتزوير في هذه القضية المقدسة .

عندما يُلقي المرء نظرة عامة على التاريخ سيرى بوضوح حجم التحريف والخيانة التي لحقت بهذه الواقعة . وأقسم بالله لقد كان كلام الحاج نوري صحيحاً ومنطقياً عندما قال بأن من يريد أن يبكي على الحسين اليوم ينبغي عليه أن يبكي أولاً على هذه التحريفات وهذا المسخ وهذه الأكاذيب التي ألصقت بهذه الواقعة .

هناك كتاب مشهور باللغة الفارسية حول (الملحمة الحسينية) اسمه روضة الشهداء ، لمؤلفة الملا حسين الكاشفي الذي يتناوله الحاج نوري في كتابه

أيضاً ويقول : إنّ قصة ـ زعفر الجنّي وعرس القاسم ـ مثلاً ظهرت لأول مرة في الكتب على يد الملا حسين الكاشفي هذا . وأنا قبل أن أرى الكتاب تصورت أنه لا يحتوي إلاّ على مثال أو مثالين من هذه التحريفات ولكنني بعد أن أطلّعتُ عليه اكتشفتُ بأنه كتاب مخصص للأكاذيب وللتحريف والتزوير حول واقعة كربلاء التاريخية . وهذا الكتاب قد كتب بالفارسية قبل (٥٠٠عام) تقريباً . ومؤلفه الملا حسين هذا رجل متعلم وله تأليفات أخرى وصاحب مؤلف (الأنوار السهيلية) . إنك في الواقع عندما تبحث عن تاريخ هذا الرجل تعجب منه ولا تعرف بالضبط هل كان شيعياً أم سُنياً مثلاً . فقد كان يتلوّن كالحرباء فهو شيعي مائة بالمائة عندما كان يذهب إلى الشيعة ويتحدث إليهم ويعظهم ، وحنفي سني عندما كان يتنقل بين السنة . إنهَ من أهل (سبزوار) المعروفة بأنها أحد مراكز التشيع في بلاد فارس آنذاك وأهلها كانوا متعصبين أيضاً لمذهبهم . فهو شيعي متعصب إذاً، في (سبزوار) وسني حنفي عندما كان يذهب أحياناً إلى مدينة هرات (الأفغانية) لزيارة صهره ـ عبد الرحمن جامي ـ إنه من قرّاء التعزية ومن أهل المنابر المعروفين أيضاً في مدينة (سبزوار) . توفي حوالي العام (٩١٠هـ) أي أواخر القرن التاسع أو أوائل القرن العاشر الهجري . وأول كتاب تم تأليفه بالفارسية باسم مراثي الحسين كان هذا الكتاب « روضة الشهداء » والذي ألفه الملاّ حسين الكاشفي هذا .

وقبل أن يظهر هذا الكتاب كان الناس يعودون إلى المصادر الأصلية للشيعة في ما يعود لهذه الواقعة . فالشيخ المفيد مثلاً كتب بخصوص واقعة الطف مؤلفاً مهماً وهو « الإرشاد » ونحن لو عدنا ، في مطالعاتنا إلى هذا الأثر الهام ، للشيخ المفيد رضوان الله عليه لما بقيت لدينا حاجة للاستعانة بمؤلّفات أخرى بهذا الخصوص . إنه كتاب مُتقن ونفيس . ثم إن هناك الكثير من أهل السنة أيضاً ممن كتبوا عن واقعة الطف منهم الطبري وابن الأثير واليعقوبي وابن عساكر والخوارزمي .

إن المرء ليعجب من هذا الرجل وعدم إنصافه . فعند مراجعتك لكتابه

المذكور سترى حتى الأسماء الواردة فيه مختلفة ! فهو يذكر أسماء أصحاب وأنصار للحسين لا وجود لهم في واقعة كربلاء ، وكذلك الأمر في أسماء معسكر العدو . إنه يذكر قصصاً وحكايات عن الواقعة أشبه ما تكون بالأساطير .

ولمّا كان هذا الكتاب أول كتاب يتعرض لواقعة الحسين التاريخية باللغة الفارسية لذلك فإن قُراء التعزية والذين هم غالباً ما يكونون من الأميين ممن يجهلون اللغة العربية فإنهم كانوا يتناولون هذا الكتاب ويقرأون منه مباشرة في المجالس الحسينية . ومنذ ذلك الوقت صارت المجالس الحسينية تعرف عندنا باسم « روضة » [أي قراءة الروضة ـ بدلاً عن قراءة التعزية] وهذا الاصطلاح لم يكن وارداً في أي يوم من أيام الشيعة قبل ظهور كتاب هذا الرجل . لا في زمن الإمام الحسين ولا الإمام جعفر الصادق ولا الإمام العسكري عليهم السلام . وكذلك هو الأمر في زمن كل من السيد المرتضى أو الخواجة نصير الطوسي . فهذا الاصطلاح لم يظهر بين الشيعة إلا منذ خمسمائة سنة .

وعليه فإن مجالس الروضة المعروفة لدينا في إيران تعني قراءة كتاب « روضة الشهداء » للملا حسين الكاشفي : أي قراءة كتاب الأكاذيب والوضع والتحريف ومنذ أن وقع هذا الكتاب بأيدي الناس لم يَعُد أحد يراجع أو يُطالع حقيقة واقعة الطف .

ثم بعد ذلك ظهر علينا قبل حوالي ستين أو سبعين عاماً المرحوم ملا آقا دربندي وقام بجمع كتاب روضة الشهداء مضيفاً إليه بعض القصص الأخرى وألّف كتابه المعروف « أسرار الشهادة » . وإنني يجب أن أقول الحقيقة بأن محتويات هذا الكتاب تدفع الإنسان للبكاء على الإسلام .

ويذكر الحاج نوري أيضاً أنه جاء يوماً أحد قُراء التعزية من أهل الحلة إلى الحاج الشيخ عبد الحسين الطهراني ، في الوقت الذي كنا فيه نحضر درس هذا الشيخ الكبير وأخرج قارىء التعزية المذكور من جيبه كتاباً باسم مقتل الحسين وعرضه على الشيخ للتأكد من قيمة الكتاب ومدى صلاحه لقراء التعزية

الحسينية . وكان كتاباً لا أول له ولا آخر ، سوى أنه ورد في موضع منه أن العالم الفلاني من أهل جبل عامل كان من تلامذة صاحب المعالم. فأخذ الشيخ الطهراني رحمة الله عليه الكتاب ليطالعه . وعندما ذهب فعلاً وطالع أحوال ذلك العالم اكتشف أنه لم يصدر عن العالم المذكور يوماً ، ولا عرف عنه أنه ألّف كتاباً بهذا الاسم . ثم أخذ يُطالع الكتاب وإذا به يكتشف بأنه ليس سوى كتاب مملوء محشو بالأكاذيب .

فجاء إلى ذلك الواعظ الحلي وقال له إياك أن تعرض هذا الكتاب مرة أخرى على أحد فإنه كتاب مملوء بالأكاذيب ولا يجوز النقل منه بتاتاً وهو ليس من تأليف ذلك العالم المذكور أصلاً . وهنا يضيف الحاج نوري فيقول : عندما وقع هذا الكتاب بيد صاحب « أسرار الشهادة » قام بنقل كل مواضيعه كما هي دون استثناء .

ويذكر الحاج نوري حكاية أخرى مؤثرة عندما يقول بأن أحدهم ذهب يوماً إلى المرحوم صاحب المقامع[1] وقال له بأنه قد رأى مناماً موحشاً في الليلة الماضية ، ولمّا سأله عن المنام قال : رأيتُ نفسي وأنا أُقطّع لحم الحسين (ع) بأسناني ! فصار السيد يرتجف وبعد أن أطرق برأسه إلى الأسفل وأخذ يفكر قليلاً قال له لعلك كنت من قُراء التعزية ؟ فقال له الرجل نعم هو كذلك . فقال له السيد : إذن ينبغي عليك ترك هذه المهمة من الآن فصاعداً أو أن تعود إلى المراجع والمصادر الصحيحة حول واقعة الطف . إذ إنك بالأكاذيب التي تنقلها على المنبر تبدو وكأنك تُقطّع بدن الحسين (ع) بأسنانك ! وقد كان هذا من لطف الله عليك إذ جعلك ترى هذه الرؤيا حتى تعود إلى الحق وتسترشد بكتب الصالحين .

إن من يقرأ تاريخ عاشوراء يراه من أكثر التواريخ المليئة بالمصادر الصحيحة

---

(١) صاحب المقامع هو السيد محمد علي ابن المرحوم وحيد البهبهاني وقد كان الأب كما الابن من الرجال الصالحين المعروفين . وقد ذاع صيت الابن كثيراً في مدينة كرمانشاه التي ذهب إليها للوعظ والإرشاد .

والوثائق المعتبرة والحية . يقول المرحوم آخوند الخراساني مخاطباً أولئك الوعاظ وقراء التعزية الذين يبحثون عن الجدة والانفراد في قراءة تعزية لم يسمع بها أحد من قبل :

فليذهب هؤلاء الوعاظ ويستخرجوا التعازي الحقيقية للحسين (ع) فإن جمهورنا لم يسمع بها حتى الآن ، وليقرأوا خطب الإمام في مكة أو في الحجاز بشكل عام ثم في الطريق إلى كربلاء نفسها أو ليقرأوا الخطب التي نطق بها أصحاب الحسين (ع) ، بالإضافة إلى الحوار الذي كان يجري بينه عليه السلام وبين أصحابه والرسائل المتبادلة بينه وبين أنصاره وكذلك الرسائل المتبادلة بين أطراف معسكر العدو هذا علاوة على تعليقات من حضر واقعة عاشوراء وبقي حياً بعد الواقعة [الواردة على لسان الصديق أو العدو] . فهناك ثلاثة أو اربعة من أنصار الحسين (ع) حضروا المعركة وظلّوا أحياءً ونقلوا وقائعها ومن بينهم العبد لمولاه عقبة بن سمعان الذي خرج مع الحسين من مكة وسجل في رأسه كل ما حصل لإمامه طوال الرحلة حتى يوم العاشر من محرم حيث اعتقل من قبل العدو ثم أطلق سراحه عندما قال لهم بأنه ليس إلا غلاماً وعبداً من العاملين عند سيده الحسين (ع) .

وفي معسكر العدو أيضاً كان هناك من سجّل وقائع المعركة وظلّ حياً بعد نهايتها وهو حميد بن مسلم الذي يمكن اعتباره بمثابة المرافق الأساسي لعمر بن سعد . ثم إن أحد شهود المعركة شخص الإمام زين العابدين عليه السلام الذي نقل كل وقائع المعركة والقضايا المحيطة بها . وفي الحقيقة إن المرء لا يجد نقطة إبهام أو غموض واحدة في تاريخ الإمام الحسين (ع) .

من المؤسف هنا أيضاً القول بأن الحاج نوري نفسه ينقل لنا رواية مُحرَّفة ومختلقة حول الإمام زين العابدين (ع) وهي الرواية التي تقول بأنه لّما لم يبق للحسين (ع) من أنصار قام الإمام بزيارة خيمة الإمام زين العابدين (ع) بغرض الوداع . فقال له زين العابدين (ع) : يا أبي العزيز ! إلى أين وصل بك المطاف مع هؤلاء ؟ [أي إن الإمام زين العابدين كان يجهل حتى تلك اللحظة ما جرى

لأبيه] فقال له : إنّها الحرب يا بني ! فقال له زين العابدين وماذا حل بحبيب بن مظاهر ؟ قال قُتل . وزهير بن القين ؟ قال قُتل . وبُرير بن خُضير ؟ قال قُتل . وهكذا بقيّة أصحاب وأنصار الحسين (ع) ومن ثم صار يسأله عن بني هاشم . وأين القاسم بن الحسن ؟ قال قُتل . وأين أخي علي الأكبر ؟ قال قُتل . وأين عمي أبو الفضل العباس ؟ قال قُتل . إن هذه الرواية تحريف وكذب وتزوير . فالإمام زين العابدين (ع) لم يكن إلى هذا الحد مريضاً وفاقداً للوعي والعياذُ بالله حتى يكون غير قادرٍ على متابعة أخبار المعركة !

إنّ التاريخ يكتب لنا بأنه عليه السلام وهو في تلك الحال قد ذهب إلى عمته زينب وقال لها : عمتاه أعطني عصاي وسيفي لأذهب وأقاتل دون الحسين . وأن الذي نقل هذا القول هو شخص الإمام زين العابدين (ع) نفسه .

إذن فلنتب إلى الله ! والحقيقة أنه لا بد لنا من التوبة والعودة عن هذه الجرائم والخيانات التي نرتكبها بحق أبي عبد الله الحسين (ع) وبحق أصحابه وأعوانه وأهل بيته ، لأننا بأعمالنا هذه نجرّدهم من كل عزتهم وفخرهم . لا بد لنا من التوبة والسعي للاستفادة من هذه المدرسة التربوية الحسينية الفذة .

ما الذي ينقص العباس بن علي حتى نحتاج إلى خلق الأساطير حوله ؟ ألا تكفي مواقفه البطولية الشجاعة التي ترويها لنا المقاتل الحسينية المعتبرة ! إن الروايات تؤكّد جميعها على أن العدو لم يكن يُريد إلاّ الحسين(ع) كما أن الإمام نفسه أكّد ليلة العاشر من محرم على هذا الموضوع عندما قال لأصحابه بأن الأعداء لا شغل لهم إلاّ معي وإذا ما قتلوني فإنهم سوف لن يلاحقوا أحداً .

يقول الراوي عندما أراد شمر بن ذي الجوشن التحرك من الكوفة إلى كربلاء كان هناك رجل في مجلس ابن زياد ، فعرض أن له أقرباء من طرف أمه في معسكر الحسين ، والتمس من ابن زياد أن يكتب لهم أماناً ، ففعل .

كان الشمر من قبيلة يجمعها إلى قبيلة (أم البنين) نسب بعيد ، وفي عصر اليوم التاسع من محرّم اقترب الشمر اللعين من خيمة الحسين (ع) وصاح

على صوته : « أين بنو أختنا ؟ »[1] وقد كان أبو الفضل (ع) وإخوته موجودين في جانب الحسين (ع) غير أن أحداً منهم لم يجبه بكلمة واحدة إلى أن طلب منهم الإمام الرد عليه قائلاً : « أجيبوه وإن كان فاسقاً »[2] فردوا عليه حينئذٍ قائلين . « ما تقول » قال : لقد جئتكم بهدية كريمة وبشرى سارة . لقد أتيتُ لكم بالأمان من الأمير عبيد الله بن زياد ، إنّكم أحرار إذا ما رحلتم الآن وإني أتعهد لكم بالأمان والسلامة لأرواحكم . ولكن كيف كان موقفهم ؟ لقد قالوا له . لعنك الله ولعن أميرك ابن زياد ولعن أمانك . أنترك إمامنا وأخانا لأننا أحرار نستطيع الذهاب حيث شئنا بموجب الأمان الذي أتينا به ؟!

وفي ليلة العاشر من محرم كان أبو الفضل العباس أول من أعلن ولاءه وإصراره على الثبات والبقاء مع الحسين (ع) حتى آخر لحظة . بعيداً عن المبالغات الحمقاء التي ترد في الأساطير ونستطيع القول بأن الشيء الذي يؤكده لنا التاريخ هو أن أبا الفضل العباس كان رجلاً رشيداً جداً وشجاعاً جداً ومقداماً جداً وبهي الطلعة جميل القد والقامة حتى إنهم سموه قمر بني هاشم[3] . إنها الحقيقة التي لا تُجحد وهذا ليس بالأمر العجب فهو ابن علي بن أبي طالب .

إن قصة أمه المعروفة قصة حقيقية وهي أن علياً(ع) كان قد طلب من أخيه عقيل بأن يختار له امرأة « ولدتها الفحولة »[4] . وهكذا فعل عقيل بالفعل عندما اختار له ام البنين . قائلاً : هذه هي المرأة التي طلبتها ، من أجل أن يتحقق هدفه الذي أراد . . . « لتلد لي فارساً شجاعاً »[5] . وقد تحققت آماله بالفعل في ابي الفضل العباس .

عندما يحين يوم العاشر من محرم وكما تقول إحدى روايتين ، يتقدم أبو الفضل العباس ويخاطب أخاه قائلاً : أخي العزيز أتسمح لي أيضاً ان

(١و٢) مقتل الحسين للمقرم ص ٢٥٢ . بحار الأنوار ج ٤٤ ص ٣٩١ اللهوف ص ٣٧ .

(٣) العباس تأليف عبد الرزاق الموسوي المقرم ص ٨١ . مناقب ابن شهر آشوب ج ٤ ص ١٠٨ .

(٤) نفس المصدر السابق المقرم ص ٦٩ . والمراد : أن تكون من نسل الشجعان .

(٥) أبصار العين في أنصار الحسين عليه السلام ص ٢٦ .

أبارزهم ؟ فقد ضاق صدري ولا أستطيع الصبر والانتظار أكثر من ذلك ، أريد أن أفديك بروحي الآن . لست أدري ما هي المصلحة التي جعلت الحسين (ع) يُجيبه ، فأبو عبد الله أعرف منا بذلك إذ قال له : الآن وقد قررت الذهاب فاذهب إذاً، لعلك تأتي ببعض الماء لأبنائي . إن لقب (السَّقا) كان قد أُعطي لأبي الفضل قبل يوم العاشر لأنه في الحقيقة كان قد شق صفوف العدو لأكثر من مرة في الليالي التي سبقت يوم العاشر وأتى بالماء لأهل الحسين وعياله . إنه ليس صحيحاً بأنهم لم يذوقوا طعم الماء لثلاثة أيام متوالية ـ كما يدّعي أصحاب الأساطير ـ صحيح أنهم كانوا قد مُنعوا من الوصول إلى الشريعة لكنهم بفضل العباس استطاعوا الوصول إلى الشريعة وجلب الماء لا سيما ليلة العاشر من محرم حيث إنهم استطاعوا الاغتسال في تلك الليلة . نعم سيدي ومولاي ، قال له أبو الفضل ، تصوروا ذلك المنظر العظيم . تصوروا تلك العظمة وتلك الشجاعة والبطولة بل الإنسانية والشرف الرفيع والمعرفة ودرجة التضحية !! بمفرده يقتحم الجموع . إن عدد الجموع التي كانت تحاصر الشريعة كانت تقدر بأربعة آلاف رجل . لكن الفارس تمكن رغم ذلك من الوصول إلى الفرات ، واقتحم بفرسه الماء [وهذا ما يجمع عليه الرواة] وكان أول عمل قام به هو أن ملأ القربة التي كان يحملها بالماء ووضعها على كتفه . في تلك الأجواء الحارة والعطش الشديد وفي ظل حالة الحرب التي كان يعيشها ينحني أبو الفضل وهو راكب على فرسه والماء قد غطى الجزء الأسفل من الجواد ويمد يديه ليملأهما بالماء ثم يقترب بهما من شفتيه المقدستين . ولكن أولئك المراقبين الذين نقلوا فيما بعد أحداث الواقعة يقولون بأنه وفي تلك اللحظة بالذات تسمّرت يداه وبعد لحظة تأمل رأيناه قد رمى الماء من يديه إلى الفرات ولم يشرب بل انطلق في طريق العودة . ولم يعرف أحدٌ سبب تلك الحركة من أبي الفضل ؟! لكنه لمّا تحرك عائداً من حيث أتى قال شعراً يخاطب فيه نفسه وفيه يتبين للمرء سبب عدم شربه للماء في تلك اللحظة . يقول أبو الفضل :

يا نَفْسُ مِنْ بَعْدِ الحُسَيْنُ هُوني فبعدهُ لا كُنتِ أن تكوني
هذا الحسين شاربُ المنونِ وتَشْربينَ بارِدَ المَعين

والـلّهِ مـا هـذا فِعـالُ ديـني ولا فِعـالُ صَـادِقِ اليقـين[1]

هيهات أن أشرب الماء والحسين مُقبل على الشهادة! لقد بذّل العباس طريق العودة فهو قد جاء إلى الشريعة من أقصر الطرق المستقيمة ولكنه فضل العودة من وسط النخيل لأنه كان يعرف قيمة الأمانة التي يحملها معه وبالفعل فقد كان كل همه أن يوصل قربة الماء سالمةً إلى أطفال الحسين (ع) . لأنه كان من الممكن جداً أن تتعرض القربة إلى الرماح التي تمزقها وتسكب ماءها على الأرض . وبينا هو على تلك الحالة الحماسية المؤثرة إذا به يبدّل شعره ، مما يعني أن حادثاً ما قد وقع لأبي الفضل حيث صاح يقول :

والـلّهِ إنْ قَطَعْتُمُ يميني إني أُحامي أبداً عن ديني
وعن إمامٍ صادقِ اليقينِ نجلُ النبيّ الطاهر الأمين[2]

وما هي إلاّ لحظات حتى تغير الشعر من جديد ، فإذا به يقول :

يا نفس لا تخشيْ من الكفار وأبشري برحمة الجبّارِ
مع النبي السيد المختارِ قد قطعوا ببغيهم يساري[3]

وكما يفهم من هذا الرجز فإن يده اليسرى قد قُطعت أيضاً . ويذكر الرواة هنا بأنّ أبا الفضل العباس قد تمكن من خلال فروسيّته ومهارته الخاصة من الاحتفاظ بالقربة بين ضلوعه وبالتالي إدارتها يميناً وشمالاً من أجل الوصول إلى الهدف المنشود . وأنا لا أستطيع أن أشرح لكم ماذا حصل في ذلك اليوم مع أبي الفضل ، لأن الذي حصل يُفطر الأكباد . ومن المعروف أن ليلة العاشر من محرم مخصصة لذكر مصيبة هذا الرجل العظيم .

لقد كانت أم البنين والدة أبي الفضل العباس لا تزال على قيد الحياة في واقعة عاشوراء لكنها لم تكن حاضرة في كربلاء وإنما كانت في المدينة . ولمّا أخبروها

(١) ينابيع المودة ج ٢ ص ١٦٥ . بحار الأنوار ج ٤٥ ص ٤١ .
(٢و٣) بحار الأنوار ج ٤٥ ص ٤٠ .

بأن أولادك الأربعة قد استشهدوا جميعاً في واقعة كربلاء صارت تلك السيدة الجليلة تأتي إلى مقبرة البقيع وترثي أولادها هناك وكما يذكر الرواة فإن رثاءها لهم ونوحها عليهم بأبيات الشعر كان مؤثراً إلى درجة بحيث إن كل من كان يستمع إلى الرثاء كان يبكي ويفقد القدرة على تمالك نفسه وقد صدق هذا الأمر حتىٰ على مروان بن الحكم وهو العدو اللدود لآل البيت . لقد كانت تذكر في رثائها أحياناً أولادها الأربعة معاً لكنها في أحيان أخرى كانت تخص بالذكر ولدها الأرشد أبا الفضل العباس . والعباس بن علي (ع) كان بالفعل ولدها الأرشد إنْ من ناحية السنّ ، وإنْ من الناحية الروحية والكمال النفسي . وأقرأ لكم الآن هذه الأبيات التي أتذكرها من هذه السيدة الجليلة . تقول أم البنين في مرثيتها التي تُفطِّر الأكباد (العرب على العموم مشهورون في رثائهم المحزن والمؤثّر جداً) :

يا مَنْ رأى العباس كَرّ على جماهير النقد
ووراءه أبناء حيدر كل ليث ذي لبد
أُنبئتُ أن ابني أُصيب برأسه مقطوع يد
ويلي على شبلي أمال برأسه ضربُ العمَد[1]
لو كان سيفُكَ في يديك لما دنا منك أحدْ .

لا حول ولا قوة إلاّ بالله العلي العظيم
وصلى الله على محمدٍ وآله الطاهرين .



(١) منتهى الآمال ج ١ ص ٣٨٦ .

المحاضرة الثالثة

التحريفات المعنوية لواقعة كربلاء

بسم الله الرحمن الرَّحيم

الحمد لله رب العالمين باريء الخلائق أجمعين والصلاة والسلام على عبد الله ورسوله وحبيبه وصفيه سيدنا ونبينا ومولانا أبي القاسم محمد صلى الله عليه وآله وعلى آله الطيبين الطاهرين المعصومين . أعوذ بالله من الشيطان الرجيم :

﴿ فبما نقضيهم ميثاقهم لعنّاهم وجعلنا قلوبهم قاسيةً يحرِّفون الكَلِم عن مواضِعه ونسوا حظاً مما ذُكّروا به ﴾[1] .

سبق وقلنا : إنّ تاريخ واقعة كربلاء العظيمة وصل إلى أيدينا وهو مليء بالتحريف اللفظي والتحريف المعنوي . وقلنا إن التحريف اللفظي يعني عملية الإضافة اللفظية أو ما ألصقناه من طرفنا بالسيرة الحسينية من كلام أو حديث جعل الصورة النورانية والعظيمة لتلك الواقعة تبدو وكأنها صورة مظلمة وشوّه جمالها فحوّلها إلى مهزلة ، وعرضنا نماذج مختلفة في هذا المجال .

(١) سورة المائدة : الآية ١٣ .



التحريف المعنوي

من المؤسف أيضاً القول إنّ هذه الواقعة التاريخية قد تعرضت إلى التحريف المعنوي كذلك وهو الأشد خطراً بكثير من التحريف اللفظي . إنّ ما جعل هذه الواقعة الكبرىٰ تفقد أثرها وميزتها هي التحريفات المعنوية وليس التحريفات اللفظية . بعبارة أخرى فإن الأثر السيّىء للتحريف المعنوي كان أكثر واشد وقعاً من التحريف اللفظي .

فما هو التحريف المعنوي ؟

قد نأخذ جملة ما كما هي دون زيادة أو نقصان ولكننا عندما نريد تفسيرها وشرحها نعرِّضها للتحريف بشكل يحوّلها إلى الضدّ من معناها الحقيقي . وإليكم مثالاً بسيطاً فقط على هذا الموضوع يُبيين لكم حقيقة معنىٰ التحريف المعنوي .

يذكر أنه عندما كان أصحاب النبي (ص) منهمكين في بناء مسجد المدينة كان عمار بن ياسر يبذل جهوداً متفانية في العمل . فقال له رسول الله (ص) يومها [وهو من الأحاديث المسلّمة]: « يا عمار ! تقتلك الفئة الباغية »[1] وهي إشارة واضحة إلى الآية الشريفة : ﴿ وإنْ طَائِفَتَانِ مِنَ المؤْمِنِينَ اقْتَتلوا فأصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإنْ بَغَتْ إحْدَاهُمَا على الأخرى فَقَاتِلوا التي تَبْغِي . . .﴾[2] وهذا تقدير كبير من النبي (ص) لعمار بن ياسر . ومن هنا فإن انخراط عمار في جيش علي في معركة صفين كان قد اعتبر نوعاً من أنواع الثقل المعنوي الذي أضيف إلى معسكر الإمام علي (ع) . حيث إن كثيراً من العناصر الضعيفة في إيمانها ممن كانت تقاتل في صفوف علي(ع) لم تكن على بينة من أمرها ولا تدرك أنها تقاتل في جانب الحق إلى أن استشهد عمار بن ياسر الأمر الذي أكد لها صحة موقفها وأعطى المشروعية لقتالها ضد معاوية وجنده . ولذلك فإن جمعاً كبيراً من معسكر علي صاح بأعلى

(١) السيرة الحلبية ج ٢ ص ٧٧ .

(٢) سورة الحجرات : الآية ٩ .

صوته عند استشهاد عمار بن ياسر منادياً : صدق والله رسول الله .

ذلك أنه لم يعد هناك دليلٌ أوضح من هذا يثبت بطلان موقف معاوية وأعوانه بعد ما قتلوا عماراً، وقد سبق للنبي أن قال : « يا عمار ! تقتلك الفئة الباغية »[1] وهي الإشارة التي قلنا إنها تعود للآية الكريمة « وإن طائفتان ...... ».

وفي ذلك اليوم ، صار واضحاً كالشمس ، بأن جيش معاوية هو الجيش « الباغي » ، أي الجيش المتمرد والظالم ، وأن الحق مع جند علي (ع) . ومن هنا يمكن القول بأن الوقوف إلى جانب معسكر علي ومقاتلة معسكر معاوية صار أمراً منصوصاً عليه في القرآن الكريم . وقد فعل هذا الحديث الشريف فعله في جيش معاوية فأصاب جنده بالتردد . لكن معاوية المعروف بدهائه واستخدامه للحيلة والخداع في تسيير شؤونه ، أراد أن يستخدم مكره في هذا الأمر أيضاً ولما كان غير قادر على إنكار حديث رسول الله (ص) حيث كان سيخرج إليه ما لا يقل عن خمسمائة شخص ليشهدوا بأنهم سمعوا هذا الحديث مباشرة من رسول الله (ص) أو أنهم سمعوه ممن سمع هذا الحديث من رسول الله (ص) مما يعني أنه حديث غير قابل للإنكار . لذلك فإنه لما اعترض عليه أهل الشام وقالوا له : ها نحن قد قتلناعماراً يا معاوية وبذلك ينطبق علينا قول الرسول (ص) بأننا من الفئة الباغية رد عليهم بتخطئتهم وقال لهم : صحيح أن النبي قال بأن عماراً ستقتله الفئة الباغية ، غير أننا لسنا مسؤولين عن قتل عمار ! ولما قالوا له ولكن جيشنا هو الذي قتل عماراً يا معاوية . قال لهم كلا ! إننا لم نقتل عمّاراً بل إن الذي قتله هو علي بن أبي طالب ، فهو الذي جاء به إلى ميدان القتال ، وتسبب في قتله !!!

لقد كان لعمرو بن العاص ولدان أحدهما على شاكلة أبيه يحب الدنيا ويعبدها والآخر شاب مؤمن نسبياً ولا ينسجم مع أبيه واسمه عبد الله .

ذات يوم حصل أن تطرق البحث في إحدى الجلسات التي كان عبد الله

---

(١) مسند ابن حنبل ج ٢ ص ١٩٩ .

حاضراً فيها إلى موضوع عمار بن ياسر وصار الناس يرددون هذه المغالطة المعنوية . فما كان من عبد الله إلا إن واجههم وقال لهم :

ما هذا الكلام الذي تقولونه ؟ وما هذه المغالطة التي تكررون ؟! وما معنى قولكم إن علياً هو الذي تسبب في قتل عمّار؟ أتعرفون ماذا يعني حديثكم هذا ؟! إنه يعني أن النبي (ص) هو المسؤول عن قتل حمزة سيد الشهداء لأن حمزة كان يقاتل في جيش محمد (ص) !!

فما كان من معاوية إلا أن اشتد غيظه وزاد من حنقه ونادى عَمْر بن العاص وطالبه بتأديب ابنه وردعه عن تصرفاته الواقحة !!

نعم ، هذا هو التحريف المعنوي .

فما الذي نفعله كي نحرّف الحوادث والوقائع التاريخية تحريفاً معنوياً ؟ .

نقول إن الحوادث والوقائع التاريخية لها عللها وبواعثها من جهة ولها أهدافها وغاياتها من جهة ثانية ومن أجل تحريف أية واقعة تاريخية لا بد لنا إمّا أن نحرّف أسبابها ودوافعها وعرضها على غير حقيقتها أو أن نقوم بتفسير أهدافها والغاية منها بشكل مقلوب ولا ينطبق مع حقيقتها .

فمثلاً عندما تذهب أنت إلى منزل شخص قادم من زيارة مكة المكرمة ويكون الدافع لزيارتك الاعتقاد بأن زيارة الحاج القادم من مكة أمر مستحب وعملٌ يُثابُ عليه . ثم يأتي شخص آخر ويقول : أتعرفون لماذا ذهب ذلك الرجل لزيارة فلان ؟ فيسأل أحدهم ولماذا ؟ فيُجيب الأول بأنك قد ذهبت مثلاً لطلب يد ابنته وأنّك قد قمت باستغلال موضوع الحج تغطيةً لهدفك الأصلي . وهكذا يمكن القول بأن أهداف زيارتك لذلك الحاج قد تعرضت للتحريف ويُطلقُ على مثل هذا العمل التحريف المعنوي .

إن لحادثة عاشوراء التاريخيّة أسباباً ودوافع كما أن لها أهدافاً وغايات رفيعة ، ونحن المسلمين ، نحن الشيعة حرّفنا شخصية الحسين بن علي قائد هذه

الواقعة كما حرّف معاوية بن أبي سفيان قول رسول الله (ص) حول عمار بن ياسر (تقتلك الفئة الباغية) . أي إن الحسين (ع) كان يهدف في الواقع من حركته ونهضته الوصول إلى أهداف معينة وكانت له دوافعه في ذلك القيام التاريخي إلا أننا قمنا بتصوير دوافعه كما أهدافه على غير حقيقتها !

إن أبا عبد الله عليه السلام يعتبر صاحب نهضة مقدسة وعظيمة للغاية . وقد توافرت في نهضته كل مميزات القداسة التي لا نظير لها في تاريخ البشرية . فما هي تلك المميزات ؟

من المعروف أن الشرط الأول لأية نهضة مقدسة كونها لا تنبع من منظور شخصي ولا تُعبّر عن هدف فردي وإنما تسعى لتحقيق أهداف كلية ونوعية وإنسانية شاملة . فقد ينتفض المرء أحياناً لهدف شخصي خاص به ، لكنه قد ينتفض مرة أخرى من أجل المجتمع ومن أجل الإنسانية ، من أجل الحقيقة والحق ، من أجل تحقيق العدالة والتوحيد والمساواة ، وليس من أجل ذاته ، عند ذلك يكون قيامه وتكون نهضته لا تُمثّل ذاته ومصالحه الشخصية بل إنها تصبح انعكاساً لآمال الآخرين ومصالحهم في نفسه . ولذلك ترى أولئك القادة ـ الذين جاءت أعمالهم وحركاتهم وقيامهم في الدنيا ليس من أجل ذاتهم وإنما من أجل البشرية ومن أجل الإنسانية والحق والعدالة والمساواة ومن أجل التوحيد ومعرفة الله والإيمان ـ تراهم محبوبين من قبل البشر جميعاً . وهذا ما ورد على لسان رسول الله (ص) بشأن الحسين بن علي (ع) حيث قال (ص) : « حسين مني وأنا من حسين »[1]. ولماذا نقول ذلك ؟ ذلك لأن الحسين (ع) وقبل (١٣٢٨)[2] عاماً قد نهض من أجلنا ومن أجل كافة البشر ، لقد كانت نهضته نهضة مقدسة ، نهضةً طاهرة ومنزّهةً عن الأهداف والأغراض الشخصية تماماً .

---

(١) إرشاد الشيخ المفيد ص ٢٤٩ . أعلام الورى ص ٢١٦ . مناقب ابن شهر آشوب ج ٤ ص ٧١ . حلية الأبرار ج ١ ص ٥٦٠ . كشف الغمة ج ٢ ص ١٠و١٦ . ملحقات إحقاق الحق ج ١١ ص ٢٦٥ ـ ٢٧٩ .

(٢) ألقيت هذه المحاضرة في العام ١٣٨٩ هـ. قمري .

أما الشرط الثاني لقدسية أية نهضة فهو استنادها إلى رؤية وإدراك وبصيرة قوية . ما معنى ذلك ؟

معنى ذلك أن يعيش مجتمع ما في غفلةٍ من أمره ، وقد سيطر الجهل وقلة الإدراك على أفراده وإذا بشخص بصير وصاحب رؤية ثاقبة وإدراك قوي يفوق أفراد مجتمعه في الفهم والشعور بمائة درجة ويُشخص الدواء اللازم لأمراض قومه أفضل منهم جميعاً . وفي الوقت الذي يكون فيه الآخرون غير قادرين على إدراك الأمور وفهمها . بل وحتى غير قادرين على رؤيتها في الظاهر لكنه وكما يقول المثل تراه قادراً على « قراءة الممحوّ » فينتفض ويثور على الأوضاع الفاسدة لذلك المجتمع .

وتمضي عشرات السنين بعد ذلك حتى تنهض الأمة من غفلتها وتُدرك مغزى قيام ونهضة ذلك الإنسان والأهداف المقدسة التي كان يحملها . ويكون آباؤنا قصروا عن إدراك قيمة مثل هذه النهضة قبل أن يمرّ عليها عشرون وثلاثون بل وخمسون عاماً .

خذ المرحوم السيد جمال الدين الأسد آبادي مثلاً وهو صاحب النهضة الإسلامية المعروفة في البلاد الإسلامية قبل حوالي الستين أو السبعين عاماً [توفي هذا الرجل في العام (١٣١٠هـ) قمري أي ١٤ عاماً قبل الثورة الدستورية في إيران] فأنت إذا ما قرأت تاريخه فإنك ستكتشف الغربة والعزلة الخانقة التي كان يعيشها آنذاك . فهو في الوقت الذي كان يحس فيه بآلام مجتمعه تماماً ويدرك أمراض الأمة الإسلامية ويعرف دواءها كانت الناس تسخر منه آنذاك وتقف أحياناً في طريق نهضته ولا تدعمه في حركته .

ولكن لو جئت اليوم وتعمقت في فكر هذا الرجل بعد مرور أكثر من سبعين عاماً على نهضته لرأيت مقدار الوعي البالغ والفهم الرفيع لهذا المصلح في ذلك الزمان في الوقت الذي لم يدرك فيه تسعة وتسعون بالمائة من أفراد المجتمع الإيراني ماذا كان يُريده الرجل آنذاك .

طالعوا رسالتين من رسائله على الأقل حتى تعرفوا قيمة هذا الرجل الكبير

ـ هدافه الإصلاحية . فهناك رسالته إلى المرحوم آية الله الميرزا الشيرازي الكبير عن الله مقامه ثم رسالتـه إلى عموم علماء إيـران وهي الرسـالة التي بعثهـا إليهم تكون ورقة عمـل مشتركـة للعلماء . أو فلنقرأ رسـائله التي بعث بها إلى المـرحوم حـ الشيخ محمد تقي البجنوردي في مدينه مشهـد أو إلى العالم الفـلاني الكبير في ـنهـ والعالم الفلاني الكبير في شيراز حتى نرى مقدار ما كان يفهمه هذا الرجـل ـ ـ وكم كان يُدرك الأمور ويعرف الاستعمار جيداً ومدى رغبته الصادقة والمُلحة في نهوض الشعب . [دع عنك ما يتناقله البعض من رموز الاستعمار من التُرهات حول هذا الـرجل العـظيم فقد ذهب ذلـك الوقت الـذي بإمكـانهم خداع شعبنـا ـتنهـ] لقد كانت نهضة هذا الرجل نهضة مقدسة لأنـه كان رجـلاً يرى خلفيـات عصره الخادعة ويُدرك حقائق ما كان يجري في عصره في الوقت الـذي كان فيـه ـب أفراد شعبه لا يفهمون ولا يدركون ما كان يجري حولهم .

إنّ نهضة الحسين عليه السلام نهضة مقدسـة بهذه المعـايير . فـاليوم نعـرف ـم ماذا يعني يزيد ؟ وماذا تعني حكومة يزيد ؟ وماذا يعني معاوية ؟ وماذا كانت مخططات الأمويين ؟ لكن تسعة وتسـعين بالمـائة من أفـراد الشعب آنذاك لم تكن ـرك هذه الأمور في عصر الحسين (ع) خاصة وأن وسـائل الإعـلام المنتشرة اليوم في عصرنا الراهن كانت مفقودة آنذاك .

إن أهل المدينة مثلاً لم يتمكنـوا آنذاك من فهم ما جرى في معركة الطف وما قبلها . ولم يدركوا معنى يزيد وخلافـة يزيـد إلا بعد أن قُتـل الحسين بن عـلي (ع) . ومضت مدة على ذلك حتى أدركوا معنى قتل الحسين بن عـلي (ع) وعندهـا اهتزت مشاعرهم لقتله ؟ !

لقـد أرسل أهـل المدينـة وفداً من أكـابر أهلهـا إلى الشام وكـان على رأسـه عبد الله بن حنظلة غسـيل الملائكة . وبعد أن قطعوا المسـافة الفـاصلة بين المـدينة والشام ووصلوا إلى بلاط يزيد وأقـاموا مـدة هناك عنـدها فقط أدركـوا الأزمة التي تعيشها الأمة .

ولّما عادوا إلى المدينة وسألهم أهلها عـما شاهـدوه في الشام ؟ أجـابوهم بـأننا

طوال المدة التي أمضيناها في الشام كنا نـدعو الله فقط بـألاّ يُمطر علينـا حجارة من السماء ! وعندما تعجب أهل المدينة وسألوهم عن السبب ؟ قالوا :

لقد واجهنا خليفةً يشرب الخمر علانيةً ويلعب القمار ويُربي الكلاب والقردة في بلاطه ويلعب بهم بل وحتى أنه يزني مع المحارم من أهله !!!

أما عبد الله بن حنظلة غسيل الملائكةوهو الذي كان أباً لثمانية أبناء فقد قال لأهل المدينة : إنكم سواء قمتم بالثورة على يزيد أم لم تقوموا فإني قائم إن شاء الله حتى وإن لم يقم معي سوى أبنائي الثمانية . وهـذا مـا حصـل بـالفعـل في وقعـة الحرة[1] المعروفة . فقد أرسل عبد الله بن حنظلة أولاده الثمانية قبله إلى وقعة الحرة واستشهدوا جميعاً ثم لحق بهم هو الآخر واستشهد على خطى أولاده .

فهل كان عبد الله بن حنظلة واعياً ومدركاً للأمور قبل ثلاث سنوات مضت عندما قرر الحسين بن علي (ع) الخروج من المدينة وهو يقول :

« وعلى الإسلام السلام إذ قد بُليت الأمة براعٍ مثل يزيد »؟[2] .

لا ، لم يكن واعيـاً قط ، إذ كـان يجب أن يُقتـل الحسـين أولاً ، وأن يهـتز العالم الإسلامي ثانياً ، حتى يفتح عبد الله بن حنظلة غسيل الملائكة ، ومئات من مثله في المدينة ، والكوفة ، وفي أنحاء أخرى ، عيونهم ، ويقولوا بأن الحسين (ع) كان على حقٍ عندما نطق بذلك الحديث !

الشرط الثالث لقدسية أية نهضة يكمن في فرادتها فما هي الفرادة ؟

إن الفرادة هنا تعني كون النهضة المقدسة ضياءً ساطعاً يُشرق في وسط ظلام دامس أو نداءً عالياً وسط السكوت ، أو حـركة هـامة في وسط السكـون المطلق . بعبارة أخرى : في ظروف سيطرة القمع الكامـل ، وبينما يكـون الناس قـد فقدوا

---

(١) مروج الذهب ج ٣ ص ٦٩ .

(٢) اللهوف ص ١١ . في رحاب أئمة أهل البيت ج ٣ ص ٧٤ .

القدرة على الكلام ، وفي ظل الظلام الدامس ، واليأس المطلق ، والسكوت المطلق ، والسكون المطلق ، يظهر فجأةً رجل يكسر هذا السكوت ويبدد ذلك السكون ، ويقوم بحركة تكون هي الضياء الساطع في وسط الظلمة ، ثم يلتحق به الآخرون . ألَمْ تكن النهضة الحسينية كذلك ؟ بلىٰ إنها كانت كذلك بالفعل .

إن الإمام الحسين (ع) قد قام بنهضة من هذا القبيل ، فماذا كانت أهداف نهضته تلك ؟ ولماذا يؤكّد الأئمة الأطهار على ضرورة تخليد العزاء الحسيني ؟ ولماذا قام الإمام الحسين (ع) ؟ وما الحاجة إلى أن نأتي بدليل من عند أنفسنا ؟ فالحسين بن علي (ع) قد ذكر بنفسه دليل نهضته وقيامه :

« إني لم أخرج أشراً ولا بطراً ولا مُفسِداً ولا ظالماً وإنما خرجتُ لطلب الإصلاح في أمة جدي »[1] . ثم يضيف :

« أريد أن آمر بالمعروف وأنهى عن المنكر وأسير بسيرة جدي وأبي »[2] .

نعم فالإمام الحسين (ع) قد بيّن أهداف نهضته ، أليس هو القائل :

« ألا ترون أن الحق لا يُعمل به وأن الباطل لا يُتناهى عنه ليرغب المؤمن في لقاء الله مُحِقّاً »[3] ؟ .

ها هو الحسين عليه السلام يقول بأنّه قام للأمر بالمعروف ومن أجل إحياء الدين والنضال ضد الفساد والإفساد وأن قيامه قيام إصلاحي إسلامي . لكننا نتقول عليه كلاماً آخر . لقد حرّفنا كلامه وقيامه مرةً عندما قلنا عنه بأنه إنما قام حتىٰ يقتل نفسه ليُكفّر عن ذنوب الآخرين من أبناء الأمة ! ولو سألتهم من أين جئتم بهذا الكلام ؟ هل قال الحسين (ع) مثل هذا الكلام ؟ أم هو قول

---

(١) مقتل الحسين ص ١٥٦ . مقتل العواصم ٥٤ . مناقب ابن شهر آشوب ج ٤ ص ٨٩ . مقتل الحسين للخوارزمي ج ١ ص ١٨٨ . لمعة من بلاغة الحسين ص ٦٤ . نفس المهموم ص ٤٥ .

(٢) نفس المصدر السابق .

(٣) بحار الأنوار ج ٤٤ ص ٣٨١ ومصادر أخرى وردت في أول الكتاب .

النبي (ص) ؟ أو قول أحد الأئمة الأطهار ؟ يقولون لك ، دعك من هذا فإنه ليس مهماً معرفة مصدر هذا الكلام . فالمهم أن الحُسين قد قُتل حتىٰ يغفر الله لنا ذنوبنا ! ولا أدري هنا هل دخلت علينا هذه الفكرة من المسيحية أم من مصدر آخر ؟ إنَّ أمتنا الإسلامية سواء بوعي أو بدون وعي قد أخذت الكثير من عالم المسيحية ضد الإسلام .

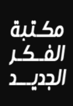
من المعروف أنّ أحد أركان الفكر المسيحي يستند إلى فكرة صلب المسيح المُخلّص . والفادي والمخلّص هي ألقاب المسيح عندهم . فالمسيحية تعتبر أن جزءاً أساسياً من عقيدتها إنما يقوم على أن عيسىٰ ما صُلب إلاّ ليكفر عن ذنوب أمته ! أي إنّهم بهذا يرمون بذنوبهم على أكتاف عيسىٰ فهل فكّرنا نحن المسلمين جيداً بأن كلام العالم المسيحي هذا لا ينسجم ولا يتناسب مع روح الإسلام الذي نؤمن به ، ولا ينسجم مع أقوال الحسين (ع) .

والله لو أن أحدنا كان صائماً في شهر رمضان وتقوّل على الحسين بن علي (ع) بمثل هذه الأقاويل ونسب مثل هذه الأقوال إليه لكان صيامه باطلاً ، لأنه كذب محض أن ننسب مثل هذه الأقوال إلى الحسين .

فالحسين إنما قام للمقارعة ضد الذنوب وإذا بنا جئنا لنجعل منه متراساً لارتكاب الذنوب وللمذنبين! وتمادينا كثيراً في هذا الاتجاه عندما قلنا بأن الحسين قد أسس شركة للضمان . وأي ضمان ؟ ضمان ضد الذنوب ! وصرنا ندعو الناس للتسجيل في هذه الشركة مقابل أقساط من الدمع !

تصوروا الحسين (ع) وهو يقول لأبناء أمته ؛ اسكبوا الدمع في سبيلي وأنا أكفل لكم مقابل ذلك غفران الذنوب . ليس مهماً من تكونون . ابن زياد أو عمر بن سعد أو أي كان . نعم ، فأمثال ابن زياد قلة في هذه الدنيا ! وأمثال عمر بن سعد قليلون أيضاً ! وسنان بن أنس وخولي وغيرهم ! ومن خلال شركة الضمان هذه أراد الحسين (ع) زيادة عددهم في هذه الدنيا ! وذلك عندما قال أيها الناس كونوا سيئين ما شئتم فأنا ضامنكم وغافر لكم ذنوبكم ! !

أما التحريف المعنوي الآخر الذي حصل بالنسبة لواقعة كربلاء فقد كان



عندما قالوا : أتعرفون لماذا قام الإمام الحسين وقُتل في سبيل ذلك ؟ فتقول لهم ولماذا ؟ فيقولون لك بأن ذلك ما كان إلا أمراً وإبلاغاً خاصاً صدر للحسين فقط حيث صدرت الأوامر له بالخروج وقتل نفسه . وبالتالي فإنه أمر لا يرتبط بي وبك أي أنه غير قابل للاتباع والتقليد ! وهو لا يرتبط بقوانين الإسلام وتعليماته العامة والكلية . فهل ترون معي البون الشاسع بين هذا الكلام وكلام الإمام الحسين (ع) ؟ لقد قال الإمام الحسين (ع) ما قمتُ إلا من أجل قضايا الإسلام وأصوله وتعاليمه الكلية .

ليس هناك حاجة لإصدار الأوامر الخاصة فالأوامر الخاصة تصدر في الوقت الذي تكون فيه التعليمات الكلية غير وافية . إنّ الإمام الحسين (ع) يقول وبكل صراحة : إن الإسلام دين لا يسمح لأي مؤمن [حتى أنه لم يقل لأي إمام] أن يسكت عن الظلم والقمع والمفاسد وارتكاب الذنوب .

إن الإمام الحسين (ع) كان بعمله يُريد تأسيس مدرسة عملية في الإسلام ومدرسته هي مدرسة الإسلام نفسها .

إنه ترجم ووضح وشرح لنا مدرسة الإسلام بالعمل ، لكننا جئنا وأخرجنا هذه الواقعة من إطارها المدرسي . ولمّا أخرجناها من إطارها المدرسي ، أصبح عمله غير قابل للاتباع والتقليد . ولما صار عمله غير قابل للاتباع أصبح الحسين غير ذي فائدة وبالتالي صارت واقعة كربلاء دون معنىً وغير قابلة للاستفادة وخالية من العبر . وبهذا نكون قد حولنا واقعة كربلاء إلى واقعة عقيمة وعديمة الفائدة . فهل هناك خيانة أكثر من هذه الخيانة يمكن ارتكابها في التاريخ ؟ من هنا قلتُ وأقول بأن التحريف المعنوي الذي لحق بواقعة كربلاء أخطر بمائة مرة من التحريف اللفظي الذي لحق بها .

والآن أتعرفون لماذا يؤكد أئمتنا الأطهار (بل ويروى ذلك عن النبي (ص) أيضاً) على ضرورة تخليدهذه النهضة وعدم نسيانها وأن الناس ينبغي عليها أن نداوم على البكاء على الحسين (ع) ؟ وما هو الهدف الذي كانوا يرمون إليه من وراء هذه التعليمات ؟

إننا مسخنا ذلك الهدف الواقعي عندما قلنا بأنه فقط من أجل مواساة فاطمة الزهراء سلام الله عليها لا غير ! في حين أنها عليها السلام تسكن راضية في الجنة إلى جوار ابنها العظيم ولا ينقصها العزاء والمواساة التي تصدر من قبلنا نحن عامة الناس ! لا سيما من خلال بعض البكاء ! فهل تجدون إهانةً أكثر من هذه الإهانة يمكن توجيهها لفاطمة الزهراء (ع) ؟

ثم جاء البعض الآخر وقال إن الإمام الحسين قُتل على يد عددٍ من المعتدين في كربلاء وهو بريء لا ذنب له وهذا أمر محزنٌ للغاية ! وأنا أيضاً أقول بأن الإمام الحسين(ع) قُتل وهو بريء لا ذنب له . ولكن، هل هذه هي القضيّة ؟! شخص بريء يُقتل على يد عدد من المعتدين ! ! هل هذا هو ملخص واقعة كربلاء؟ فكل يوم يمر يُقتل مئات الأشخاص الأبرياء على يد عدد من المعتدين والظلمة . وكل يوم يمر يسقط المئات من الناس وهو أمر مُحزن ومؤثر للغاية . ولكن هل أن مقتل هؤلاء الناس يحتاج منا كل هذه السنين والقرون المتوالية لنجلس ونتأثر على مقتل أحد منهم كما نتأثر على مقتل الحسين ونكتفي بالقول بأن دمه قد ذهب هدراً !

إن الحسين بن علي قد قُتل بريئاً على يد عدد من المعتدين ! ولكن من قال إنّ الحسين بن علي قد سقط هباءً ؟ أو أن دمه ذهب هدراً ؟ إذا كان أحدٌ في الدنيا لم يذهب دمه هدراً فهو الحسين بن علي (ع) . إنه كان يُثمّن دمه قطرةً قطرةً إلى درجة لا يمكن وصفها ، ولو جمعنا ثروات الدنيا كلها منذ ذلك اليوم حتى يوم القيامة لا يمكن لها أن تساوي قطرةً واحدة من قطرات دم الحسين .

أيُعقل أن يُقال للرجل ، الذي سبب بمقتله اهتزاز أركان قصور الظلمة إلى الأبد ، بأنه سقط هباءً ؟! أو إن دمه ذهب هدراً ؟! ونقضي حياتنا حسرة على أن الحسين قد سقط هباءً ؟ أنت الذي سيذهب عمرك هباءً أيها المسكين الجاهل . أنا وأنت هباء في هباء وعمري وعمرك اللذان يذهبان هدراً ! ولتكن حسرتك على نفسك . فإنك تُهين الحسين عندما تقول عنه بأنه سقط هباءً ! إن الحسين بن علي هو ذلك الرجل الذي قال عنه رسول الله (ص) : ـ « إن لك درجة عند الله ، لن

تنالها إلاّ بالشهادة »[1] فهل أن الحسين بن علي (ع) الذي كان يتمنى الشهادة ، كان يتمنى أن يسقط هباءً ؟!

إن الذين أوصونا بتخليد عزاء الحسين إنما أوصونا بذلك لأن هدف قيامه كان هدفاً مقدساً ، لأن الحسين بن علي قد أسس مدرسة وأرادوا لهذه المدرسة أن تخلد إلى الأبد . إنك لن تجد نموذجاً عملياً خالداً شبيهاً بنموذج المدرسة الحسينية . وإذا ما وجدت نموذجاً شبيهاً بالحسين بن علي (ع) عندها يحق لك أن تتساءل لماذا نحن نُجدد العزاء والذكرى له كل عام ؟! وإذا ما وجدت فعلاً من يناظرهُ في الذي حصل له في واقعة كربلاء إن كان في درجة الابتلاء والمصيبة التي حصلت له ، أو في فكره التوحيدي وفي مظهر إيمانه ومظهر معرفته لله ، أو في إيمانه الكامل بعالم الأخرة ، أو في رضاه وتسليمه ، في صبره واستقامته ، في رجولته وثباته وعزة نفسه وكرامته وفي طمأنينة النفس التي لديه ، في فكره المتحرر والطالب للحرية ، في شوقه وتوقه لخدمة الناس ، إذا ما وجدت فعلاً نظيراً له في هذه الدنيا ، لحقّ إذاً أن تسأل : لماذا نحن نُخلّد الحسين(ع)؟ إنه الإنسان الذي لا بديل ولا نظير له . ونحن إذ نحيي اسم الحسين وثورته إنما نقوم بذلك من أجل أن تنعكس علينا بعض الظلال من روح الحسين بن علي عليه السلام .

ونحن إذ نسكب دمعنا عليه إنما نسكبه حتى تنسجم روحنا مع روحه وتتعالى روحنا قليلاً لتلتحم مع الروح الحسينية . ولو أن ذرةً من همته أو من غيرته أو من حريته أو من إيمانه أو تقواه أو توحيده تُشع علينا فتسيل مجاري الدمع من مآقينا فإن ذلك الدمع سيكون لا شك ذا قيمة بالغة للغاية . ولو قالوا لك أن قيمة ذلك بحجم جناح ذبابة فإنّ ذلك ينبغي أن يكون عندك بقيمة الدنيا كلها . ولكن هذا الدمع يختلف مع ذلك الدمع الذي ينسكب لسقوط الحسين هباءً إنه الدمع الذي يُذرف على الحسين لعظمته وشخصيته الرفيعة . نعم الدمع الذي يسيل منك على أساس الانسجام والتلاحم مع الحسين بن علي (ع) واتباع نهجه وسيرته فهذا هو الدمع الذي لو نزل بحجم جناح بعوضة منك فإنه يساوي الدنيا كلها .

---

(١) نفائس الأخبار ص ٢١ عن ابن شهر آشوب .

لقد أراد أئمتنا لنا أن نرى هذه المدرسة العملية ونشاهدها حتى يتبين لنا بأن أهل بيت النبوة خير دليل وخير شاهد على صدق النبي لأن القول بأنّ المسلم الفلاني قد أبدى من الشهامة والإيمان في المعركة الفلانية ضد الروم أو المعركة الفلانية ضد الفرس لا يُشكل دليلاً على حقّانية النبي ، وليس كالقول بأنّ ابن النبي قد أبدى كذا وكذا . ذلك أن أقرباء كل شخص هم أكثر الناس إساءة للظن به . وعليه فإننا عندما نرى أهل بيت النبوة في منتهى الصفاء والإيمان فإن ذلك بحد ذاته خير دليل على صدق النبي (ص) . ليس هناك أحد أكثر إيماناً أو أكثر استعداداً للفداء مثل علي (ع) ، وهذا لوحده أول دليل على صدق النبي (ص) . والحسين هو ابن النبي . فعندما يأتي الحسين ويعرض إيمانه في إطار تعليمات النبي (ص) فإنك ترى النبي يتجلّى فيه .

إنّ الأشياء التي يتحدث عنها البشر ويتمنّون تطبيقها ولكنهم يعجزون عن ترجمتها إلى العمل تراها متبلورة في وجود الحسين بن علي (ع) .

كيف يمكن لروح الإنسان أن تكون غير قابلة للكسر وصامدة إلى هذا الحد ؟ سبحان الله ! إلى أين يصل الإنسان .

كم يجب أن تكون روح الإنسان غير قابلة للهزيمة والانكسار حتى ترى جسمها يتقطع قطعةً قطعةً وتتفتت أبدان شبابها وأبنائها أمامها ذرةً ذرةً ويعطش بدنها عطشاً شديداً لدرجة أنها عندما تنظر إلى السماء تفقد الرؤيا تماماً ولا ترى أمامها سوى أشباح ، وعندما تنظر حولها ترى أهلها وقد أصبحوا أسرى بيد العدو وأنها فقدت كل شيء تملكه ما عدا شيء واحد لم تفقده : إنها الروح ، الروح التي لن تنهزم أبداً .

ليس هناك أية واقعة في التاريخ تعكس فضائل الإنسانية كواقعة كربلاء حتى نذكرها بدلاً عن هذه الواقعة . لذلك لا بد لنا من إحياء هذه الواقعة وتخليدها . في تلك الواقعة استطاع جمع يبلغ تعداده اثنين وسبعين نفراً من هزيمة جمع كثير بلغ تعداده حوالي الثلاثين ألفاً بقوة الروح والمعنوية العالية . فكيف هزموهم ؟

لقد هزموهم قبل كل شيء بروحهم العالية فبالرغم من كونهم كانوا أقلية

يتـنـظرهم الموت الحتمي لكن أحـداً منهم لم يتحول إلى معسكـر العدو في حـين أن العديد من معسكر الأكثرية قد التحق بهم وعلى رأسهم قائد القوات الحر بن يزيـد الرياحي مع ثلاثين نفراً من جماعته . وهذا دليل ظاهر عـلى أن الأقلية قـد ربحت المعركة روحياً في حين أن الطرف المقابل قد خسرها معنوياً .

ثم إن ما قام به عمر بن سعـد في كربـلاء كان دليـلاً واضحاً عـلى انكساره النفـسي وهزيمته الروحية أمـا جنود عمـر بن سعد فـإنهم تمنعوا عن الـنزال والمبارزة وجهاً لوجـه مع جنـد الحسين وأصحـابه بـالرغم من قبـولهم المبدئي الـذي أعقبه تراجعهم المخزي .

فكما كان معمولاً وحسـب تقاليـد المبارزة والنـزال الفردي تمكّن جنـد الإمام من إلحاق الهزيمة المعنوية بجند عمر بن سعد مما دفع عمر بن سعد لإيقـاف المبارزة والنزال الفردي بعد الهزائم المتلاحقة التي لحقت بجنده .

أتعرفون متى نزل الحسين إلى ميدان القتال المباشر ؟

تصـوروا بعد ظهـر يوم العـاشر من محرم ، أي إن قسـماً من أصحابـه ظـل يقاتل حتىٰ الظهيرة ومنهم من صلّى صلاة الظهر معـه . نعم لقد حـاولوا معـه منذ الصباح حتى العصر وبعدما قتلوا أصحابه وأعوانـه وأنصاره فـرداً فرداً وهـو الذي كان يحمل أجسادهم بنفسه من ساحة المعركة وهـو الذي كـان يواسي أهـل بيته . لقد ظنوا أنّ بمقـدورهم بعد كـل هذا أن يهـزموه، لكنـه رغم كل المعـاناة وحـرقة القلب والنفس كان آخر من نزل إلى الميدان ولم يُمهـل أحداً منهم حتىٰ إن عمـر بن سعد صار يُنادي في الجند :

« ثكلتكم أمهاتكم . أتعرفون من تقاتلون ؟

هذا ابن قتّال العرب[1] . . . هذا ابن عـلي بـن أبي طالب . . . والله نفسُ

---

(١) بحـار الأنوار ج ٤٥ ص ٥٠ ، منـاقب ابن شهر آشـوب ج ٤ ص ١١٠ . مقتـل الحسـين للمقرم ص ٣٤٦ .



أبيه بين جنبيه[1] . فلا تخرجوا إلى مبارزته » .

ألا يُعتبر هذا الكلام من علامات الهزيمة ؟ ثلاثون ألفاً من الرجال نزلوا إلى مبارزته وجهاً لوجه وهو وحيد وغريب مع كل تلك المصائب وذلك التعب والعذاب والجهد المتواصل إلى جانب العطش والجوع ورغم كل ذلك فقد كانوا ينهزمون أمامه ويتراجعون ، ليس فقط أمام سيفه بل وفي مقابل منطقه أيضاً .

إنّ أبا عبد الله الحسين قد خطب في يوم عاشوراء مرات عديدة قبل بدء المعركة . إن خُطبه بحد ذاتها تدعو إلى العجب حقاً ! إن أهل الخطابة يعرفون جيداً أنه ليس سهلاً على المرء أن تجود قريحته بتلك الخطب الجيّاشة الرفيعة في الظروف العادية . لا بد لروح الإنسان أن تتعرض إلى هزة عالية لا سيما إذا كانت الخطبة من النوع الرثائي . ولا بد لقلب الإنسان أن يتحرق ويتفطر كبده حُزناً حتىٰ يتمكن من إلقاء مرثية بذلك المستوىٰ الرفيع .

إنّ الخطب الغزلية تتطلب أن يكون المرء قد تعرّض لإحساسات شديدة من العشق والحب . وكذلك لو أراد المرء أن يُلقي خطبة حماسية فإنه لا بد وأن يكون في جو حماسي شديد للغاية .

عندما كان أبو عبد الله الحسين(ع) يُورد خطبه لا سيما تلك الخطبة الطويلة التي ألقاها على جند ابن سعد في اليوم العاشر من محرم وهي من الخطب الطويلة [والتي خاف عمر بن سعد من تأثيرها على جنده] فإنه كان ينزل عن جواده ثم يصعد فوق الجمل حتىٰ يكون على مكان مرتفع من الجند ليوصل صوته إلى جموعهم .

ها هو أبو عبد الله الحسين يُناديهم : « تباً لكم أيتها الجماعة وترحاً حين استصرختمونا والهين ، فأصرخنا كم مُوجفين »[2] . إنها حقاً نموذج رائع من

---

(١) بحار الأنوار ج ٤٤ ص ٣٩٠ ، إرشاد الشيخ المفيد ص ٢٣٠ .

(٢) اللهوف ص ٤١ ، مناقب ابن شهر آشوب ج ٤ ص ١١٠ ، مقتل الحسين للمقرم ص ٢٨٦و٦ ، تحف العقول ص ١٧٣ .

خطب علي (ع) . وإذا ما وضعنا خطب علي (ع) جانباً فإنه يمكننا القول عندها بأنه لا وجود لمثلها في الدنيا كلها . لقد أخافت خطب الحسين (ع) قائد قوات لعدو عمر بن سعد بحيث إنه عليه السلام عندما بدأ في خطبته الثالثة كان العدو قد وصل إلى آخر درجات الانحطاط والانهزام النفسي الأمر الذي دفع عمر بن سعد أن يطلب من جنده الاستعانة بالصفير للتشويش على الخطبة الحسينية حتى لا يسمعها العسكر ويتأثروا بها . أليست هذه علامة واضحة من علامات الهزيمة ؟ ليست هي في الوقت عينه علامة انتصار الحسين ؟ .

إن الإنسان المؤمن والموحِّد والمرتبط بالله سبحانه وتعالى والمؤمن باليوم الآخر يستطيع هزيمة عشرين ألفاً وثلاثين ألفاً من الجند والعسكر من الناحية الروحية . أليس هذا درساً بليغاً لنا ؟ وأين يمكننا العثور على مثل هذا النموذج ؟ أين هو ذلك الإنسان القادر أن ينطق بجملة واحدة من جمل الحسين عليه السلام وهو على تلك الحالة التي فيها أبو عبد الله الحسين (ع) ؟ أو أن يتفوه بكلمة واحدة من كلمات زينب (ع) وهي على أبواب الكوفة ؟!

لهذه الأسباب ، وحتى نفهم ونُدرك هذه المعاني ، طُلب منا أنْ نُحيي عزاء الحسين ، حتى نُدرك عظمة الحسين ونبكي عليه من زاوية المعرفة والإدراك لمعاني نهضة الحسين . إنّ معرفة الحسين ترفع من درجتنا عند الله وترفعنا إلى مستوى الإنسانية وتجعلنا أحراراً ومن أهل الحق والحقيقة وأهل العدالة وتجعلنا نصبح مسلمين واقعيين وحقيقيين . إنّ مدرسة الحسين مدرسة صناعة الإنسان وليست مدرسة ارتكاب الذنوب وإن الحسين متراس العمل الصالح لا متراس الذنوب والرذيلة .

يقول الراوي : إنه عليه السلام وبعد أن صلى صلاة الصبح مع أصحابه وأعوانه في يوم العاشر من محرّم، التفت إليهم وقال لهم : استعدوا يا أصحابي فإن الموت ليس إلا جسرا ينقلكم من عالم إلى عالم آخر ، من عالم صعب للغاية إلى عالم رفيع وشريف ولطيف . إذا كان هذا خطابه فلك إذن أن تتصور عمله . إن الراوي هنا ليس الحسين بن علي (ع) بل إن من حضر المعركة هو الذي ينقل لنا هذه المشاهد . حتى هلال بن نافع وهو ممن حضروا المعركة إلى جانب معسكر بن سعد يقول عن الحسين (ع) : إني لأعجب من حسين بن علي فكلما اقتربت ساعة

رحيله واشتد به الأمر كلما كان وجهه يُشرق أكثر فأكثر وكأنه العاشق الذي نال وصاله من الحبيب . ويضيف كذلك بأن قاتله اللعين قد توقف عند رأسه وارتبك أمام هيبته وهو يريد قطع رأسه الشريف حتى أنه قال : « لقد شغلني نور وجهه وجمالُ هيبته عن الفكرة في قتله »[1] .

يقولون إن أبا عبد الله الحسين (ع) قد اختار نقطة مركزية في المعركة تقع عند خيام الحرم [أهل بيته] وكان ذلك الاختيار عائداً لسببين : أولاً : لعلمه أن العدو غير شريف وغير إنساني وليس عنده ذرة حمية تدفعه لخوض معركة شرف حقيقية وبالتالي لا يتعرض لحرم الحسين وخيمهم . وبناءً عليه فإنه كان يُريد حماية الحرم ومنع التعرض لهم من قبل العدو ما دام هناك دم يجري في عروقه وما دامت الروح تجري في بدنه . لقد كان عليه السلام يهاجمهم فيفرّون من أمامه فلا يلاحقهم بعيداً بل يعود بسرعة إلى الخيام ليحمي الأهل من الغدر . أما السبب الثاني فإنه كان يُريد أن يعرف أهل بيته بأنه لا يزال حياً من خلال إيصال صوته إليهم بحيث إنه كان كلما يعود إلى تلك النقطة يُنادي : « لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم » فيعرف أهله أنه لا يزال على قيد الحياة فتهدأ الخواطر وتدخل السكينة على قلوبهم .

لقد كانت تعليمات الإمام صارمة لأهل بيته بعدم الخروج من الخيام ما دام هو على قيد الحياة . [لا تصدقوا تلك الأقاويل التي تقول بأن أهل بيته كانوا يخرجون باستمرار خارج خيمهم لكل حادثٍ أو حركة] ولا تحاولوا تكرار مثل هذه الأحاديث الركيكة الواردة بحق أهل بيت الحسين لأن أجركم سيزول ، واطمأنوا بأنكم إذا ما التزمتم الحقيقة فإن عاقبتكم ستكون خيراً إن شاء الله ، وستنجون من عذاب يوم الأخرة ، وإن الله سَيُعذب أعداءكم في القريب العاجل إن شاء الله .

إن أهل بيت الحسين (ع) لم تكن عندهم إجازة بالخروج من الخيام ،

---

(١) بحار الأنوار ج ٤٥ ص ٥٧ . اللهوف ص ٥٣ .

وبالفعل فإنهم لم يخرجوا منها لأن غيرة الحسين (ع) كانت لا تسمح بذلك وعفتهم أيضاً كانت لا تسمح لهم بمثل هذا العمل .

ولذلك فإنهم كانوا كلما سمعوا صوته عليه السلام وهو يُنادي « لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم » . كان الاطمئنان والسكينة يُدخلان إلى قلوبهم . ولأن الإمام كان قد عاد مرة أو مرتين إلى موضع الخيام بعد وداعه الأخير لأهل بيته وحرمه فإنهم كانوا ينتظرون عودته مجدداً إلى ذلك الموضع .

كانت الجياد العربية في ذلك الزمن تربى وتُمرّن على الحروب والقتال لأن الجواد حيوان أهلي قابل للتربية والتعليم . وعندما كان صاحب الجواد يتعرض لأي مكروه كانت تصدر من الفرس بعض ردود الفعل التي توحي بوقوع مكروه وكان أهل بيت الحسين جالسين في الخيام وهم بانتظار سماع صوت الإمام والشوق يغمرهم لرؤية جمال وجهه الطاهر الشريف مرة أخرى وإذا بهمهمة جواد أبي عبد الله الحسين تصل أسماعهم فاقتربوا جميعاً من باب الخيمة آملين رؤية الإمام وما هي إلاّ لحظّات حتى رأوا الجواد يقترب من الخيمة وقد انقلب سرجه نحو الأسفل . وهنا صاح أولاد الحسين وأهله واحسيناه ! وامحمداه ! والتفوا حول فرسه [إن البكاء من طبيعة البشر والإنسان عندما يُريد أن يشكو همومه يُعبر عن ذلك بالبكاء فيخاطب السماء مرةً وفي أخرى يخاطب الحيوان وقد يخاطب إنساناً آخر] وهكذا بدأ أفراد أهل بيت الحسين الواحد بعد الأخر بالنواح . لقد كانت وصيته عليه السلام إليهم بعدم البكاء ما دام هو على قيد الحياة ولكن لا مانع من النواح بعد الرحيل . في تلك اللحظة صار الجميع يبكي حُسيناً .

يقول الرواة بأن الحسين بن علي (ع) كانت عنده بنت تُسمى سُكينة وكان يحبها كثيراً . وقد أصبحت فيما بعد من النساء الأديبات المشهورات العالمات التي يكن لها كل العلماء والأدباء التقدير والاحترام الفائقين . لقد كان عليه السلام يحب تلك الطفلة كثيراً وكانت هي الأخرى متعلقة كثيراً بأبيها . يقول الرواة بأن هذه الصبية قالت كلاماً جميلاً وحزيناً بحق أبيها على شكل نواح يُبكي كلّ من استمع إليه . لقد خاطبت جواد أبيها وقالت :

« يا جواد أبي هل سُقي أبي أمْ قُتِل عطشاناً ؟ » .

متى كان هذا ؟ قالت هذا في الوقت الذي كان فيه أبو عبد الله الحسين قد وقع على الأرض عن ظهر جواده .

وصلى الله على محمد وآله الطاهرين
لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم .



المحـاضرة الـرابعة

واجبنا ومسؤوليتنا تجاه التحريف

بسـم الله الـرحمن الـرحيم

الحمد لله رب العالمين بارىء الخلائق أجمعين والصلاة والسلام على عبد الله ورسوله وحبيبه وصفيّه سيدنا ونبينا ومولانـا أبي القاسم محمـد صلى الله عليـه وآله وسلم وعلى آله الطيبين الطاهرين المعصومين . أعـوذ بالله من الشيـطان الرجيم :

﴿ فَبِـما نقضهم ميثاقهم لعنّـاهم وجعلنا قلوبهم قـاسيةً يُحـرِّفون الكلِم عن مواضِعِه ونسـوا حظاً مما ذُكّروا به ﴾[1] .

لقد تطرقنا في المجالس الثـلاثة الماضية إلى التحـريفات الحـاصلة في واقعة عاشوراء التاريخية وهو البحث الذي يمكن تقسيمه إلى أربعة أقسـام :

١ ـ مناقشة معنى التحريف بشكل عام والحديث عن أنواعه المختلفة .

٢ ـ تبيان التحريفات الحاصلة بشأن واقعة عاشـوراء التـاريخية وشرح نمـاذج من تلك التحريفات .

٣ ـ مناقشة الأسباب والدوافع التي تؤدي إلى حصول التحريف بشكل عـام

---

(١) سورة المائدة : الآية ١٣ .



ثم عرض العوامل الخاصة بالواقعة التاريخية لعاشوراء .

٤ ـ البحث حول واجبنا ومسؤوليتنا نحن أمام هذه التحريفات ، ووظيفتنا نحن علماء الأمة كما وظيفتنا نحن عامة الشعب .

في المجالس الماضية تطرقنا إلى الأقسام الثلاثة الأولى لهذا البحث والآن سنتطرق بفضل الله إلى القسم الرابع منه .

إنه لأمر حتمي القول بحصول تحريفات متعددة على مر الزمان في هذه الواقعة التاريخية العظيمة جداً ومما لا ريب فيه أيضاً بأن هناك مسؤولية كبيرة تقع على كاهل الجميع ألا وهي النضال ضد هذه التحريفات . وبتعبير أفضل وإذا ما أردنا احترام أنفسنا ، واستخدام التعبير المناسب لهذه الوظيفة لا بد لنا من القول بأن هذا الجيل يتحمل رسالة خطيرة في مواجهة هذه التحريفات . ولكن وقبل عرض هذه الوظيفة وهذه الرسالة سواء تلك المتعلقة بعلماء الأمة [وبتعبير آخر الخواص] أو تلك المتعلقة بعامة الناس [وبتعبير آخر العوام] سأبين لكم مسألتين خاصتين كمقدمة للدخول في البحث العام . الأولى تتمثل في ضرورة النظر إلى الماضي والبحث عن المسؤول عن حصول هذه التحريفات . فهل هم الخواص والعلماء أم الجماهير وعوام الناس ؟ لكنّ معرفة واجبنا اليوم تجاه هذه القضية وعلى عاتق من تقع كل هذه المسؤولية وهذه الوظيفة شيء ، ومن هو المسؤول والمذنب في الماضي شيء آخر .

العادة في مثل هذه الأمور أن يُلقي العلماء هذه المسؤولية على عاتق الشعب (العوام) والعوام بدورهم على عاتق العلماء . فالعلماء يقولون بأن الذنب هو ذنب عوام الناس وجهل الشعب ، وإن الناس جُهّال ، وحمقى ، وأغبياء ، وغير لائقين لأي شيء ، الأمر الذي يجعلهم أهلاً لسماع مثل هذه المهازل والتُرهات وهم من ثمّ لا يستحقون سماع الحقائق .

لقد سمعتُ شخصياً من المرحوم آية الله الصدر أعلى الله مقامه أنّ العلامة تاج نيشابوري كان يُلقي بترهاته من على منبر الحسين باستمرار ولمّا اعترض عليه

أحدهم يوماً وقال له : لماذا لا تحترم كل هؤلاء الحاضرين وتتحدث إليهم بكلام لائق بهم ؟ قال : إن الناس لا يستأهلون ! ثم صار يحاول إثبات ذلك بالدليل !

على الجانب الآخر فإن عوام الناس لهم منطقهم أيضاً في التعامل مع الخواص في مثل هذه الأمور إذ إنهم دائماً ما يستخدمون هذا المنطق ويقولون المثل المعروف : «إن السمكة تفسد من رأسها لا من ذنبها». والعلماء هم بمثابة رأس السمكة ونحن ذنبها . ولكن الحقيقة في هذا الموضوع أن كلا الطرفين مُقصّران ومسؤولان عما يجري في هذا المجال سواء الخواص أو العوام . وليكن واضحاً لديكم بأن عامة الناس مسؤولة أيضاً في هذه المسائل . ولا سيما في قضية من هذا النوع فإن عامة الناس وجمهور العامة هم الذين يقتلون الحقائق ويشيعون الخرافات .

هناك حديث معروف ومعتبر لدى العلماء مفاده أن شخصاً سأل الإمام الصادق (ع) بشأن تفسير الآية الكريمة : ﴿ **ومنهم أميّون لا يعلمون الكتاب إلاّ أمانيّ** ﴾[1] [والله سبحانه وتعالى هنا ينتقد عوام اليهود . حيث إنه وبالرغم من وصفه لهم بالأميين فإنه في ذات الوقت ينتقدهم ويُحمّلهم المسؤولية كما تدعوهم تلك الآية الكريمة] بأنه إذا كان علماء اليهود مسؤولين فعلاً وهو أمر مفروغ منه فما هي المسؤولية المُلقاة على عاتق عامتهم من الناس ؟ إذ إن هؤلاء يُبررون عدم تحملهم للمسؤولية بعدم معرفتهم للقراءة والكتابة [الحديث مفصل وطويل] لكن الإمام يُبين هذا الأمر شارحاً الفرق بين المسؤوليات . صحيح أن هناك قضايا تحتاج إلى الدراسة ومعرفة القراءة والكتابة وأنه لا يُدركها غير الدارسين والعالمين ويمكن في هذا المجال الادعاء بأن العوام غير مسؤولين عما يجري في هذا الحقل لأنهم لا يقرأون بالرغم من أن مسؤوليتهم أحياناً تكون في سبب عدم توجههم للدرس والعلم ؟ ! وهذا منطقٌ آخر . لكن إذا كان عوام الناس غير مسؤولين عن القضايا التي تحصل في حقل العلم والقضايا التي تحتاج إلى الدرس والتحصيل والعلم وقراءة الكتاب من حيث إنهم غير مسؤولين عن شيء يحتاج إلى رؤية المعلم

---

[1] سورة البقرة : الآية ٧٨ .

والذهاب إلى المدرسة وقراءة الكتاب . لكن هناك مسائل يدركها الإنسان بفطرته السليمة ولا تحتاج إلى المدرسة والكتاب والمعلم . وبتعبيري أنا لا تحتاج إلى شهادة الثانوية العامة ولا حتّى المدرسة الابتدائية بل إنه يكفي المرء أن يكون صاحب عقل سليم . ثم يضرب الإمام مثلاً على ذلك ويقول : تصوروا أن عالماً ما يدعو الناس إلى الزهد والتقوى ولكنه في ذات الوقت يمارس عكس ذلك تماماً ! تراه يأمر بالتوبة لكنه هو نفسه لا يعمل بالتوبة وعامة الناس ترى ذلك بعينها وتلمس عدم التزامه بل والعمل بما يناقض أقواله ثم يتساءل الإمام هنا : هل الإنسان بحاجة إلى إنهاء دورة تعليمية أو حضور دروس المدرسة العلمية أو التتلمذ على يد أستاذ حتى يُدرك بأن مثل هذا الإنسان لا يستأهل التقليد والاتباع ؟ إن عوام اليهود كانوا يرون ذلك بأم أعينهم ويُدركونه جيداً بعقولهم : « واضطروا بمعارف قُلوبهم »[1] . لقد كانوا يُدركون الأمر بمعرفتهم الفطرية ويعلمون جيداً بأنه لا يجوز اتباع مثل هؤلاء الناس . ولذلك فهم مسؤولون .

إن هناك عدداً من القضايا لا تحتاج إلى أن يكون المرء فيها من الدارسين وكما يقول المثل فإن المرء لا يحتاج أن يكون فيها مثقفاً ومتعلماً كما لا يحتاج فيها إلى دراسة العربية ولا حتى دراسة الفارسية ولا إلى الصرف أو النحو ولا إلى الفقه والأصول ولا المنطق والفلسفة حتى يُدرك كُنهها ، إنه يحتاج باختصار إلى الفطرة السليمة والفطرة السليمة يملكها الجميع . فالفطرة هي التي تُدرك مثل هذه الأمور . الرسول الأكرم (ص) له كلمة تاريخية تعتبر من أرقى الكلمات وأغناها على الإطلاق في هذا المجال إذ تُعبّر عن التعبير الفطري لهذه القضية حيث يقول (ص) : « إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى »[2] .

ماذا لو جاء أحدهم ونقل لنا قصة ما أو رؤيا أو حُلُماً رآه في المنام يُفيد فيه أن فلاناً من الناس قد حصل معه فعل اضطراري معين في عالم الرؤيا وأثناء إجرائه لعملٍ لم يكن له فيه أي قصد وربما بالعكس كان يقصد خلاف ما وقع

---

(١) الاحتجاج للطبرسي ج ٢ ص ٤٥٧ .

(٢) بحار الأنوار ج ٧ ص ٢٢٥ جامع الصغير ج ١ ص ٣ .

ولكن في ذات الوقت حصل أن أدى به هذا العمل لأن يرتفع مقامه إلى أعلى عليين الأمر الذي أدى إلى محو تمام ذنوبه . فهل ينبغي علينا قبول ذلك ؟ وهل أن إدراك ذلك يحتاج منا إلى قراءة كتاب ؟ أو تعلم لغة ؟ أو ضرورة اطلاعنا على الثقافة العامة ؟ إن ذنوب الإنسان لا يمكن أن تُغفر له إلاّ بالتوبة النصوح ولا تُمحى إلا بالعودة إلى الحق . ﴿ **إنَّ الحسنات يذهبْن السيئات** ﴾[1] نعم فالعمل الخيّر هو الذي يمحو آثار العمل السيّيء وليس العمل الذي لا إرادة فيه للإنسان . ولكننا للأسف لا نستفيد من حسّنا الفطري هذا أبداً .

لقد كتبوا في بعض الكتب إنّ أحد اللصوص المعروفين، التابعين لعصابة من قُطاع الطرق الذين يقتلون كل من تقع عليه أيديهم ، عَلِم يوماً أن قافلةً من زوّار الحسين (ع) الذاهبين إلى كربلاء سيُصادف مرورها بقربه فكمن لها في أحد المفارق لعلّه يتمكن من قطع الطريق عليها وسرقة ما يمكن سرقته منها ومواجهة أية مقاومة ستظهر من أفرادها بالقوة حتى إذا تطلب منه قتل أفرادها . وبينما هو في هذه الحال إذا به يغرق في النوم ، وتمر القافلة دون أن يتمكن منها بشيء . وقد رأى في المنام أنه قد شهد يوم القيامة وأنه على جرف يوشك أن يُلقى به في نار جهنم باعتباره لا يملك أي عمل صالح ضمن لوح أعماله وهو مجرّد قطعة من الذنوب وتاريخه حافل بالجريمة . وبينما هو على شفا حفرة من النار وإذا بجهنم تلفظه وترفض استقباله ! فهل تعرفون لماذا ؟ لأنه كان نائماً على طريق قافلة زوّار الحسين (ع) مما يعني أن بدنه قد اغبرّ بتراب زوّار الحسين (ع) . وعليه فإن مثل هذا الرجل وبالرغم من أنه كان يكمن لزوار الحسين من أجل سرقة أموالهم وقتلهم ، وحديث الرسول(ص) الواضح في هذا المجال والذي جاء فيه : « إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرىء ما نوى » فإن مثل هذه الحالة ومثل هذا الوضع يُخرجه من سلك المجرمين ويغفر له ذنوبه كلها .

فإنّ النار ليس تمسّ جسماً ... عليه غُبار زوّار الحسين

إنه شعر جميل لكنه للأسف الشديد لا ينطبق ومنهج المدرسة الحسينيّة الحقة .

---

(١) سورة هود : الآية ١١٤ .

أما المسألة الثانية التي أودُ طرحها في مقدمة البحث المتعلق بالرسالة والواجب المُلقى على عاتقنا فهي مسألة خطر التحريف إذ لا بد لنا من عرض موجز لخطر التحريف على الوقائع التاريخية . لقد تطرقنا قبل ذلك إلى أنواع التحريف الحاصل في واقعة عاشوراء التاريخية كما شرحنا العوامل التي تكمن وراء حصول التحريف . ولكن قد يأتي أحد ويقول وما العيب في ذلك ؟ وما هو الضرر الذي ينتج عن التحريف ؟ ثم أين هو الخطر ؟ إن خطر التحريف في الواقع كبير جداً . والتحريف ضربة غير مباشرة وهي أخطر من الضربة المباشرة . فعندما يتعرض كتاب ما إلى التحريف [سواء أكان التحريف لفظياً أو معنوياً] وكان ذلك الكتاب كتاب وعظ وإرشاد فإنه سيتحول إلى كتاب للضلال . وإن كان كتاب سعادة فإنه سيتحول إلى كتاب للشقاء . ولو كان كتاباً يرفع الإنسان إلى عليين فإنه نتيجة التحريف سيتحوّل إلى كتاب يؤدي بالإنسان إلى الانحطاط .

فالتحريف يعرّض أساس الكتاب إلى التغيير والتبديل ولن يتوقف التأثير على إزالة فوائد الكتاب بل إن الأمر سيتعداه إلى حصول تأثير معاكس للهدف المطلوب .

إن لكلّ شيء في الحياة له آفته المتناسبة معه . يقول الرسول الأكرم(ص) : « آفة الدين ثلاثة : فقيهٌ فاجر ، إمامٌ جائرٌ ، مُجتهدٌ جاهل »(١)

فكما أن للجمادات والنباتات والحيوانات آفاتها الخاصة بها وللبدن آفته الخاصة به فإن للدين والشريعة آفتهما الخاصة بهما . ولذلك فإن التحريف الذي يحصل على يد فئتين من الناس : ممن وصفهم الرسول الأكرم (ص) في حديثه الشريف وهما : الفقيه الفاجر والمجتهد الجاهل يمكن اعتباره آفة من آفات الدين ، أي إن خطر التحريف يتمثل في إبادة الدين ومحوه . ذلك أن الناس ستأخذ ما يقول به المحرّفون على أساس أنه الحقيقة ولمّا كان التحريف يقلب الموضوع رأساً على عقب فإن الناس بالتالي ستأخذ المعكوس على أنه هو الحقيقة .

---

(١) جامع الصغير ج ١ ص ٤ .

انظروا إلى علي (ع) وهو ذلك الرجل العظيم ثم قارنوا شخصيته الحقيقية مع تلك الصورة العجيبة والغريبة التي صوّرها لنا المحرِّفون . إن بعض الناس تعرف علياً على أنه ذلك الرجل البهلوان فقط لا غير ! وأحياناً ترى علياً (ع) وقد صُوِّر بواسطة أشخاص مغرضين وهو يحمل سيفاً له لسان يشبه لسان الثعبان ، بالإضافة إلى تلك العضلات والشكل والبدن الذي رسمته مخيلة الرسّامين الذين لا يعلمُ إلا الله من أين جاؤوا بهذه الصورة الخيالية له . وفي الوقت الذي لا يوجد في التاريخ أية صورة أو تمثال لعلي (ع) تراهم رغم ذلك يرسمون له أشكالاً عجيبة لا يمكن للمرء أن يتصور معها ذلك الإمام العادل وذلك الرجل الذي لا ينام الليل وهو يبكي في خشوع مخافة الله رب العالمين. وكلنا يعرف أن صورة العابد والمتهجد وصورة المرء الذي يقضي الليل وهو منشغل في طلب الاستغفار وصورة الحكيم والقاضي والأديب مختلفة جداً عن تلك الصور التي يعرضونها عن علي أمير المؤمنين (ع) .

هناك موضوع آخر يتعلق بنا نحن الإيرانيين وهو موضوع إطلاقنا لصفة الإمام العليل والسقيم على الإمام الرابع الإمام زين العابدين (ع) ! إنك لا ترى في أية لغة أخرى نعت المريض وقد ألصق باسم زين العابدين (ع) . فلا وجود لهذا النعت في اللغة العربية . فلدى زين العابدين ألقاب كثيرة معروفة مثل السجّاد ذو الثفنات لكنك لن تجد كتاباً واحداً في الدنيا أُعطيت فيه صفة العليل ! في اللغة العربية للإمام زين العابدين . إن الإمام زين العابدين كان مريضاً في أيام واقعة عاشوراء فقط [وربما كان ذلك تدبيراً إلهياً أدى إلى بقاء نسل الإمام الحسين (ع) بعد استشهاده] وهو السبب وراء بقائه حياً رغم حضوره تلك الواقعة التاريخية . فقد أرادوا قتله عدة مرات لكنهم ـ لشدة مرضه آنذاك ـ يقولون « . . . إنه لما به . . . »[1] لا نحتاج إلى قتله . فهو ميت لا محالة !

ومن هو ذلك المرء الذي لم يمرض مرةً في حياته ؟ وهل قرأتم أي كتاب يذكر فيه أن زين العابدين (ع) قد مرض وأصبح قعيد الفراش في غير أيام

(١) بحار الأنوار ج ٤٥ ص ٦١ . أعلام الورى ص ٢٤٦ ، إرشاد الشيخ المفيد ص ٢٤٢ .

عاشوراء ؟! لكننا رغم ذلك صوَّرنا الإمام زين العابدين (ع) وكأنه ذلك الإمام السقيم المريض الشاحب الوجه وصاحب العصا المحنيّ الظهر والعليل الذي لا يتوقف عن التأوه والشكوى !!

إن هذا الكذب وحده وهذا التحريف بحد ذاته جعل كثيراً من الناس تتأوه باستمرار وتئن من أوجاعها وترمي بأنفسها إلى فراش المرض حتى تنال احترام الناس وحتى يُقال عنها انظروا إلى السيد الفلاني فهو مريض مثل الإمام زين العابدين تماماً !! هذا تحريف . إن الإمام زين العابدين (ع) لا يختلف في بنيته ومزاجه عن الإمام الحسين (ع) أو الإمام محمد الباقر (ع) . لقد عاش أربعين عاماً بعد واقعة كربلاء . وكان سالماً معافى طوال تلك المدة مثل كل الناس ولم يختلف في حياته عن الإمام الصادق (ع) ، فلماذا إذن نصف الإمام زين العابدين (ع) وننعته بالإمام السقيم والعليل ؟!(١) .

إن الإمامة تعني النموذج والمثل الأعلى ، وفلسفة وجود الأئمة تكمن في كونهم بشراً مثاليين ونموذجيين ينهجون نهج النبي الأكرم (ص) ويتأسون به

---

(١) رحم الله المرحوم العلامة أبتي رضوان الله عليه ذلك الرجل الجوهرة الذي افتقدناه فقد قال هذا الرجل العظيم قبل ست سنوات تقريباً في إحدى الجلسات الدينية التي كان يُشارك في إقامتها مع جمع من المؤمنين وهو يتحدث عن منهج الوعظ والتبليغ والإرشاد عندما تطرق إلى هذا الموضوع بالقول : لماذا ننسب لقب العليل إلى الإمام زين العابدين (ع) ! إن هذا اللقب الذي أعطيناه للإمام يُعطي انطباعاً عجيباً عنه ويُصور للناس بأنه ذلك الإمام السقيم والعليل طوال مدة حياته . ثم انتقل إلى نقل قصة معبرة جداً وقال : ـ لقد قرأت حديثاً في إحدى المجلات مقالاً يتعرض فيه الكاتب إلى وضع الدولة ودوائرها وحالة الموظفين فيها ويقول بأن أغلب العاملين والموظفين فيها عبارة عن أشخاص غير لائقين وغير جديرين أو أفراد فاسدين . فهم موزعون بين أفراد مؤهلين علمياً ولكنهم فاسدون أو أنهم أفراد صالحون ولكنهم غير مؤهلين. ثم ينقل العبارة التالية بالنص فيقول : إن أغلب القائمين والقيمين على أمور الدولة وشؤونها أما أن يكونوا على شاكلة الشمر بن ذي الجوشن ، أو على شاكلة الإمام زين العابدين العليل ! في حين أننا بحاجة إلى أفراد يكونون على شاكلة العباس ومن أهل العمل والنشاط ! أي إن الشمر كان صاحب همة ونشاط ولكنه كان فاسداً بينما الإمام زين العابدين كان فرداً عليلاً وسقيماً للأسف رغم كونه صالحاً ، أي العياذ بالله لم تكن لديه الكفاءة والجدارة اللازمتان لإدارة شؤون البلاد ! بينما العباس كان صالحاً ومؤهلاً أيضاً في نفس الوقت . انظروا خطر الانحراف في هذه الرواية الصغيرة من روايات التاريخ .

فالنبي هو : ﴿ بشر مثلكم يوحى إليّ ﴾[1] ، وذلك كله من أجل أن يرسموا صورة المثال لسائر الناس حتى يتبعوهم ويُقلّدوهم . ولكن إذا ما تم تشويه وجه هذه الشخصيات وخُرّبت معالمهم إلى هذا الحد فإنه يصبح من الصعب الطلب إلى الناس تقليدهم واتباعهم . إذ يصبح أمر تقليد مثل هذه الشخصيات أمراً خيالياً بعد أن كان أمراً عملياً مفيداً وهي نتيجة معكوسة لفلسفة وجود الأئمة وهذا يُبين لنا إجمالاً أخطار التحريف البالغة ، وأن التحريف ضربة غير مباشرة للإسلام كالخنجر في الظهر .

إنّ النسل اليهودي يمكن اعتبارهم من أبطال التحريف في العالم . إذ ليس هناك أحد ساهم في التحريف بقدر مساهمة اليهود في تاريخ العالم . ولهذا فإنه لا يوجد أحد في العالم أوجع التاريخ في ضرباته بقدر اليهود ، فقد قلبوا الحقائق وأوجدوا البدع على طول الخط .

رسالتنا وواجبنا

إن علينا واجباً مهماً وفي أعناقنا مسؤولية خطيرة لا سيما في هذا العصر الذي نعيشه الآن . يجب علينا أن نعرف أنه لا يمكن خدمة الناس بواسطة واقعة تاريخية مُحرّفة . كما أنه لم يكن ذلك ممكناً في الماضي ، وإذا لم تكن هذه الحالة مفيدة في الماضي فإن ضررها كان قليلاً لكن ضررها في هذا العصر أصبح كبيراً جداً . إن واجبي وواجبكم أن نرى سوية التحريفات التي تعرض لها تاريخنا والتحريفات التي حصلت في رسم معالم شخصياتنا وأعلامنا . ومن ثم إلى التحريفات الحاصلة في القرآن الكريم ؟ صحيح أن القرآن الكريم لم يحصل فيه أي تحريف لفظي أي إن كلماته ظلت كما هي دون زيادة أو نقصان . لكن خطر التحريف المعنوي للقرآن الكريم بحجم خطر التحريف اللفظي له . فما هو التحريف المعنوي للقرآن ؟ أنه التفسير المغلوط والاستخدام المغلوط والتبرير للأعمال المنحرفة من خلال استخدام الآيات القرآنية وهو أمر لا يمكن السكوت عنه ؛ ثم

(١) سورة الكهف : الآية ١١٠ ـ وفصّلت : الآية ٦ .

فلننظر إلى تواريخنا، تلك الحوادث التاريخية التي ينبغي لها أن تكون دروساً تعليمية لنا ووثيقة أخلاقية لنا وسنداً ودليلاً في التربية الاجتماعية لنا جميعاً مثل واقعة عاشوراء التاريخية ونرى نوع التحريفات التي تعرضت لها ؟

عندها سنقول إن من واجبنا مكافحة مثل هذه التحريفات بكل ما أوتينا من قوة .

وظائف علماء الأمة وعامة الناس

ما هي الوظائف المُلقاة على عاتق علماء الأمة ؟ وما هي وظائف عامة الناس وجماهير الشعب ؟

بالنسبة إلى علماء الأمة سأعرض عليكم بحثاً كلياً يتلخص في أنّ نقطة انحراف العالم الأساسية تكمن في أنه يرى نفسه دائماً في مواجهة نقاط ضعف الناس وعيوبهم .

إن نقاط الضعف الروحية والأخلاقية والاجتماعية للأفراد تعتبر نوعاً من أنواع الأمراض . ففي الأمراض الجسمية غالباً ما يحس المريض نفسه بالمرض ويذهب عندئذٍ لمعالجته . لكن الأمر مختلف في الأمراض الروحية إذ إن الأمر يصبح أكثر تعقيداً من حيث إن الشخص المريض هنا لا يُدرك أنه مريض ! بل إنه على العكس من ذلك قد يتصور أنه أكثر سلامةً من غيره ! وربما يصبح متعلقاً بمرضه ذلك بشدة ! والأفراد لا يرون نقاط ضعفهم ولا يشخصونها على أنها نقاط ضعف ينبغي معالجتها بل إنهم يرون فيها نقاط قوة ينبغي لهم ترسيخها . إن وظيفة العالم ومسؤوليته أن يُدرك ويُشخص نقاط ضعف مجتمعه .

إن تصرف العالم في مواجهة نقاط ضعف مجتمعه يتخذ حالتين :

أولاً : إمّا أن يكافح نقاط الضعف هذه ، وفي أغلب الأحيان ستكون الناس غير راضية عنه !

ثانياً: وإما أن يرى في عملية مكافحة نقاط ضعف المجتمع أمراً صعباً ومهمة عسيرة وأنها مسألة تجلب له الضرر وليس فيها أية منفعة شخصية تذكر . وبالتالي فإنه سينتخب أسلوب الاستفادة من نقاط الضعف المنتشرة ! وهنا سينطبق عليه قول الرسول الأكرم (ص) ويصبح مصداق « الفقيه الفاجر » وهي الفئة الاجتماعية التي عُرفت على أنها من آفات الدين الثلاثة .

سوف نترك الحديث عن سائر القضايا الأخرى ونركز بحثنا على واقعة عاشوراء . إنّ عمل الناس ينطوي على نقطتي ضعف أساسيتين في موضوع إقامة المجالس الحسينية :

أولاهما تكمن في أن المؤسس أو المؤسسين وأصحاب المجالس الحسينية سواء تلك المجالس التي تقام في المساجد أو التي تقام في البيوت (على الخصوص) وفي حدود تجربتي الشخصية [فإنه لا استثناء في ذلك] هؤلاء المؤسسون لا يهمهم إلا نقطة واحدة هي ازدحام الناس وكثرة توافدهم على مجلس العزاء ! فإذا ما حصل ذلك الازدحام والتوافد كان به وإلا فإنهم سوف لن يرضوا عن ذلك المجلس ! وهذه نقطة ضعف . إن هذه المجالس لم تُقرر من أجل ازدحام الناس فيها ! فهل نحن أمام استعراض عضلات أو عرض مسرحي ؟! بل إن الهدف من وراء ذلك هو التعرف على الحقائق ومكافحة التحريف . هذه هي إحدى النقاط التي عادةً ما تواجه القارىء والواعظ الحسيني . وبالتالي فإنه أمام خيارين إمّا أن يواجه نقطة الضعف هذه بأسلوب المكافحة والتغلب عليها أو أن يستخدمها تاجاً يفتخر به ويستغله لإنجاز مهمته ! فإذا اختار أسلوب المكافحة فإنه سيقف في موقف متعارض وغير منسجم مع هدف صاحب العزاء والمستمعين الذين غالباً ما تُسرهم مثل تلك الاجتماعات الحاشدة ، لكنه إن اختار طريق الاستفادة من نقطة الضعف المذكورة فإن همه سيكون البحث عن أفضل الطرق والوسائل التي تساعده في حشد الناس وهنا يصبح العالم أمام مفترق طرق . إذ أنه يستطيع القول : ها هم الناس حمقى ولديهم هذه النقيصة وبالتالي فإنّه بإمكاني الاستفادة منها واستثمارها . لكنه يستطيع القول أيضاً إنه على الرغم من ذلك فإني سأنتخب طريق النضال ضدها وأتوجه نحو البحث عن الحقيقة .

ونقطة الضعف الثانية التي يتميز بها الناس في قضية المجالس الحسينية وهي أكثر انتشاراً لدى عوام الناس لكنّ حدّتها خفّت لحسن الحظ في الآونة الأخيرة هي مسألة « حُب العرض المأساوي والتراجيدي » لقضية الحسين .

إن الواعظ الحسيني يجب أن يُنهي حديثه بذكر المصيبة وذكر المصيبة هذا ينبغي أن لا يقف تأثيره عند بكاء الناس فالبكاءوحده لا يكفي ، بل إن المطلوب أن يهتز المجلس من مكانه ويرتج ارتجاجاً وتظهر كل ملامح المأساة في ذلك المجلس . وأنا لا أخالف أن يهتز المجلس ولكن أقول إن اهتزاز المجلس ووقوع الهرج يجب أن لا يكون هدفاً بحد ذاته . فإذا كان الأمر كله يتم في الاتجاه الصحيح ويترافق ذلك مع شرح للحقائق وتبيانها دون اللجوء إلى قراءة التعزية الكاذبة أو اللجوء إلى التزوير والتحريف واختلاق أسماء لأصحاب الإمام الحسين (ع) ممن لا يعرفهم التاريخ كما لا يعرفهم الإمام الحسين نفسه لأنهم لا وجود لهم في الأساس . ويكون الإنسان غير مضطر لذكر أسماء لأبناء الحسين ممن لا وجود لهم في الواقع الخارجي أو ذكر أسماء لأعداء الحسين ممن لا وجود لهم فإذا سال الدمع على قاعدة الصدق والحقيقة ، وحصل عندها الغليان واهتز المجلس وتمثلت كربلاء في ذلك العزاء فإنه أمر جيد جداً . ولكن ماذا لو اختفت الحقيقة والصدق والإخلاص فهل علينا أن نحارب الإمام الحسين (ع) ونُعاديه ونكذب عليه ونتقول عليه ؟!

هذه هي نقاط ضعف الناس العوام . فما هو المطلوب منا أن نفعل مقابل ذلك ؟ هل يجوز لنا أن نستغل نقطة الضعف هذه ؟ ونقول إنه ينبغي استثمار هذه الحالة وركوب الموجة ؟ ونتوِّج أنفسنا بتاج نيشابور لأن عوام الناس حمقى ولا بد لنا من استغلال حماقتهم ؟! كلا ، فإن الرسالة الخطيرة والكبيرة المُلقاة على عاتق العلماء هي مكافحة نقاط الضعف التي يعاني منها المجتمع .

ولذلك فإن الرسول الأكرم (ص) يقول : « إذا ظهرت البدع في أُمتي فليُظهر العالم عِلمَهُ ، وإلاّ فعليه لعنةُ الله »[1] .

---

(١) سفينة البحار ج ١ ص ٦٣ . أصول الكافي ج ١ ص ٥٤ ، بتعديل طفيف .

والقرآن الكريم يذهب إلى أبعد من ذلك بقوله تعالى : ﴿ **إنّ الذينَ يَكْتُمونَ مَا أنْزَلْنا مِنَ البيِّناتِ والهُدى مِن بَعْدِ مَا بَيّناهُ للنّاس في الكتاب أولَئِكَ يَلْعَنُهم الله ويلعنهُم اللاعنُون** ﴾[1] .

نعم فواجب العلماء في عصر خاتم النبوة هو مكافحة التحريف . ولحسن الحظ فإن وسائل هذا الكفاح وأدواته موجودة كما أن هناك عدداً لا بأس به من العلماء ممن وقفوا هذا الموقف المشرّف حتى الآن . وما كتاب (اللؤلؤ والمرجان) الذي يتعرض فيه مؤلفه إلى موضوعة واقعة عاشوراء التاريخية وهو الكتاب الذي تطرّقتُ إليه في المجالس الثلاثة الماضية لمؤلفه الحاج نوري رضوان الله عليه إلّا تطبيقاً عملياً ومصداقاً حياً لهذه الوظيفة المقدسة جداً جداً والتي قام بها هذا الرجل العظيم على أحسن وجه وهي المصداق الحي للقسم الأول من حديث الرسول (ص) : « إذا ظهرت البدع في أُمتي فليظهر العالم علمه . . »

إنّ من واجب العلماء في مثل هذه الحالات عرض الحقائق على الناس دون أيةِ مواربة حتى وإنْ أنفت الناس من أقوالهم . وإن من واجب العلماء أيضاً مكافحة الأكاذيب وكشف المُكذّبين وفضحهم على رؤوس الأشهاد . إن لدى الفقهاء مبحثاً خاصاً في باب الغيبة يقولون فيه بجواز الغيبة في الحالات الاستثنائية . وإنّ إحدى موارد جواز الغيبة والتي يمارسها كافة العلماء الكبار بل ويرون لزوم حصولها بل وأحياناً وجوب ممارستها هي عملية تجريح الراوي . فما هي عملية تجريح الراوي ؟ فعلى سبيل المثال لو جاء شخص ونقل لنا رواية ما عن رسول الله (ص) أو عن أحد الأئمة الأطهار فهل علينا تصديقه على الفور ؟ كلا ، فالمطلوب أولاً إجراء التحقيق حول هذا الشخص الراوي وعما إذا كان معروفاً بالصدق أو بالكذب ؟ فلو حصل أن اكتشفت مثلاً نقطة ضعف ما في سيرة هذا الرجل أو أية نقيصة أو عيب يذكر، أو أنه ثبت لك اشتهاره بالكذب أو الفسق فهنا يلزم عليك بل يجب أن تفضح هذا الرجل في الكتب . وهذا العمل يطلق عليه: التجريح . وعلى الرغم من أن هذا العمل يمكن نعته بالغيبة أو النميمة وأن

---

(١) سورة البقرة : الآية ١٥٩ .

الغيبة والنميمة غير جائزتين سواء على الحي أو على الميت إلاّ أنه ما دام الأمر هنا يتعلق بتحريف الحقائق وقلب الحقائق فإنه ينبغي فضح ذلك الرجل مهما كلف الأمر فالكذاب يجب فضحه مهما كانت النتائج .

فمن الممكن مثلاً أن يبرز عالم ما بمواصفاته العلمائية في مجال ما بشكل جيد مثل الملا حسين الكاشفي وهو العالم الديني المعروف ! لكن كتابه المعروف باسم (روضة الشهداء) كتاب مليء بالكذب حين تقوّل فيه على الجميع وحرّف أعمال العدو والصديق بما فيهم ابن زياد وعمر بن سعد . فلقد كتب مثلاً أن ابن زياد قد منح خمسين رطلاً من الذهب الأحمر لعمر بن سعد من أجل الذهاب إلى كربلاء ومقاتلة الحسين (ع) ! فكل من يسمع بمثل هذا الحديث مثلاً سيفكر بأن ابن سعد ليس رجلاً سيئاً إلى هذا الحد الذي ينقل عنه الرواة . فخمسين رطلاً من الذهب الأحمر كانت كافية لإغراء أي إنسان ليذهب ويقاتل الحسين .

أمّا بشأن العلامة ملا آقا الدربندي مثلاً ، فإن هناك اتفاقاً عاماً حول حُسن سيرته . حتى الحاج نوري الذي ينتقد كتابه بحق فإنه يقول عنه أيضاً بأنه رجل حسن السيرة والسلوك . وكما ينقل عنه فإنه كان رجلاً مخلصاً للإمام الحسين (ع) وأنه كلما كان يذكر إسم الحسين أمامه كانت دموعه تسيل من مآقيه ، إضافةً إلى كونه عالما بالفقه والأصول ، وهو من جهته كان يُصنّف نفسه من فقهاء الدرجة الأولى .

ولكن الأمر ليس كذلك فهو من فقهاء الدرجة الثانية أو الثالثة فهذا العالم مثلاً يعرف عنه بأنه ألّف كتاباً باسم « الخزائن » وهو عبارة عن دورة كاملة في باب الفقه وقد تمت طباعته . والمؤلف من المعاصرين لصاحب الجواهر .

وينقل عنه أنه سأل صاحب الجواهر يوماً عن اسم كتابه ؟ فلمّا أجابه « الجواهر » ردَّ عليه صاحب (الخزائن) بأنه « يوجد من جواهرك هذه الكثير في خزائننا » . لكن كتاب (الجواهر) تم طبعه عشر مرات حتى الآن وهو كتاب لا يمكن لأي فقيه أن يستغني عنه وعن مراجعته . بينما طبع كتاب (الخزائن) مرة

واحدة ولم يرجع إليه أحد بعد ذلك أبداً ! وقيمة هذا الكتاب لا تتجاوز في الواقع قيمة الألف صفحة من الورق المستهلك لطباعته .

وهذا الرجل على ما عُرف عنه من العلم فإنّه بكتابه « أسرار الشهادة » قد ساهم في تحريف واقعة كربلاء كلياً . إنه في الحقيقة قد قلب الحقائق رأساً على عقب ونزع عن الواقعة أي أثر إيجابي يذكر، فيها ملأ كتابه بالأكاذيب !

فهل يجوز القول في مثل هذه الحالة بأن كون الرجل عالماً ورجلاً ذا تقوىٰ ، ومن المشهورين بإخلاصه للإمام الحسين (ع) ، يسمح لنا بالسكوت عنه ، أو القول بأن المفروض من الحاج نوري مثلاً السكوت عن كتابه المعروف باسم (أسرار الشهادة) ؟ أبداً فهذا الرجل يجب أن يُجرح وهذه وظيفة العلماء ورسالتهم الخطيرة . نسأل الله أن يوفقنا تبارك وتعالىٰ وينوّر قلوبنا جميعاً بالحق والحقيقة . ويغفر لنا ذنوبنا التي ارتكبناها بالتحريف أو بغير التحريف . ويوفقنا لأداء وظيفتنا ورسالتنا المفروضة علينا في هذا المجال على أحسن الوجوه .

[انتهى القسم الأول من الكتاب]



القسم الثاني

الملحمة الحسينية

المحاضرة الأولى : وجهان لواقعة كربلاء
المحاضرة الثانية : النهضة الحسينية ملحمة مقدسة
المحاضرة الثالثة : النهضة الحسينية وتبلور الشخصية المستقلة للمجتمع الاسلامي

المحاضرة الأولى

وجهان لواقعة كربلاء

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ربّ العالمين باريء الخلائق أجمعين والصلاة والسلام على عبد الله ورسوله وحبيبه وصفيّه سيدنا ونبينا ومولانا أبي القاسم محمد صلى الله عليه وآله وسلم وعلى آله الطيبين الطاهرين المعصومين .

أعوذُ بالله من الشيطان الرجيم : ﴿ **يا قوم إنْ كان كَبُرَ عليكم مقامي وتذكيري بآيات الله فعلى الله توكلتُ فأجمعوا أمركم وشركاءكم ثم لا يكن أمركم عليكم غُمّةً ثم اقضوا إليّ ولا تُنظِرون** ﴾[1] .

إنّ موضوع بحثنا هو الملحمة الحسينية أو (الحماسة الحسينية) ولا بد لي أولاً من توضيح كلمة الحماسة التي تستخدم كثيراً في اللغة الفارسية .

إن كلمة الحماسة تعني : الشدة والصلابة ، وفي أحيان أخرى يمكن استخدامها بمعنى الشجاعة والحمية . إنّ أهل الأدب ، والمتخصصين في شؤون الشعر ، يُقسّمون أنواع المنظومات الشعرية ، من حيث المحتوى والجوهر والهدف ، إلى أقسام مختلفة : فهناك المنظومة الغنائية أو الغزلية ، وهناك المنظومة

---

(١) سورة يونس : الآية ٧١ .



الحماسية ، كما هناك المنظومة الرثائية ، إضافة إلى شعر الحكمة والمديح وغير ذلك من أنواع الشعر المختلفة . فدواوين سعدي وحافظ وشمس تبريزي مثلاً يمكن اعتبارها من القسم الغزلي أو الغنائي للشعر. صحيح أنّ الهدف الكامن وراء هذه الأشعار هو العرفان إلا أنها على الأقل ظاهرياً تُعطي طابعاً غزلياً في أسلوبها ونسيجها الشعري من حيث إنها تتحدث عن التشبيب ، واللغة المستخدمة فيها هي لغة العُشاق ، والحديث فيها لا يتم إلا عن جمال المحبوب أو عدم اكتراثه بالحبيب ، وألم الفراق ، وطول ليله ، وقصر أيام الوصال ، إلى ما هنالك من تعابير غزلية يزخر بها الشعر الفارسي عموماً ؟ . . .

أما الشعر الرثائي ، الذي غالباً ما ينظم بشأن الأئمة والشخصيات الدينية والإصلاحية البارزة في مختلف المجتمعات ، تلك الشخصيات التي تكون منشأ للخير والبركة ، فهو نوع آخر من الشعر .

بعد انقراض البرامكة مثلاً خرج من بينهم عددٌ لا بأس به من الشعراء الذين عملوا معهم في السلطة ، وصاروا يرثونهم بعد ذلك بشعر رثائي خاص . الشاعر الإيراني الشهير « حافظ » هو الآخر تراه يرثى ابنه بمرثيه متميزة . .

إنّ شعر الرثاء كثير كذلك ، وأما شعر المديح والتمجيد فإنه إلى ما شاء الله كثير لا سيما شعر التملق والمراءاة ! !

لكن الشعر الحماسي شعر من نوع آخر ، وهو الشعر الذي عادةً ما يتطلب موسيقى ولحناً خاصاً ، إنّ الشعر الحماسي هو ذلك الشعر الذي تفوح منه رائحة الغيرة والشجاعة والحمية والرجولة . إنه الشعر الذي يحرك الروح ويهيجها ويثيرها .

إنّ هذا التقسيم لا يختص بالشعر فقط . إنّه تقسيم أدبي عام ينطبق على النثر أيضاً ، فهناك النثر الحماسي والنثر الغزلي ونثر المديح والرثاء إلى غير ذلك من أنواع النثر .

في حرب صفين وعندما كانت المواجهة لا تزال في أوجها بين جيشٍ علي (ع)

وجيش معاوية ، فإنّ علياً (ع) لم يكن يريد أنْ يكون البادىء بالحرب وكـان يبذل قصارى جهده ليحل المشاكل القائمة بين الطرفين بقدر المستطاع بالحسنىٰ على أمل أن يعـود بمعاويـة وأصحابـه إلى رشدهم ، ويصـدهم عن غيهم . لكنـه فـوجىء بجيش معاوية وقد بادر إلى قطع الطريق على جيشه وحاصر شريعة الماء مما دفـع به إلى تكثيف الجهود الرامية إلى حل الإشكالات القائمة ، عن طريق المفاوضات ولمّا يئس من إمكانية قبـول الطرف الآخـر فإنّـه صار عـلى مفترق طـرق بين أنْ يمـوت جيشه من العطش وبين أنْ يواجه الحرب التي فرضها عليه العدو بحربٍ أشد منها وعندها توجه إلى أصحابه يستثيرهم ويُشعل هممهم .

وكما جاء في (نهج البـلاغة) فـإنّ علياً (ع) هنـا تراه يقف أمـام الجمع من أنصاره حانقاً شديد التأثر ويوجه لهم خطبة حماسية يقول فيها :

« . . . . قد استطعموكم القتال . . . فأقِرّوا على مذلَّةٍ وتأخـير محلَّةٍ أو روُّوا السيوف من الدماء ترووا من الماء ! . . . فالمـوت في حياتكم مقهـورين والحياة في موتكم قاهرين »[1] .

لقد استطاع علي (ع) من خلال خطبته الحـماسية هـذه أن يُهيج المشـاعر في جنـده ويُعبئهم تعبئةً نفسيـةً كـان نتيجتهـا طرد العـدو من شريعة المـاء في فترة لم تتجاوز السـاعتـين والسيطرة عـلى الفرات . لكن عليـاً (ع) أمر جنـوده أن يتركـوا المجال مفتوحاً لجند معاوية للوصول إلى الماء لأخذ ما يحتاجونه يومياً . ولمّا اعترض جنده عليه وطالبوه بقطع المياه عن العدو كما قطعوها عنهم عندمـا كانـوا مُـسيطرين عليها أجابهم علي (ع) بأنّ الماء حق طبيعي من حقوق كل الأحياء وقـطع الماء عن الآخرين عمل غير إنساني ، ولا نقوم به .

وبنـاءً عليه يتبـين أنـه من الممكن للحـديث أن يكـون حـديثـاً حمـاسيـاً . والحـديث الحـماسي يعني الحـديث الـذي تفـوح منـه رائحـة الغـيرة والشجـاعـة والـرجولـة ، حديث مُشبـع بالصمـود والمقاومـة ، وعندمـا يكون الشعـر أو النـثر مطبوعاً بهذه الخصوصيات عندها ندعوه بالأدب الحماسي .

---

(١) نهج البلاغة ـ فيض الإسلام ـ الخطبة ٥١ ، ص ١٣٨ .

المذكرات والحوادث التاريخية والقصص والحكايات أيضاً يمكن تقسيمها بهذا الشكل ، فهناك الحوادث الغزلية وهناك الوقائع التي يأخذ منها الإنسان العبر والدروس ، وهناك الحوادث الرثائية والأخرى الحماسية وغير ذلك . فالرواية الغزلية المطلقة مثلاً تراها تفوح برائحة الغناء والغزل والعشق . انظروا إلى المجلات المنتشرة في بلادنا سترونها جميعاً لا تكتب ولا تنقل لكم سوى القصص والروايات الغزلية لا فرق إن كانت تعبّر عن الواقعية أو الخيالية أو خليط من الواقع والخيال ولا أدري ما الفائدة من وراء كل هذا الأدب الغنائي والغزلي[١] .

القصص الرثائية أيضاً كثيرة هي الأخرى وهي المعروفة في هذه الأيام (بالتراجيديا) ، فلو طالعت صفحات الجرائد اليومية ستجد أغلب ما ينشر فيها هو من هذا النوع المذكور .

وهناك قصص المواعظ والحكم أيضاً وهي قصص ترمي إلى أخذ العبر والدروس من التاريخ والماضي ، والقصص الحق (داستان راستان)[٢] ، مثلاً يمكن اعتبارها من هذا النوع من القصص . الشخصيات الاجتماعية والتاريخية أيضاً يمكن تقسيمها بهذا الشكل ، فهناك من الشخصيات من يمكن نعتها بالشخصيات الحماسية وهي الشخصيات التي يملأ روحها الحماس . فيما ترى البعض الآخر يملأ روحها الغزل والغناء . وأخرى ترى روحها أساساً روح عزاء ورثاء وهي تئن وتنوح على الدوام ، وهناك من ترى شكل روحه وكأنها خُلقت لتكون موعظة وعبرة للآخرين .

الآن وبعد أن أدركنا معنى الحماسة بالإجمال نستطيع البحث حول معنى الحماسة الحسينية .

فهل يمكن اعتبار واقعة الحسين بن علي (ع) واقعة حماسية ؟ وهل يمكننا تسمية الحسين بن علي (ع) بالشخصية الحماسية أو لا ؟ لا بد لنا من معرفة

---

(١) الشهيد هنا يُشير إلى مجلات العهد البائد .

(٢) كتاب في مجلدين تأليف الشيخ مطهري نفسه .

شخصية الحسين بن علي (ع) تلك الشخصية الإنسانية الكبرى بالنسبة لنا . فهذا الرجل الذي نصرف كل تلك الأموال من أجله ، ونبذل كل تلك الجهود والأوقات في سبيله ، ونعطّل كل تلك الأيام سنوياً باسمه ، لا بد لنا من معرفة سماته وخصوصياته المميزة لشخصيته . ومن جملة ما يجب معرفته هو شخصيته وهل هي حماسية بالفعل ؟ ثم إذا ما كانت واقعة الحسين بن علي (ع) وسيرته تُثير فينا الشعور بالحماس أو الشعور بالتراجيديا والمصيبة والرثاء والضياع ؟

وهنا أرى من الواجب علي أنْ أقدّم توضيحاً :

إنّ الشخصيات الحماسية والملحمية التي ترد في الغالب في المنظومات الأدبية الحماسية تراها في الواقع ذات طابع عنصري وقومي سواء أكانت من الشخصيات الخيالية مثل رستم وإسفنديار أو شخصيات واقعية مثل جلال الدين خوارزم شاه الواردة أسماؤهم في التاريخ الايراني . ولمّا كانت تلك الشخصيات الأسطورية تأخذ شكل البطل التابع لتلك القومية أو ذلك الشعب لا فرق إن كانت شخصية البطل واقعية أو خيالية فإنها تلعب دور المحرك لجماهير تلك القومية . وحس تقديس البطل والتعلق ببطولاته جزء لا يتجزأ من طبيعة البشر ، لا سيما إذا كان البطل يرتبط بشكل أو بآخر بتلك المجموعة التي تريد أن تفتخر به .

خذ مثلاً أبطال المصارعة الذين يفوزون في المباريات فإن الجمهور يُبدي لهم فعلاً إحساسات فائقة أو أولئك الأبطال الذين يرفعون الأثقال ويتجاوزون الرقم القياسي العالمي ، فإنّ جمهور المحبين يصنع لهم تيجاناً من الزهور أو أولئك الأبطال من رجال المصارعة والملاكمة الذين يصرعون منافسيهم بضربة فنية رائعة ترى أنّ الجمهور المتعلق بهم يتألق حماساً وزهواً بانتصاراتهم .

إنّ هذا لم يكن ليحصل لولا أنّ حس تقديس البطل وحب البطولة جزء من طبيعة البشر ، وبالتالي فإنّ كل قوم يُشجّع أبطاله الخاصين به . ففي المباريات الدولية مثلاً ترى أنّ أفراد كل قوم ، سواء الحاضرون منهم للمباريات ، أو الذين يتابعونها على أجهزة (الراديو) ، يشدهم الحماس لتشجيع البطل القومي الذي

سيأتي لوطنه بالفوز والنجاح . ونحن بدورنا هنا عندما نسمع بأساطير رستم وأفراسياب مثلاً ترانا نقف في إحساساتنا إلى جانب رستم لأنه من بلاد إيران بينما لا نتمنى الغلبة لأفراسياب باعتباره من بلاد ما رواء النهر وبالتالي فهو من قوم غير القوم الإيراني . ولا بد هنا من الإشارة إلى أنّ صانع الأسطورة قد حاك تفاصيلها بشكل يتلاءم مع ذوقنا ورغبتنا أي أن تكون الغلبة باستمرار من نصيب الطرف الإيراني والهزيمة تلحق دوماً بالطرف الآخر . إنّ مثل هذه الملاحم عبارة عن ملاحم قوميّة ، وهي ملاحم تخص قوماً أو عرقاً معينين ، ولها علاقة ببلاد وتربة معينة .

بينما ملحمة الحسين (ع) ملحمة من نوع آخر . صحيح أنّ شخصية الحسين شخصية ملحمية وحماسية ، لكنها ليست كشخصية جلال الدين خوارزمشاه ، وهي ليست شخصية مثل شخصية رستم الأسطورية أيضاً . إنّ الحسين بن علي (ع) شخصية ملحميّة بالفعل لكنها ملحمة الإنسانية ، ملحمة البشرية وليس ملحمة قومية . إنّ حديث الحسين (ع) وعمله وواقعه وروحه وكل شيء فيه عبارة عن غليان وحركة ودرس وعبرة وتدفق للقوة . ولكن أي تدفق للقوة ؟ وأي نوع من الدروس والعبر ؟ ألأنه ينتسب إلى قومية معنية مثلاً ؟! لأنه شرقي مثلاً ؟ أو لأنه عربي أو غير عربي ؟ أو كما يقول بعض الإيرانيين بأنّ زوجته إيرانية ؟!

إنّ ملحمة الحسين (ع) لا يمكن لها أن تكون من هذا النوع من الملاحم لأنه شخصية مختلفة تماماً وسبب جهلنا له يكمن في هذه النقطة تماماً . لأن ملحمته فوق الملاحم لذلك لا ترى إلا القليل ممن يقدر على معرفته .

إنك لن تجد في العالم كله شخصية ملحمية مثل شخصية الحسين بن علي (ع) إنْ من زاوية سموّ جوانبها الحماسية ، أو من زاوية علوّها وارتفاعها أي من زاوية جوانبها الإنسانية ، وليس الجانب القومي أو الوطني . إنّ الحسين (ع) نشيد الإنسانية ولهذا فهو ليس له نظير . وأقولها بكل جرأة، نعم ليس له نظير ولا ند .

إنّك لن تجد ملحمة حماسية مثل ملحمة الحسين بن علي (ع) سواء على صعيد درجة القوة والطاقة الكامنة أو من جهة العلو والسموّ الإنسانيين وللأسف يجب القول بأننا لم نعرف بعدُ هذه الملحمة .

إنّ واقعة عاشوراء ومعركة كربلاء لها وجهان ، وجه أبيض ونوراني والآخر مظلم وأسود قاتم السواد وكلتا الصفحتين إما لا نظير لهما أو نادرتان جداً . أما الصفحة السوداء والمظلمة فإنها كذلك لأنها عبارة عن جريمة نادرة أو لا نظير لها أبداً .

لقد فكرتُ مرة بدرجة وحجم الجريمة المرتكبة في عاشوراء فرأيت أن واحداً وعشرين نوعاً من أنواع الرذالة واللؤم قد ارتكب كحد أدنى في هذه الواقعة ولا أعتقد أنّ هناك واقعة أخرى في الدنيا يمكن لها أن توازي مثل هذه الواقعة في حجم تنوعها . بالطبع يوجد هناك في تاريخنا الحروب الصليبية التي لم يترك فيها الأوروبيون مجالاً للتعجب عندما يُنظر إلى سواها من حوادث التاريخ الإجرامي . وإذا كنتُ قد ترددت في الادعاء بعدم وجود شبيه لحادثة كربلاء من ناحية حجم الجريمة فالسبب إنما يعود لحجم الجريمة التي ارتكبها الغربيّون في المعارك الصليبية وكذلك الجرائم التي ارتكبها هؤلاء الأوروبيون أنفسهم في الأندلس الإسلامية وهي عجيبة للغاية . وفي هذا المجال أدعوكم للرجوع إلى كتاب « تاريخ الأندلس » للمرحوم آيتي المطبوع من قبل جامعة طهران وهو كتاب تحقيقي نفيس .

يقول المؤلف في هذا الكتاب : « إنّ الأوروبيين كانوا قد سمحوا لمائة ألف من الرجال والنساء والأطفال أن يخرجوا من منازلهم ويتوجهوا حيث يشاؤون ولكنهم ما أن تحركوا بشكل جماعي حتى نقض الأوروبيون العهد وربما كانت الخطة خدعة مدبرة من الأساس للإيقاع بهم . على أي حال فإنه ما أن تحركت الجموع حتى صدرت الأوامر بارتكاب المجزرة وقطع رؤوس الجميع بعد تقتيلهم شر قتلة » .

إنّ الشرق لن يصل في حجم جرائمه إلى الغرب . إنك لو طالعت تاريخ

الشرق كله بما فيه التاريخ الأموي فإنك سوف لن تعثر على هذين النوعين من الجرائم وهي حرق البشر وهم أحياء والثانية ممارسة القتل الجماعي للنساء لكنك ترى مثل هذا النوع من الجرائم في تاريخ الغرب يتكرر باستمرار . إنّ قتل النساء أمر شائع في تاريخ الغرب . لا تصدقوا بأن الغربيين يملكون روحاً إنسانية في داخلهم . إن ما جرى في فيتنام يُشكل امتداداً لروح الحروب الصليبية ومعارك الأندلس . إنّ قتل مئات الألوف من الناس وهم أحياء من خلال رميهم في أفران الغاز حتىٰ وإن كانوا مجرمين أمر لا يفعله الإنسان الشرقي ، ولا يمكن لمثل هذه الجريمة أن تحصل على يد الشرقيين . إنّ هذا العمل لا يحصل إلّا على يد غربيي القرن العشرين فقط .

إنّ جريمة ترك عشرات الألوف من الأسرىٰ يموتون في صحراء سيناء من الجوع والعطش خوفاً من تبعات أسرهم عمل لا يصدر إلا من الغرب والغربيين . إنّ الشرقي لا يرتكب مثل هذه الجريمة . إنّ اليهودي الفلسطيني أشرف من اليهودي الغربي مائة مرة . لو كانت المعركة تدور مع يهود فلسطين المحليين لما ارتكبت مثل هذه الجرائم وهي من صنع اليهودي الغربي . على كل حال فإنني لا أستطيع القول بأنّ جريمة مثل جريمة كربلاء لم تقع ولن يقع مثلها في العالم لكنني استطيع القول بأنها لا مثيل لها في العالم الشرقي .

من هذه الزاوية يمكننا القول بأنّ واقعة كربلاء تمثل مأساة كاملة ، ومصيبة عظمىٰ ، وملحمة رثائية . وعندما نتفحص في هذا الوجه منها نرى قتل الأبرياء والشباب والأطفال الرُضّع ، وسحق جثث الموتىٰ بحوافر الخيل ، ومنع المياه عن الإنسان ، ومعاقبة النساء والأطفال بجريمة آبائهم وأزواجهم ، وتعذيب الأسرى من خلال إجبارهم على ركوب الجمال وهي عارية من سروجها ..... الخ ، فمن هو بطل الواقعة من وجهة النظر هذه ؟

إنّه لأمر واضح هنا بأنّ البطل من هذه الزاوية الجنائية ليس ذلك الذي يتحمل الضربات فهو لا شك المظلوم في هذا الجانب . إنّ بطل الواقعة من هذه الزاوية هو يزيد بن معاوية وعبيد الله بن زياد وعمر بن سعد وشمر بن ذي

الجوشن وخولي وآخرون ، ولذلك فإننا عندما نطالع الصفحة السوداء من هذا التاريخ سنرى صورة الجريمة والرثاء فقط لعالم البشرية . فلو أردنا قول الشعر هنا ماذا علينا أنْ نقول ؟ علينا أن نقرأ المنظومات الرثائية ولا نجد شيئاً نقوله سوى الرثاء .

ولكن هل إن تاريخ عاشوراء هو هذه الصفحة فقط ؟

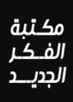
هل إنّ عاشوراء عبارة عن رثاء فقط ؟ هل هي مصيبة وليست شيئاً آخر ؟

إنّ خطأنا هنا بالذات ، حيث هذه الواقعة لها صفحة أخرى بطلها هذه المرة ليس ابن معاوية وليس ابن زياد وليس ابن سعد ولا الشمر . بطلها هنا هو الحسين (ع) . وفي هذه الصفحة ليس للجريمة مكان ولا مكان للمأساة أيضاً ، إنها صفحة الحماس والملاحم والفخر والنورانية وتجلي الحقيقة والإنسانية وتقديس الحق ، وعندما نقرأ هذه الصفحة نستطيع القول بأنّ من حق البشرية أن تطير من الفرح . لكننا عندما نطالع تلك الصفحة المظلمة نرى أن البشرية قد نكّست رأسها خجلة مفضوحة وهي ترى نفسها مصداق الآية الشريفة : **﴿ قالوا أتجعل فيها من يُفسد فيها ويسفكُ الدماء ونحن نُسبّح بحمدك ونُقدّس لك ﴾**(1) .

من الطبيعي أنه ليس الملك جبرائيل الذي يسأل الله سبحانه وتعالى هذا السؤال عندما سمع ربه يقول : **﴿ إني جاعلٌ في الأرض خليفةً ﴾**(2) . بل إنهم أولئك القسم من الملائكة الذين كانوا لا يرون إلا ذلك الوجه المظلم للبشرية عندما غاب عن أنظارهم ذلك الوجه الآخر المشرق ، لكن الله ـ سبحانه وتعالى ـ يردُ عليهم قائلاً : **﴿ إني أعلمُ ما لا تعلمون ﴾**(3) .

إنّ تلك الصفحة التي اعترض عليها الملائكة يكون فيها البشر مُنكّسي الرؤوس بينما تلك الصفحة الأخرى يكونون فيها رافعي الرؤوس فخراً ؛ فلماذا ترانا لا نطالع ولا نتحدّث عن واقعة كربلاء إلاّ من زاوية صفحتها السوداء المظلمة فقط ؟ ولماذا لا نتحدث إلاّ عن جرائم كربلاء فقط ؟ ولماذا لا نُطالع

(1و2و3) سورة البقرة : الآية ٣٠ .



شخصية الحسين بن علي إلا من زاوية كونه مُعتدىً عليه ؟ ولماذا لا نرفع من الشعارات باسم الحسين إلا تلك المأخوذة من صفحة عاشوراء المظلمة ؟ لماذا ترانا نُقلّل من أهمية تلك الصفحة النورانية من واقعة كربلاء في الوقت الذي نعلم فيه أن الجانب الحماسي لهذه الواقعة يُعادل مائة مرة الجانب الجنائي والمأساوي فيها ، وأن الوجه النوراني لهذه الواقعة يفوق بكثير وجهها المظلم .

لذلك يجب علينا أنْ نعترف بأننا في عداد الجناة المساهمين في جريمة واقعة كربلاء حيث إننا لا نقرأ إلا صفحة واحدة ولا نرى إلا وجهاً واحداً من وجوه الواقعة وبالتالي فإننا مساهمون في عملية التحريف وكل من يساهم في حرف معركة كربلاء عن أهدافها الحقيقية يمكن اعتباره من الجُناة بحق الإمام الحسين (ع) .

لقد تم قتل الحسين (ع) في يوم واحد وفي ذلك اليوم أيضاً فصلوا رأسه عن جسده ، لكنه ليس جسماً فقط وليس مثلي ومثلك إنه مدرسة تحيا وتكبر بعد موتها .

لقد تصورت أجهزة السلطة الأموية انها بقتلها للحسين (ع) قد أجهزت عليه ، وأنهت وجوده وتأثيره ، لكنها أدركت فيما بعد بأن الحسين (ع) ميتاً ينافسها أكثر مما هو حياً ، فقد أصبحت تربة الحسين كعبة العاشقين ، وقد قالت زينب عليها السلام ليزيد نفس هذا الكلام : «فكِدْ كيدَكَ واسعَ سعيك وناصِب جهدك فوالله لا تمحو ذكرنا ، ولا تُميتَ وحينا »[1] .

إنَّ شعراء الرثاء في ذلك الزمان ليسوا مثل شعراء الرثاء في هذا العصر . « فالكُميت » كان شاعر رثاء و« دعبل الخزاعي » أيضاً كان شاعر رثاء فدعبل الخزاعي مثلاً وهو صاحب القول المعروف بأنه ظل يحمل خشبة إعدامه خمسين عاماً على كتفه ، وكان عندما يُنظم مرثيته تهتز عروش الخلفاء الأمويين والعباسيين لسماعهم لها ، بينما شعراء عصرنا الحاضر يعتبرون أنّ القدر الحاقد والدهر

(١) بحار الأنوار ج ٤٥ ص ١٣٥ ، اللهوف ص ٧٧ .

الأعمى هما المسؤولان عن شهادة الحسين (ع) في حين أن الكُميت كان يُزلزل الدنيا بقصيدته وهو يرثي الحسين (ع) فيها .

إنّ اسم الحسين (ع) وتاريخه ومرثيته كانت أسلحة تعبوية آنذاك . حتى قبره الشريف كان بحد ذاته يُشكل مشكلة قائمة بذاتها . لذلك تراهم قرروا هدمه ومحو آثاره . وتسوية الأرض التي دفن عليها ثم رشوا الماء الكثير هناك حتى لا يعرف أحد البقعة التي دفن فيها ولكن ماذا حصل ؟ لقد ازداد توجه الناس والتفاتهم نحو زيارة قبره عليه السلام .

يُحكى أن المتوكل كان يبحث يوماً عن معلمة للغناء والرقص في قصره وأنه بحث في كل مكان عنها فلم يجدها ، ولمّا ألح في السؤال عنها قالوا له يبدو أنها في سفر ، ولمّا عادت من السفر ، استدعاها وسألها أين كانت ؟ فقالت له : إنها كانت في زيارة مكة المكرمة . فقال لها بأنّ الوقت ليس وقت الزيارة إلى مكة وأضاف : فنحن الآن لسنا في ذي الحجة حتى تقولين إنك كنت في الحج ولا في شهر رجب حتى تقولين إنك ذهبت إلى العمرة ! وبعد إلحاح شديد اكتشف أنها كانت في زيارة قبر الحسين بن علي (ع) فاشتعل غضباً وأدرك أنه ليس بالإمكان محو ذكر الحسين (ع) .

من جهة أخرى فأنا لا أعرف من هو المجرم أو المجرمون الجُناة الذين ارتكبوا هذه الجريمة بحق الحسين بن علي (ع) عندما حرّفوا هدف نهضة الحسين بقولهم إنّ الحسين قد عرَّض نفسه إلى القتل ليحمل على كتفه ذنوب أمته وهو القول الشائع بين المسيحيين عن المسيح (ع) . فهل أرادوا لأنفسهم من وراء ذلك أن يرتكبوا ما استطاعوا من المحرمات دون خوف أو وجل . وهل كان المذنبون قلائل حتى يزيد عددهم بهذا التحريف ؟! ولذلك ترى أن الوجه الذي يسود معركة عاشوراء بعد هذا الانحراف هو ذلك الوجه المظلم والأسود للمعركة وصرنا لا نسمع إلا الرثاء ولا نسمع إلا المصيبة حول عاشوراء . وأنا لا أقول بعدم ضرورة رؤية وقراءة ذلك الوجه المظلم لكنني أرى أن هذا الرثاء الحسيني لا بد وأن يأتي ممزوجاً بالحماس فعندما يقال بأنّ رثاء الحسين بن علي (ع) يجب أن

يُخلَّد فإنّ ذلك حقيقة نطق بها رسول الله (ص) وأوصى بها أئمتنا عليهم السلام .

إنّ هذا الرثاء وهذه المصيبة يجب ألا تُنسى ، وهذه الذكرى يجب أن تظل خالدة ولا بد لنا من إبكاء الناس عليها باستمرار ولكن في رثاء البطل .

إذاً لا بد لنا أولاً من تثبيت شخصية الحسين (ع) البطلة في أذهاننا ، ومن ثم نجلس لنرثيه في ذكراه ، نرثيه بطلاً وإلا فإن رثاء رجل مسكين مستكين مظلوم لا حيلة له ولا يد فيما جرى ويجري في التاريخ أمر لا يحتاج إلى بكاء ولا معنى لبكاء الأمة عليه .

ابكوا البطل وأقيموا مجالس الرثاء والعزاء للبطل حتى تولدوا إحساساً بالبطولة والشجاعة في أنفسكم واجلسوا في رثاء البطل عسى أن تنعكس ظلال روح البطل على أرواحكم وتزداد غيرتكم تجاه الحق والحقيقة وتنذروا أنفسكم للعدالة وتصبحوا من المقاتلين ضد الظلم والظالمين وتصبحوا أحراراً وتُقدِّروا معنى الحرية . اجلسوا في رثاء البطل حتى تعرفوا معنى عزة النفس ؟ وما معنى الشرف والإنسانية ؟ حتى تعرفوا ما معنى الكرامة ؟

نحن إذا ما قرأنا وطالعنا الوجه النوراني للتاريخ الحسيني فإننا عند ذلك نتمكن من الاستفادة من الوجه الرثائي للواقعة ، وإلا فإنّ الوجه الرثائي لوحده لا فائدة تذكر منه ، فهل تتصورون أنّ الحسين بن علي جالس بانتظار من يأتي ليشفق عليه ، أو العياذ بالله أنّ فاطمة الزهراء (ع) وهي التي تسكن إلى جوار رحمة ربها تنتظر من يأتيها من أمثالنا نحن صغار البشر ليواسيها ويُخفف من معاناتها بعزاء الحسين (ع) بعد مرور أكثر من ألف وثلاثمائة عام على تلك الفاجعة !! .

قبل عدة سنوات مضت قرأتُ كتاباً حاول مؤلفه مقارنة شخصية الحسين بن علي (ع) وعيسىٰ المسيح النبي (ع) ، وهو يرى أنّ عمل المسيحيين أفضل من عمل المسلمين (الشيعة) ذلك أن المسيحيين يحتفلون بذكرى شهادة عيسىٰ المسيح ويفرحون لحلولها بينما يستقبل المسلمون شهادة الحسين بن علي (ع) بالرثاء والبكاء ، كما أنّه يُرجح عمل المسيحيين كثيراً على عمل المسلمين من حيث إن

المسيحيين يرون في شهادة عيسىٰ المسيح رمزاً للتوفيق والنجاح وليس للفشل والانكسار ولذلك تراهم يفرحون ويحتفلون بهذا النجاح .

في حين أن المسلمين يرون في الشهادة رمزاً للانكسار والفشل ولذلك تراهم يبكون على هذا الفشل الذي أصابهم . فسعداً لأمّة ترىٰ الشهادة رمزاً للموفقية والنجاح وتعساً لأمةٍ ترى الشهادة ذلاً وانكساراً وأمراً يحتاج إلى الرثاء والبكاء .

والجواب على ذلك **أولاً** : إنّ عالم المسيحية هذا إنما يحتفل بهذه الشهادة انطلاقاً من العقيدة الخرافية التي تقول بأن عيسىٰ قد قُتل حتىٰ يُكفّر عن ذنوب الأمة ولّمارأت أنّها قد خفّت أثقالها بناءً على ذلك فإنها ترى ضرورة الاحتفال بنجاتها وخلاصها وتحررها من محاسبة الضمير وتأنيب الذات ! وهذه خرافة خرقاء .

وثانياً : إن هذا هو الفرق بين الإسلام والمسيحية المحرّفة حيث إن الإسلام دين اجتماعي بينما المسيحية دين لا يتعدى شأنه الشأن الأخلاقي .

من جهة أخرى فإنه يمكن النظر إلى الحوادث مرةً من الزاوية الفردية وأخرى من الزاوية الاجتماعية . فمن وجهة النظر الإسلامية نعتبر شهادة الحسين بن علي نوعاً من النجاح على الصعيد الفردي . فهل كانت الشهادة لشخص الحسين بن علي (ع) تعبيراً عن الفشل عن الموفقية والنجاح ؟ إن كل مسلم يقول بأنها رمز للنجاح . والحسين نفسه يراها كذلك منذ اليوم الأول عندما استقبلها قائلاً : « خُطّ الموت على ولد آدم مَخطّ القلادة على جيد الفتاة ، وما أولهني إلى أسلافي اشتياق يعقوب إلى يوسف »[1] .

ومن وجهة نظر كل إنسان ومن وجهة نظر الشهيد نفسه نعتبر الشهادة رمزاً

---

(١) بحار الأنوار ج ٤٤ ص ٣٦٦ . اللهوف ص ٢٥ . مقتل الحسين للخوارزمي ج ٢ ص ٥ . كشف الغمة ج ٢ ص ٢٩ .



للموفقية ولا يحتاج الأمر إلى شهادة المسيحية في ذلك . فقبل (١٣٥٠عاماً) مضت رآها أسلافنا وقادة ديننا كذلك أيضاً . ها هو علي بن أبي طالب (ع) نفسه يقول وهو يستقبل الموت : « والله ما فجأني من الموت وارِد كرهتُهُ ، أو طالع أنكرتُهُ ، وما كُنتُ إلّا كقارب وردٍ وطالب وجدٍ . . . »[1] .

كان هذا من زاوية وجهة النظر الشخصية والفردية للحدث ، لكن الإسلام له جانبه وبعده الآخر في رؤيته للحدث فالقضايا والأحداث المختلفة لا يراها الإسلام في سياق التحليل الفردي والشخصي فقط بل إنه يضعها أيضاً في سياق المطالعة الاجتماعية . إنّ واقعة عاشوراء من الناحية الاجتماعية من زاوية العمل الجنائي الذي تم ارتكابه تعتبر مظهراً من مظاهر الانحطاط في المجتمع الإسلامي . ولذلك ينبغي التذكير بها دائماً لكل أفراد الأمّة حتىٰ لا يتم تكرار مثل هذه الجرائم . إنّها تشبه (الحسرة) و« الآه » التي تطلقها الأمة باستمرار حتى تقول : أحقاً نحن المسلمين قد ارتكبنا مثل هذا الحادث ؟! ألا لعنة الله على من ارتكب مثل هذه الجريمة وأنه غير مسموح لنا بتكرار مثلها بعد الآن ! ثم بالإضافة إلى ذلك فإنّ مثل هذه المجالس التي نقيمها ، نحن بحاجة إليها من أجل صقل الأحاسيس الإسلامية والإنسانية لدى شعوبنا . ولكن بالطبع بشرط أنْ ندرك ما نقوم به . واليوم نحن بحاجة أكثر من أيّ وقت مضىٰ إلى تصحيح شؤوننا الدينية وإجراء الإصلاحات اللازمة عليها وطبيعي أن المقصود في الإصلاح هو منهج تفكيرنا وطريقة تعاملنا وتعاطينا مع الشؤون الدينية وليس الدين نفسه فأخطاؤنا لا يمكن حسابها على الدين . . .[2] .

---

(١) بحار الأنوار ج ٤٢ ص ٢٥٤ . نهج البلاغة فيض الإسلام . من خطبة له عليه السلام قبل رحيله إلى عالم الآخرة وهي أشبه بالوصية ص ٨٧٥ .

(٢) نأسف هنا لأن تتمة حديث الشهيد لم ترد في شريط التسجيل .

المحاضرة الثانية

النهضة الحسينية
ملحمة مقدسة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين باريء الخلائق أجمعين والصلاة والسلام على عبد الله ورسوله وحبيبه وصفيّه سيدنا ونبينا ومولانا أبي القاسم محمد صلى الله عليه وآله وسلم وعلى آله الطيبين الطاهرين المعصومين .

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم : ﴿ **يا قوم إنْ كان كَبُرَ عليكم مقامي وتذكيري بآيات الله فعلى الله توكلتُ فاجمعوا أمرَكُم وشركاءكم ثم لا يكُن أمرُكم عليكم غُمَّةً ثم اقضوا إليّ ولا تُنظِرون** ﴾[1] .

قلنا إنّ الحديث الحماسي والشعر أو المنظومة الشعرية الحماسية تولد في الروح الإنسانية غلياناً واندفاعاً عجيبين باتجاه النضال والمقاومة والصمود والدفاع عن العقيدة ، وإنّ الشخصيةَ الحماسية يملكها ذلك الإنسان الذي ينبعث من روحه مثل تلك التموجات ، أي إنّ روحه تموج فيها إحساسات العظمة والغيرة والحمية والشجاعة بالإضافة إلى حس الدفاع عن الحقوق الإنسانية والعدالة .

ثم إننا عرضنا لحادثة عاشوراء التاريخية وجهين ، وجهاً يمثل تلك الصفحة

---

(١) سورة يونس : الآية ٧١ .



السوداء والمظلمة أو معرض الجريمة البشرية والفعل الجنائي الخطير للغاية الملازم للظلم والعدوان اللذين لا حصر ولا حد لهما . واستناداً إلى هذا الوجه الأسود فإن روايتنا الجنائية هذه لها أبطالها الذين يُمثلون دور الأبطال الجُناة وهم ابن معاوية وابن زياد وابن سعد وعدد آخر من الجناة من أبطال هذه القصة والواقعة الجنائية . لكن هذه الرواية ليست مظهراً للجريمة فقط أي إنّ روايتنا ليست ذات وجه واحد بل ذات وجهين .

فالقصة لا تنتهي عند ذلك العمل الإجرامي الذي ارتكبه عدد من الجناة ضد جمهور من الأطهار والأبرياء ، نعم فهناك في التاريخ قصص ليس لها إلا بُعد واحد هو البعد الجنائي وهي القصص المملوءة بالجريمة فقط لا غير . مثال ذلك قصة ولدي مسلم بن عقيل القاصرين والتي تتلخّص في عثور أحد الجُناة عليهما في أحد المخابىء أثناء فرارهما من ملاحقة قتلة أبيهما من جماعة ابن زياد ، ثم قتله لهما طمعاً في الحصول على المكافأة المالية الموضوعة للجاني . فنحن إذ نقرأ قصة هذين الطفلين نرى أن أحد وجوهها هو الجريمة بينما في وجهها الآخر صورة طفلين بريئين قاصرين غريبين ارتكبت بحقهما جريمة بشعة وهما غير قادرين على الكلام أو ممارسة عمل يدفع الجريمة ، باعتبارهما كانا لم يتجاوزا سن البلوغ بعد .

إنّ هذه القصة قصة جنائية محضة وهي كذلك أيضاً من ناحية الطفلين إذ هي بالنسبة لهما لا تولد إلا الرثاء والمصيبة والمظلومية . بينما قصة كربلاء ليست كذلك أبداً .

إنّها قصة ذات وجهين وجهها الآخر هو الوجه الأكثر قابلية للمطالعة والدرس والتحقيق . إنّ وجهها الآخر له صفة إيجابية واضحة وصورة نشطة وفعالة ، فهو استعراض مثير للعظمة وسموّ البشرية ورفعتها . وتصوير رائع للمعالي والمكارم الإنسانية . ووجه طافح بالحماسة والعظمة والشجاعة . إنه أمواج المطالبة بالحقوق وتقديس الحق . ومن هذا الجانب يصبح أبطال القصة غير ابن معاوية وابن زياد وابن سعد بل إن البطل أو الأبطال هذه المرة هم الحسين بن علي والعباس بن علي وأختهما زينب (عليهم السلام) وإلى جانبهم

عدد لا بأس به من الرجال المُضحين الأفذاذ الذين يُمجِّدهم الحسين (ع) أفضل تمجيد وهو الإمام الذي لا يقبل ولا يرضى لكلامه أن تشوبه شائبة المبالغة أو التهويل .

نعم فالإمام الحسين (ع) حيّى أصحابه ومجّدهم في ليلة العاشر من محرم ، إنه لم يصفهم بمجموعة من الأبرياء المساكين الذين سيقتلون غداً وتنقضي آجالهم ، بل إنه قال عنهم (ع) :

«فإني لا أعلم أصحاباً أوفى ولا خيراً من أصحابي»[1] ، نعم إنه فضلّهم على أصحاب النبي (ص) الذين حضروا بدراً إلى جانب جده ، على أصحاب أبيه علي (ع) وعلى أعوان الرسل وأنصارهم الذين ذكرهم القرآن الكريم في قوله تعالى : **﴿ وكأين من نبيٍّ قاتلَ معهُ ربِّيون كثير فما وهنوا لِما أصابهم في سبيل الله وما ضَعفوا وما استكانوا والله يُحبّ الصابرين ﴾**[2] .

اي إنّه يعترف لهم جميعاً بأنهم نِعْمَ الأبطال ، وهو قد بدا حديثه معهم بقوله : « مرحباً ، مرحباً بجماعة الأبطال » . وبناءً عليه وبعد أنْ فهمنا انَّ هذه القصة لها وجهان نريد الآن أن نقرأ الوجه الآخر ونعترف بأننا أخطأنا في الماضي عندما تناولنا جانباً واحداً فقط من تلك القصة وكُنّا نضع الجانب الآخر مسكوتاً عنه في الأعم الأغلب . أي إننا كنا ولا زلنا لا نعرض إلا بطولات الجُناة من أمثال يزيد بن معاوية وابن زياد وعمر بن سعد .

إنني في الحقيقة أكُنُّ تقديراً بالغاً لهذه المجموعات الحسينية[1] لأنها بعملها هذا تريد إبراز أحاسيسها وهي الأحاسيس الطبيعية والصادقة مائة بالمائة والنابعة

---

(١) بحار الأنوار ج ٤٤ ص ٣٩٢ ، إرشاد الشيخ المفيد ص ٢٣١ ، أعلام الورى ص ٢٣٤ ، مقتل الحسين للمقرم ص ٢٥٨ ، تاريخ الطبري ج ٦ ص ٢٣٨- ٢٣٩ ، الكامل لابن الأثير ج ٤ ص ٢٤ . مقتل الحسين للخوارزمي ج ١ ص ٢٤٧ .

(٢) سورة آل عمران : الآية ١٤٦ .

(٣) يقصد الشهيد هنا تلك المجموعات التي تلطم على الصدور وتضرب بالسلاسل الحديدية على ظهرها في عزاء الحسين (ع) .

من الإيمـان والتمسك بـالعقيدة . إن أولئـك الذين يُـدركون مـدى أهميـة وجـود الأحاسيس الطبيعية النابعة من الإيمان والعقيدة حول أبطال الأمة العظام يعرفـون ما أريد قوله هنا ، ولا يجوز لنا إلغاء مثل هذه المظاهر الحسينية كما لا ينبغي إعلان الحرب على مثل هذه الأعمال بل علينا إصلاح هؤلاء وتوجيههم. وإصلاح مثل هذه الأحاسيس العظيمة والعظيمة جداً النابعة من محض التمسـك بالعقيدة والإيمان . إنّك لو صرفت المليارات من الدولارات لما كان بـاستطاعتـك خلق وتكوين مثـل هذه المشاعر بين الناس !!

أن يـأتي أحدهم ويصرف الأمـوال من جيبه الخـاص ويترك كـافـة أشغـالـه ويذهب ليحمل سلـسلة حديدية ويضرب بها على ظهره حتى يسوّد ظهره من شـدة الضرب على الحسين (ع) والدمع يسيل على خديه دون انقطاع أمرٌ لـه قيمة بـالغة ولا يجوز محاربته وإلصاق تهمة الوحشية به . إنّ إبـراز الأحاسيس الصـادقة بشـأن الأبطال والعظماء في التاريخ ليس عملاً وحشياً . إنّه يُخطىء فقط من زاويـة كونـه بهـذا العمل وبهـذه الطريقـة التي يُبرز بهـا إحسـاسـاته إنمـا يعرض بـطولـة الجنـاة ومظلومية ذلك البطل الذي يعشقه ويتعلق به . إنه لا يعـرف ولا يدري بـأنه مـا دام قد قرر أنْ يعرض الحادثة فعليه أنْ يعرض جانب الحماسة والملحمـة الحسينية منهـا، ويبرز للعالم ذلك الجانب النوراني المشرف لتاريخ عاشوراء .

ذلـك هو الـوجه المتمثـل بروح الحسـين بن علي (ع) . ولحسن الحظ يمكن القول إنّ مثل هذا الوعي قد بدأ يظهروينمو بـين الناس وإنّ الإنسـان ليرى بعض المجموعات التي أدركت هذا المعنى وعرفت واجباتها بهذا الخصوص .

إنّ الرجل الكبير تكون روحه روحاً ملحمية وروح حماسة ، سـواء عمل من أجل ذاته أو من أجل شعبه أو من أجل البشرية والإنسانية عـامة أو حتىٰ من أجـل أهداف تفوق مستوى البشر والإنسانية ذلك عندما يجعـل نفسـه خـادماً لـلأهداف الكلية للخليقة ويسميها رضا الله وبعبارة أخرى عندما يعمل المرء من أجـل المسار والهدف العام الذي وضعه الله سبحانه وتعالى لخلقه الذين أنشأهم أحسن الإنشاء فهذا هو طريق رضا الله .

إنّ الرجل الكبير والعظيم هو ذلك الرجل الذي تسري داخل روحه الحماسة ، ولا يمكن أن يكون غير ذلك ، فلولا روح الحماسة الجارية في شخصية الشاه (نادر إفشار) لما استطاع أن يطرد (الأفغان) من إيران ولا فتح الهند وهذه حماسة وملحمة بحد ذاتها . أما القول بأن أفعاله وأعماله قد تحولت إلى فرديّة وأصبح بالتالي عدواً لشعبه فإنّ ذلك أمر آخر .

الإسكندر هو الآخر لا بد وأنّ روح الحماسة كانت سارية كالأمواج في داخل شخصيته . كذلك الأمر مع الشاه إسماعيل الصفوي ونابليون بونابرت .

الإسكندر والشاه نادر والشاه إسماعيل كل هؤلاء عبارة عن إرادة كبرى وهمة عظيمة وحماسة كبيرة وملحمة عظيمة لكنها ليست مقدسة ، ذلك أنّ كل واحد من هؤلاء كان ينوي توسعة امبراطوريته الشخصية وتحقيق ذاته من خلال ابتلاع الآخرين وضم الشعوب والممالك الأخرى وإلحاقها بمملكته وبناءً عليه فإنك تراه بطلاً برأي أفراد شعبه مثلاً في نفس الوقت الذي يمثل رمز الجريمة بالنسبة لشعب آخر .

فالإسكندر بطل عظيم برأي اليونانيين لكنه مجرم برأي الإيرانيين . إنّه بطل لليوناني لأنه منح العظمة لبلاد اليونان وذلك عندما حطّم سائر القوى الأخرى وابتلع ثرواتها واستوعب عظمتها جميعاً وضمها تحت لواء علم اليونان . بينما هو برأي الشعوب المغلوبة والمقهورة لا يمكن أن يكون بطلاً . فنابليون بطل من أبطال فرنسا ، ولكنه هل هو كذلك بالنسبة إلى الروس والإنكليز ؟ كلا ، أبداً ، إنّ هؤلاء جميعاً يُمثلون مظهراً من مظاهر الحماسة لكنها الحماسة الفردية والذاتية ، وهي حماسة كبرىٰ وملحمة عظيمة لكنها ملحمة ذاتية عظيمة كذلك . وهم مظهر كبير لعبادة الشخصية وحب الذات (نعم فمقابل حب التسلط الصغير يوجد هناك حب تسلّط كبير في الدنيا) لكن هذه الصور الحماسية ليست صوراً مقدسة بتاتاً .

فالحماسة والملحمة المقدسة لها مميزات وصفات أخرىٰ سأعرضها عليكم : إنها مميزات لا يمكن للإسكندر ولنابليون أن يصبحا معها مظهراً من مظاهر الحماس

المقدس . فرمز الملحمة المقدسة هو ذلك الشخص الذي تعلو روحه إلى ما فوق ذاته وما فوق العرق القومي الذي ينتمي إليه شعبه والقارة التي تقع فيها بلاده . إنه ذلك الرمز الذي لا يمكن أنْ يرى شخصه في الميزان ، إنه لا يرى أمامه إلّا الحق والحقيقة وإذا لم نشأ التقليل من أهميته ينبغي لنا القول بأنّه يرى البشرية أمامه .

فالآية الكريمة التالية آية من آيات الحماس . قال تعالى : ﴿ **قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألّا نعبُدَ إلّا الله ولا نُشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله** ﴾[1] .

نعم ، فالدعوة واضحة ، وصريحة تعالوا يا من تدعون بأنكم أهل الدين! تعالوا لننسى ذواتنا وأنفسنا وشخصياتنا ولا نرى إلا عقيدة واحدة أمامنا ولنضع أمامنا هدفاً وغاية وفكرة واحدة فقط : « ألاَّ نعبُدَ إلاَّ الله » . ونلغي الاستغلال والاستعباد وعبادة العباد ونُطبّق العدل والمساواة بين بني البشر . « ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله » .

إنه لم يقل: ليتحد قومي وقومك مثلاً ويحاربا قوماً ثالثاً ، فمثل هذا الكلام لا مجال له هنا ، إذاً فإحدى مميزات قدسية أيّ ملحمة هو أن يكون هدفها مُقدساً وطاهراً ومنزّهاً كالشمس التي تُلقى بأشعة نورها على الكون كله وتُشرق بنورها بيوت العالمين جميعاً .

العلامة الثانية لقدسية مثل هذه النهضات والملاحم هي وقوعها في ظروف خاصة للغاية، أي في ظل أجواء لا يتوقعها أحد على الإطلاق بعبارة أخرى ترى أن أمر حدوثها يشبه انبلاج نور شعلة كبيرة في ظل جو مظلم وقاتم السواد للغاية وهو أشبه ما يكون بنداء العدالة الصارخ بوجه الاستبداد والظلم المطلق ، إنه حركة وسط السكون ، وحالة الرعب السائدة ، وهو ذلك الكلام والخطاب الهادف في ظل جو من الظلمة القاتلة .

---

(١) سورة آل عمران : الآية ٦٤ .

والمثال على ذلك هو في بروز ظاهرة نمرود وسيطرته على الأجواء قاطبة وإذا بالنهضة المقدسة نهضة إبراهيم عليه السلام تواجه هذه الظاهرة . ﴿ **إن إبراهيم كان أمةً قانتاً** ﴾[1] أو أن يظهر فرعون في ظاهرته الفرعونية الظالمة . ﴿ **إن فرعون علا في الأرض وجعل أهلها شيعاً يستضعفُ طائفةً منهم يُذبِّح أبناءهم ويستحيي نساءَهم**﴾[2] . لكنه يواجه موسى عليه السلام . أو كما حصل في عصر بعثة خاتم الأنبياء محمد (ص) عندما كانت الدنيا كلها تعيش في الظلام وفي جو من الفوضى والهرج والمرج وإذا بصوت ترعدُ له السماء يقول : « قولوا لا إله إلا الله تُفلحوا » .

لقد كانت الدولة الأموية قد عبأت كل القوى والإمكانيات إلى جانبها بما في ذلك قوة الدين . وعلى هذا الأساس قامت بشراء ذمم المُحدِّثين والرواة من ضعاف النفوس لوضع جملة من الأحاديث لصالح النظام الأموي . حيث يُقال مثلاً إنّ أحدهم قال : « إن الحُسين قُتل بسيف جدِّه »[3] والمقصود هنا واضح . فهو يُريد القول بأنّ الحسين قد قُتل بحكم دين جده ، ونحن نقول إنّ هذا القول لقول صادق في أحد معانية ذلك أنّ بني أمية استطاعوا استغلال الإسلام وتحريفه ثم استخدامه في تعبئة جمهور من العامة ممن ضعُف دينهم أو خبا نور إيمانهم حتى اندفعوا لمقاتلة الحسين تحت رايةِ الجهاد المُزيَّفة . وكما جاء في الحديث : « كُلٌّ يتقرب إلى الله عزّ وجلّ بدمه . . »[4] .

بل إنهم تمادوا في غيهم إلى درجة أنهم قاموا ببناء عدة مساجد للتعبير عن شكرهم لله في مساعدته لهم لإنجاز تلك المهمة ! فتصوروا درجة الظلمة والعتمة المحيطة !

في مثل هذه الظروف تنبلج الشعلة الحسينية ، وأيّ ظروف ! في ظروف كان

---

(١) سورة النحل : الآية ١٢٠ .

(٢) سورة القصص : الآية ٤ .

(٣) مقتل الحسين للمقرم ص ٦ والعبارة لأبي بكر ابن أبي العربي الأندلسي في العواصم ص ٢٣٢ .

(٤) بحار الأنوار ج ٤٤ ص ٢٩٨ .

فيها المرء لا يستطيع نقل أي حديث أو جملةٍ حول علي (ع) بل وحتىٰ أي حديث للنبي (ص) يخص علياً (ع) . حيث كان الواحد من شيعته عندما يُريد نقل قضية ما أو خطبة ما عن علي (ع) يذهب بصاحبه إلى مكان مقفل يشبه الصندوق ثم يُغلق الباب بإحكام وبعد أن يُحلّف الطرف الآخر الأيمان المُغلَظة على أنه لن ينقل هذا الحديث لأي أحدٍ ما لم يكن موثوقاً .

أما الميزة الثالثة لقدسية النهضة الحسينية فهي درجة الرشد التي تتصف بها النهضة ، والنظر الثاقب البعيد النظر لصاحب النهضة ، أي إنّ هذه الملحمة والنهضة إنما تتبلور قدسيتها في صاحب النهضة الذي يرى ما لا يراه الآخرون كما يقول المثل المعروف : « يرى في الآجرّ ما لا يراه الآخرون في المرآة » .

وهو بالتالي يرى ويلمس آثار حركته إذ إنّ منطقه هو فوق منطق الأفراد العاديين في المجتمع ، بل وهو فوق منطق العقلاء من أبناء الأمة . نعم فابن عباس وابن الحنفية وابن عمر وعدد آخر من رجال الجزيرة العربية يطلبون إليه جميعاً بنية خالصة عدم التوجه إلى كربلاء . وكانوا منسجمين مع منطقهم لكن الحسين (ع) كان يرى ما لايرون . فلا هم كانوا قادرين على إحساس مدى الخطر الذي وصلت إليه الحالة بمقدار حسّ الحسين (ع) له ، ولا كان باستطاعتهم إدراك الآثار الكبيرة التي ستترتب على مثل هذه النهضة في المستقبل ، لكنه عليه السلام كان يرى كل ذلك بوضوح . فهو قد قال عدة مرات : « والله إنهم سيقتلوني ووالله إنّه بقتلي ستنقلب أوضاعهم رأساً على عقب » . إنّها النظرة الثاقبة لهذا الرجل العظيم .

إنّ الحسين بن علي (ع) عبارة عن روح كبيرة وروح مقدسة ، وعندما تكبر الروح يتعذب البدن الذي يحملها ولكن ما أن تصغر الروح حتىٰ يرتاح البدن ويستقرّ ، وهذا حساب خاص بحد ذاته . أنْ يأتي ابن عباس وغيره وينهوا الحُسين (ع) عن الخروج أمرٌ لا يُفيد ، لأنّ روح الحسين (ع) لا تُجيز لصاحبها القعود والسكينة . يقول شاعر العرب الشهير المتنبي :

وإذا كانت النفوس كباراً　　تعِبَتْ في مُرادها الأجسامُ[1]

نعم فعندما تكبر الروح يضطر الجسم لأن يلحق بها ويتبعها وبالتالي يتحمل المشاق معها . لكن الروح الصغيرة هي التي تذهب نحو تحقيق رغبات البدن ، فتصبح طائعة لكل تعليماته ، والروح الصغيرة تراها منهمكةً أبداً في تهيئة لقمة العيش للبدن حتىٰ وإنْ تطلب الأمر الاستعانة بأساليب التملق والخنوع والمراءاة وهي تبحث عن السلطة والمقام حتى وإنْ تطلب الأمر ارتهان ناموس الإنسان وشرفه وضميره وهي جاهزة لتقبل كل أنواع الذل والتعاسة من أجل الحصول على الثروة والأثاث ووسائل الراحة والترفيه والنوم المستقر الهادىء .

لكن الروح الكبيرة تُطعم البدن خبز الشعير ثم تُنهضه وتقول له : أحي الليل حتى الصباح . إنّ الروح الكبيرة عندما ترى أي تقصير في أداء الواجب تأمر البدن على الفور بأنْ يذهب بالرأس إلى داخل التنور حتىٰ يحسّ بحرارته ومن ثم لا يُقصّر بعد ذلك في رعاية أمور اليتامىٰ والأرامل[٢] الروح الكبيرة تجعل صاحبها يطلب من الله أن يُقتل في سبيل الأهداف الإلهية وأهداف الروح الإنسانية الكبرى وعندما ينزل حدّ السيف على فرقه يشكر الله[٣] . وعندما تكبر الروح لا بد لبدن صاحبها أن يتعرض إلى ثلاثمائة جُرح في يوم عاشوراء ، شاء ذلك أم أبى .

وإنّ ذلك البدن الذي تسحقه حوافر الخيل إنما يدفع في الواقع غرامة تلك الروح الكبرىٰ ، غرامة الملحمة ، غرامة تقديس الحق ، غرامة روح الشهيد الصاعد . نعم لقد صدق المتنبي عندما قال :

وإذا كانت النفوس كباراً   تَعبت في مرادها الأجسامُ

فعندما تكبر الروح تقول للجسم بأنها تُريد أن تعطي للدم ثمناً وقيمة . أتعرفون من هو الشهيد ؟ ففي اليوم الواحد يسقط الكثيرون قتلىٰ كأن تسقط

---

(١)ديوان المتنبي ج ٢ ص ٢٦٧ طبع دار البيان . بغداد .

(٢) إشارة إلى علي عليه السلام وقصته المعروفة مع التنور واليتامى .

(٣) إشارة إلى علي عليه السلام حينما ضربه ابن ملجم وهو يُصلي صلاة الصبح حيث قال عليه السلام قوله الشهيرة : « فزت وربّ الكعبة »

طائرة ضخمة ويموت جميع ركابها فلماذا لا نقول عن هؤلاء القتلى بأنهم شهداء؟ولماذا كل هذه الهالة القدسية حول كلمة الشهيد ؟ ذلك أن الشهيد هو ذلك الإنسان الذي يملك روحاً كبيرة ، وروحه تملك هدفاً مقدساً يُقتل من أجل العقيدة ، إنه الإنسان الذي لم يكن يعمل لذاته إنّه الإنسان الذي خطا بخطواته في سبيل الحق والحقيقة والفضيلة . إنّ الشهيد يُثمّن دمه عالياً ويُقدره أحسن التقدير تماماً كما يُعطي صاحب المال قيمة لثروته عندما يستخدمها في سبيل الخير ولا يتركها مُجمّدةً في البنوك . حتى انّ الريال الواحد من ريالاته تصبح مساوية لمئات الألوف من ريالات الآخرين ، نعم فهو من خلال تحويل ثروته المُجمّدة إلى مؤسسة خيرية عامة نافعة ثقافية كانت أو دينية أو أخلاقية يكون بعمله هذا قد منح قيمة عاليةً لأمواله . والكاتب بدوره أيضاً عندما يكتب كتاباً علمياً مفيداً ويضعه في خدمة العامة يكون قد أعطى لفكره ثمناً عالياً ، والآخر عندما يضع ذوقه الفني في خدمة الناس ويُقدّم الصناعة والحرف المفيدة للبشرية ، يكون كذلك .

وهكذا ترى الشهيد يُقدّم دمه فداءً على طريق رفاه البشرية وراحتها ، فأي واحد هنا يكون الخادم الأكبر ؟

ربما تتصورون أنّ العلماء والمخترعين والمكتشفين والأثرياء هم الأكثر خدمةً للبشرية، كلا ليس هناك أحد خدم البشرية بمقدار ما خدمها الشهداء، لأنهم وحدهم هم الذين يفتحون الطريق للآخرين ،ويُهدون الحرية لأفراد المجتمع البشري ، إنهم الذين يوفرون ظروف وشروط العدالة للمجتمع البشري حتى يتمكن العالم من الانشغال بعلمه ، ويعمل المخترع براحة البال المطلوبة ، ويتاجر التاجر بتجارته ، ويذهب الطالب لتحصيل علمه وينشغل كل واحد بإنجاز عمله فهم الذين يخلقون الظروف الملائمة والمحيط المناسب للآخرين . مثلهم مثل القنديل والنور ، فلولا القنديل والنور والضياء ماذا كان بإمكاني وإمكانك أن نفعل ؟

فالقرآن الكريم يُشبه الرسول الأكرم (ص) بالضياء والنور ، فلا بد للنور أن يوجد أولاً حتى يزول الظلام وينشغل كل بأعماله .

إنه ليس ابن سينا من كتب القانون للبشرية ، وهو ليس محمد بن زكريا الحاوي أيضاً . إنه ليس ذوق الشاعر الإيراني سعدي ذلك الذي يظهر في ديوانه (بوستان وگلستان) وما صدر عن مولوي ليس له أيضاً . إنه ليس باستطاعة هؤلاء جميعاً أن يُنتجوا شيئاً لولا بركة دماء الشهداء وظلالهم الوارفة على رؤوس البشرية .

الشهداء هم الذين أسسوا وبنوا تلك الحضارة الإسلامية العظيمة وهم الذين أزالوا الموانع من طريق تقدم البشرية ، وهم الذين أشرقوا كالقناديل في الظلمات وضحوا بأنفسهم لإضاءة الطريق . وهم الذين كانت حياتهم ملحمة إلهية شاملة ، وجودهم كله يعجُ بطلب الحق ، وتقديس الحق ، وظلوا كذلك في حياتهم حتى تمكنوا من تثبيت علم التوحيد في الدنيا ، وهو يرفرف اليوم بفضلهم .

إنهم صوت العدالة الدائم ، صوت الحرية والتحرر . فأنا وأنت اللذان نجلس هنا الآن مدينان لقطرات دمائهم ، مدينان لملاحمهم ، فالحسين بن علي (ع) كان شعلة حماسية شاملة .

إنَّ علماء النفس لا سيما أولئك الذين يهتمون بكتابة السيرة يسعون على الدوام من أجل اكتشاف مفتاح شخصية كل عَلَم من الأعلام حتى يتسنى لهم فهم روحيته .

ولذلك فهم يقولون إنَّ لكل شخص مفتاحاً خاصاً يُطلقون عليه مفتاح الشخصية وإذا ما تم اكتشافه فإنه من السهل عندئذٍ فهم سيرة حياة ذلك الشخص كلها . لكن اكتشاف مفتاح شخصية الأفراد بالطبع أمر صعب للغاية لا سيما إذا كانوا من نوع الشخصيات العظيمة . يقول عباس محمود العقاد المفكر المصري الشهير في كتابه (عبقرية الإمام علي) : « لقد وجدت أنَّ مفتاح شخصية علي هو في فروسيته . فعلي رجل تملأ حياته كلها روح الرجولة والفروسية سواء في ميدان الحرب أو في محيط العائلة ـ في محراب الصلاة أو في مقام الحكم أو في أي مكان كان . نعم فالفروسية تعني وقفة الرجولة والإباء وهي ما فوق الشجاعة » .

فالعقاد إذن يرى أن مفتاح شخصية علي هو الرجولة . وهـذا ما اكتشفـه في شخصية علي الملا الرومي قبل حوالي سبعمائة عام عندما قال : « إنني أرى في عـلي شيئاً هو ما فوق الشجاعة » .

ونحن إذ نطالع سيرة علي ترانا نتـوقف مثلاً عنـد تلك القصة الشهـيرة التي حصلت له مع عمرو بن ود العامري وهي : إنه لما أوقعه عـلي على الأرض وتقـدم نحوه ليقتله ، إذا بذلك الرجل يبصق بوجه علي فما كان من علي إلا أن رجع قليـلاً إلى الوراء ، ثم عاد لتنفيذ المهمة مجدداً وعندها سأله ذلك الرجل : ولماذا لم تقتلني منذ البدايـة ؟ قال لّما كنت قد وقعتُ تحت تـأثير الغضب الشخصي لم أرد تحـريك يدي نحو رأسك وتأثير الغضب الشخصي لا يزال عندي فيكون لغضبي الشخصي تـأثير في قتلك ولأنني أردتُ قتلك خـالصاً في سبيـل الله وتحقيق الأهداف العـامـة للخلق تراجعت قليلاً إلى الوراء لإزالة مفعول الغضب الشخصي أولاً .

الشاعر (المولوي) المعروف يصف أمير المؤمنين (ع) في معرض هذه الواقعة ببيتـين من الشعـر رائعين ، بلغ فيهـما ـ كـما أرى ـ حـدّاً في الصـدق لا يـدانى ، ومضمونهما :

كنت فـرداً وفي العـدالـة حقّـاً ... بـل لسـانـاً لكـلّ عـدلٍ وحقٍّ
ففي الشجـاعـة مـن أسـود الله ... وفي المـروءة . . ذا بـعـلم الحـقٍّ

وهذا عين ما توصّل إليه ذلك الرجل المصري إذ قال : إن مفتـاح شخصية علي (ع) يكمن في رجولته ومروءته وفروسيّته .

الحقيقـة أنّه ليس من السـهـل عـلى الإنسـان الادّعـاء بـأنـه اكتشف مفتـاح شخصية امرىء مثل علي أو الحسين بن علي (ع) وأنـا من جهتي لا أتجرأ أنْ أقـول مثـل هذا الكـلام ، لكنني أستطيـع القول بـأني وفي حدود معـرفتي للحسين (ع) وتاريخ حياته الذي اطلعت عليه وخطاباتـه وأقوالـه القليلة[1] للأسف الشـديد ، وفي حـدود دراستي أيضـاً لـواقعـة عـاشـوراء التي سجّلهـا لنـا التـاريـخ بـدقـة

(١) السبب في ندرة أقوال الحسين عليه السلام هو عصر الاختناق والقمع والرقابة الأموية الشديـدة التي كانت تمارس بحق علي وأبناء علي (ع) .

والحمد لله ومن خلال وصايا ونصائح وتوجيهات الحسين (ع) المختلفة التي اطلعتُ عليها ، أستطيع القول بأنني أعتقد بأنّ مفتاح شخصية الحسين (ع) يبرز ويتبلور في حس الحماس والحس الملحمي ، في عظمته وصلابته وشدة بأسه وصموده وتقديسه للحق .

إنّ الأحاديث التي تروى عن الحسين بن علي (ع) نادرة ، ولكن المقدار المتوفر يدلُ على هذه الروح العالية . لقد طُلب من الحسين بن علي (ع) يوماً أن ينقل أو يروي حديثاً سمعه بنفسه عن رسول الله (ص) . لاحظوا هنا انتخاب الحسين لنوع الحديث النبوي ، إنّ هذا الانتخاب بحد ذاته يُحدِّثك عن روحيته وشخصيته المتميزة .

قال الحسين عليه السلام : سمعتُ من رسول الله (ص) أنه قال : « إنّ الله تعالى يُحبُ معالي الأمور وأشرافها ويكرهُ سَفَاسِفها »[1] .

انظروا إلى الرفعة والعظمة التي يتميز بها الإمام فهو عندما ينتخب الحديث النبوي لا يقع اختياره إلاّ على حديث الروح العالية . في الواقع إنه يُبرز شخصيته بهذا الحديث . لقد وصلتنا بعض أبيات من الشعر نُسبت إلى الحسين (ع) تتجلى فيها كذلك هذه الروح الحسينية :

سبقتُ العالمين إلى المعالي ... بحسن خليقةٍ وعلو همة
ولاح بحكمتي نور الهُدى في ... ليال في الضلالة مُدلهمة
يُريد الجاحدون ليُطفئونا ... ويأبىَ الله إلاّ أنْ يتمّه[2]

إضافة إلى بعض الأقوال الأخرى التي وصلتنا منسوبة إلى الإمام الحسين (ع) أيضاً وفيها نفس هذه الروح والهمة العالية ، وهي لا ترتبط بواقعة عاشوراء بل إنها قيلت قبل ذلك . هناك حديث آخر يُنقل عن الحسين (ع) يقول فيه : «موتٌ في عزٍ خيرٌ من حياةٍ في ذلٍ » . وآخر يقول فيه : « إنّ جميع ما طلعت

---

(1) جامع الصغير ج ١ ص ٧٥ .

(2) بحار الأنوار ج ٤٤ ص ١٩٤ . (ولعل التعبير : ليطفئوه ، وليس ليطفئونا ، فيعود الضمير إلى النور) .

عليه الشمس في مشارق الأرض ومغاربها ، بحرها وبرها ، وسهلها وجبلها ، عند ولي من أولياء الله وأهل المعرفة ، بحق الله ، كفيء الظلال »[1] .

وهنا بالذات تكتشف اختلاف المرء صاحب الحماس الرباني عن غيره من الأشخاص . إلى أن يضيف عليه السلام قائلاً : « ألا حُرٌّ يدعُ هذه اللُّماظة لأهلها »[2] . أين هو ذلك الرجل الحر الذي ينظر إلى الدنيا وما فيها نظرته إلى اللُّماظة ؟ فالذي يُريد لنفسه أن تكون عابدة ساجدة ولا تطمع إلا برضا الله ولا يُشبعها إلا العبودية لله وحده لا ترى الدنيا وما فيها إلاّ لُماظة ، فهل تدري ما اللُّماظة ؟ هي بقايا الأكل في الأسنان التي عادةً ما يُخرجها المرء بعود الخلال المنظِّف للأسنان ويرميها جانباً . فيزيد ومُلكه والدنيا وما فيها مثل اللُّماظة في منطق الحسين (ع) ، ثم يقول لهم أيها الناس إنكم لن تجدوا غير الله سبحانه وتعالى في هذه الدنيا يستأهل أنْ تُضحوا بأرواحكم وأنفسكم في سبيله . فلا تبيعوا أنفسكم لغير الله وكونوا أحراراً ولا تكونوا مرتزقة تابعين .

حديث آخر للإمام الحسين يشرح فيه طبيعة الناس وصفاتهم التي تميز أغلبهم مهما تبجحوا وادعوا : « الناسُ عبيد الدُنيا والدينُ لَعقٌ على ألسنتهم يحوطونَهُ ما دَرّت معائِشُهم فإذا مُحّصوا بالبلاء قل الديّانون » .

عثمان بن عفان يُبعد أبا ذر الغفاري ويُعلن عدم جواز مشايعته وتوديعه من قبل أحدٍ لأنه مُطارد من وجه العدالة الحكومية ! لكن علياً عليه السلام لا يُبدي اهتماماً لهذا البلاغ الخليفي ويذهب هو والحسن والحسين (عليهم السلام) ويودعون جميعاً أبا ذر ويشايعونه . نعم وكل واحد منهم عنده حديث مع الغفاري . والحسين بن علي (ع) هنا عنده حديث في هذا المجال تبين فيه ظلال روحه .

إنّ أبا ذر الغفاري رضوان الله عليه من شيعة علي وله من العمر بمقدار عمر علي عليه السلام وربما أكثر أيضاً ولذا فإن الحسين (ع) يُناديه : عمي العزيز ! ويقول له نصيحتي لك هي التالية : « اسأل الله الصبرَ والنّصرَ ، واستعِذ به من

(١، ٢) لمعة من بلاغة الحسين نقلاً عن (نفس المهموم) للحاج الشيخ عباس القمي .

الجشع والجزع »[١] . نعم فهو يوصي أبا ذر بعدم الرضوخ للضغوط وتحمل أنواع الظلم ورفض الاستسلام وعدم اليأس والجزع .

فما أكبر هذه الروح العالية العظيمة التي تتجلى فيه باستمرار والتي يجهلها أغلبنا ويغفل عنها ، عودوا إلى حديثه الأول مرة أخرى وتأملوا فيه : « خُطَّ الموتُ على وِلدِ آدم مَخَطَّ القِلادةُ على جيْد الفتاة وما أولهني إلى أسلافي اشتياق يعقوب إلى يوسف »[٢] .

في الطريق إلى كربلاء يأتي إليه البعض ويحاول منعه من التوجه إلى كربلاء ويقول له بأن الحالة خطيرة فيرد عليه الحسين (ع) بهذه الأبيات من الشعر :

سأمضي وما بالموت عارٌ على الفتى	إذا ما نوى حقاً وجاهد مُسلما
وواسى الرجال الصالحين بنفسه	وفارقَ مثبوراً وخَالَفَ مُجرما
أُقَدِّم نفسي لا أريدُ بقاءها	لتَلقى خميساً في الهياج عَرمرما
فإنْ عِشْتُ لم أندَمْ وإن متُ لم أُلَمْ	كفىٰ بك ذُلَّاً أنْ تعيش وتُرغما[٣]

إنكم تطلبون مني عدم الخروج والذهاب . لكنني سأمضي وتقولون إنني سأواجه خطر الموت ، وهل موت الحر عار ؟ أبداً ، فالموت يكون عاراً عندما يكون الهدف دنيئاً ويكون الإنسان قد قُتل من أجل الرئاسة والسيادة فيقولون عندئذ إنه لم يصل إلى هدفه ، لكن الموت ليس عاراً بالنسبة إلى ذلك المرء الذي يُقاتل من أجل إعلاء كلمة الحق ذلك أنه يكون قد مضىٰ على طريق سبقه إليه الصالحون وعباد الله الأخيار .

---

(١) الغدير ج ٨ ص ٣٠٢ .

(٢) بحار الأنوار ج ٤٤ ص ٣٦٦ اللهوف ص ٢٥ . مقتل الحسين للخوارزمي . نفس المهموم ص ١٠٠ . ملحقات إحقاق ج ٢ ص ٥ الحق ج ١١ ص ٥٩٨ . كشف الغمة ج ٢ ص ٢٩ .

(٣) في رحاب أئمة أهل البيت ج ٣ ص ٩٧ . مناقب ابن شهر آشوب ج ٤ ص ٦٩ . مقتل الحسين للمقرم ص ٢١٧ . بحار الأنوار ج ٤٥ ص ٢٣٨ . إرشاد الشيخ المفيد ص ٢٢٥ لقد ذكر البيتين الأول والثاني فقط في كتاب أعلام الورى في الصفحة ٢٣٠ كما أن البيت الرابع لم يذكر في بعض الكتب المذكورة أعلاه .

إذن عندما يكون المرء قد اختار طريق مخالفة شخص هالك تعيس مجرم مثل يزيد فلا مانع من الموت في هذا الطريق . وأنا إنْ عشتُ فسوف لن يأتي أحد ويقول لي لماذا بقيت حياً . وإنْ مُتّ سوف لن يلومني أحد عندما يعرف الهدف الذي من أجله قُتلتْ . إنها الملحمة الحسينية مرة أخرىٰ.وفي الطريق إلى كربلاء يتحدث إلى أصحابه مرة أخرىٰ فيقول عليه السلام : « ألاّ ترون إنّ الحق لا يُعمَلُ به وإنّ الباطِلَ لا يُتناهى عنه »[1] إلى أن يضيف : « إني لا أرى الموت إلاّ سعادةً ولا الحياة مع الظالمين إلاّ برما »[2] .

إنني لا أستطيع الآن الخوض بالتفصيل في كل خطب الحسين (ع) فالمجال لا يسمح بذلك ولكنني أتحدث قليلاً عن ليلة عاشوراء .

لو واجهت أية شخصية تاريخية أخرى ما واجهه الحسين بن علي (ع) في ليلة العاشر من محرم حيث كانت العوامل المساعدة في انتصاره معدومة ، والطرق الدنيوية كلها قد سُدّت في وجهه وصار يقيناً أمر حتفه وحتف أصحابه على يد العدو . في مثل هذه الظروف كان لا بد لأي امرىء أن يتوجه بلومه وعتابه على الدهر وهذا ما يثبته التاريخ . فأغلب الناس عندما تواجه مثل تلك الظروف المُثبِّطة والقائمة تقول مثلاً : أُفٍّ لك من دهر . ويا للأسف فالدهر لم يُساعدني أو لم يقف معي . يقولون إن نابليون عندما واجه مثل هذه الحالة في موسكو قال : للأسف فإن الطبيعة قد خالفتني لساعات عدة فقط . وآخرون ربما كانوا يضربون الكف بالكف ويقولون : سوّد الله وجهك أيها الدهر اللعين لما فعلته بي . . . الخ .

لكن الحسين بن علي (ع) يجمع أصحابه وتراه وكأن روحه قد تلألأت بين جنبيه لرؤية علامة التوفيق والنجاح ويقول مخاطباً صحبه الميامين : « أثني على الله أحسن الثناء وأحمده على السّراء والضّراء ، اللهم إني أحمدُك على أن أكرمتنا

(١، ٢) بحار الأنوار ج ٤٤ ص ٣٨١ ، تحف العقول ص ١٧٦ . اللهوف ص ٣٣ . مقتل الحسين للمقرم ص ٢٣٢ . تاريخ الطبري ج ٦ ص ٢٢٩ . تاريخ ابن عساكر ج ٤ ص ٣٣٣ . كشف الغمة ج ٢ ص ٣٢ .

بالنبوة ، وعلّمتنا القرآن وفقّهتنا في الدين »[1]

إنّه يتحدث وكأنّ الشروط المساعدة كافة قد اجتمعت لـه . نعم وهو كذلك لأن الـذي يتشاءم في مثـل هذه الـظروف هو ذلـك الساعي إلى الـسلطة الـدنيويـة فقط .

أما المرء الذي يُريد الحكم والحكومة في سبيل الحق والحقيقة ويعرف أنه على هذا الطريق سوف يمضي ، فإن مثل هذه الظروف مساعدة له . فهو لا يرى سوى الحمد والشكر . ولذلك فإن أحد شعارات الحسين (ع) في يوم عاشوراء هي :

المـوتُ أولىٰ من ركـوب العــار والعـارُ أولىٰ من دخـولِ النارِ[2]

لقد ظل ، حتى آخر لحظة من لحظات حياتـه ونشاطـه وحركـاته وسكنـاته وقوله ، مثـلاً وشاهــداً عـلى عبادة الحق تعـالى ونموذجـاً للمطالبـين بالحق ومـوجاً يتصاعد بالحماس .

في ليلة التاسع من محرم يعرضون عليه للمرة الأخيرة : الموت أو التسليم ! فيرد عليهم : « والله لا أعطيكم بيدي إعطاء الذليل ولا أفِر فِرار العبيد »[3] .

وفي الساعات الأخيرة من حياتـه ظلّ كـذلك أيضـاً . فلا تُصـدِّقوا أنّ أبـا عبد الله الحسين سلام الله عليه قد قال هذه الجملة : اسقوني شربـةً من الماء فقـد نشطت كبدي . فـأنا من جهتي لم أعـثر في الكتب على مثـل هذه الجملة والحسـين ليـس ممن يـطلبون مثـل هذا الـطلب . إنه ذلـك الإمـام الـذي يقف في مـواجهـة معسكر العدو وهو يُنادي : « ألا وإنّ الدَّعيَّ ابن الدَّعيَّ قـد ركَز بـين اثنتين بـين

---

(1) بحار الأنوار ج ٤٤ ص ٣٩٢ . مقتل الحسين للخـوارزمي ج ١ ص ٢٤٦ . مقتل الحسـين للمقرم ص ٢٥٧ . إرشاد الشيخ المفيد ص ٢٣١ . أعلام الورى ص ٢٣٤ .

(2) بحـار الأنوار ج ٤٥ ص ٥٠ . مـناقب ابن شهر آشـوب ج ٤ ص ٦٨و١١٠ . اللهوف ص ٥٠ . كشف الغمة ج ٢ ص ٣٦ .

(3) الإرشاد للشيخ المفيد ص ٢٣٥ . مقتل الحسين للمقرم ص ٢٨٠ .

السّلة والذِّلّة وهيهات منا الذلة ، يأبى الله ذلك لنا ورسولُهُ والمؤمنون وحُجورٌ طابت وطَهرت »[1] .

نعم فجدي رسول الله (ص) ، والحجر الطاهر لأهل بيت النبوة يأبىٰ ذلك ولا يرضى لنا الذلة ، وهيهات منّا الذلة . إنها الملحمة ، لكنها ليست من تلك الملاحم الشخصية أو القومية . فليس فيها حب الذات وتقديسها بل إنها عبادة الله خالصة . إنه يقاوم حتىٰ اللحظة الأخيرة في يوم عاشوراء إلى أن يفقد القدرة البدنية تماماً . في تلك اللحظة يضع أحد الرُماة رمحاً مسموماً ويوجهه إلى صدره الطاهر الشريف فيخر صريعاً دون اختيار فماذا تراه يقول في تلك اللحظة ؟ فهل يستسلم للذل ؟ أو يرجو شيئاً من العدو ؟ أبداً فهو بعد أن أتم مرحلة الحرب والمقاومة يُوجه نفسه كاملة لله سبحانه وتعالى باتجاه القبلة التي ما انحرف عنها لحظة ويقول : « رضاً بقضائِك وتسليماً لأمرِك ولا معبودَ سواك يا غياث المستغيثين »[2] . هذه هي الحماسة والملحمة الإلهية ، الملحمة الإنسانية الرائعة .

ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم
وصلى الله على محمدٍ وآله الطاهرين .

○ ○

---

(١) اللهوف ص ٤٧ . مقتل الحسين للخوارزمي ج ٢ ص ٧٦ . تاريخ الشام لابن عساكر ج ٤ ص ٣٣٣ . نفس المهموم ص ١٤٩ . ملحقات إحقاق الحق ج ١١ ص ٦٢٤ـ٦٢٥ . مقتل الحسين للمقرم ص ٢٨٧ . تحف العقول ص ١٧٤ .

(٢) ورد شبيه لهذه العبارة في القيام للزخار ص ٤٦٣ . ومقتل الحسين للمقرم ص ٣٥٧ .

المحاضرة الثالثة

النهضة الحسينية وتبلور الشخصية المستقلة للمجتمع الاسلامي

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين باريء الخلائق أجمعين والصلاة والسلام على عبد الله ورسوله وحبيبه وصفيه سيدنا ونبينا ومولانا أبي القاسم محمد صلى الله عليه وآله وسلم وعلى آله الطيبين الطاهرين المعصومين . أعوذ بالله من الشيطان الرجيم :

﴿ يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لِما يُحييكم ﴾[1] .

كثيراً ما يتردد على لساننا القول بأنّ الحسين بن علي (ع) قد أحيا بتضحياته رسالة الإسلام من جديد ، وسقىٰ شجرته بدمائه الزكية الطاهرة . ونقرأ في زيارته كذلك : « أشهد أنك قد أقمت الصلاة وآتيت الزكاة وأمَرْتَ بالمعروف ونهيت عن المنكر وجاهدت في الله حق جهاده »[2] .

ولا بد لنا أن نتساءل هنا عن العلاقة الموجودة بين شهادة الحسين بن علي (ع) وبين استنهاض قوة الإسلام ، وإحياء أصول الدين وفروعه ؟ ذلك أنّ مجرد سيل الدم لوحده لا يمكن أن يكون منشأ لمثل هذه الأمور . فما هي العلاقة

---

(١) سورة الأنفال : الآية ٢٤ .

(٢) مفاتيح الجنان الزيارة الخاصة بالحسين في أيام عيد الفطر والأضحى .



حقاً بين نهضة الحسين ، وقيامه وشهادته ، وهذه الآثار التي نتحدث عنها ونـدّعي حصولها وهو ما يـبرهنه التـاريخ بـالفعل ؟ إن إدراك هـذا الموضـوع لا يتم لنا إلاّ بوضع المبحثين الماضيين على مَد نظرنا تماماً .

فلو كـانت شهادة الحسـين بن علي (ع) مجـرد حادثـة حزن أو محض مصيبـة أو ليست أكثر من عملية إهراق لدم بـريء من الأبريـاء وبتعبير آخـر ليست سوى عملية هدرٍ لـدمِ شخصية من الشخصيات الاجتماعية وإن كانت بارزة جداً ، فإنه لا يمكن لها أن تُعطي كل تلك الآثار .

إن شهادة الحسين بن علي (ع) لم يكن بمقدورها توليـد كل تلك الآثـار لولا كونها وكما عبّرنا عنهـا سابقـاً قد شكلّت تعبيـراً للنهضة أو ملحمـة إسلاميـة وإلهية كبرىٰ . إنها لم تكن أبداً عبارة عن قصة وواقعة كارثيّـة ولا محض عملية جـريمة أو ظلم ارتكبه عدد من الظلمة والجناة ، بل إنها بـطولة عـظيمة ، وعـظيمة جـداً ، رسم معالمها ذلك الطرف الذي ارتكبت بحقه الجرائم .

إنّ شهادة الحسين بن علي نفخت روحـاً جديدة في الإسـلام . وكما قلنـا في (المحاضرة الأولى) فإنّ الأثر النـاتـج عن أية خـطبة أو واقعـة أو شخصية حـماسية نراه في الواقع في موج الحركة الذي ينبعث في الروح وفي الحمية والغيرة التي تـتـولد معها والشجاعة والصلابة المترتبة على ذلك . إنها تعبير عن حركة الـدماء وغليـانها في الأبدان وخروج الأجسـام من حالة الكسـل والخمول إلى عالم النشـاط والفعاليـة وخفة الحركة . فهناك عمليات سيل للدماء كثيرة تحدث هنا وهنـاك لكنها لّمـا كانت لا تحمل معها إلاّ بُعد النزيف الدموي فإنّ أثرها يقتصر على إيجاد الرُعب والهـول في نفـوس الناس وإضفـاء مزيـد من الوحشـة عليهم وخنق للأنفـاس في الصدور وسلب للقوة الشعبية .

في حين إنّ هناك عمليـات استشهاد في الـدنيا تخلق معهـا وتولـد رونقاً من الضيـاء والصفاء للمجتمـع . وكما نـرى بوضـوح على المستـوى الفردي كيف أنّ بعض الأعمال تُكدِّرُ قلب الإنسـان في الوقت الـذي تُضيء بعض الأعمال الأخـرى قلبه وتصقل روحه ، وتدخل إليها الصفاء . وهذا ما ينطبق تمـاماً عـلى المجتمع ،

فبعض الظواهر الاجتماعية تُسبب الكدورة للروح الاجتماعية ، كما تـوجد الـرعب والخوف في الناس ، وتخلق حالة من الإحسـاس بالأسر والعبـودية ، لكن بعضهـا الآخر يمنح الصفـاء والنورانيـة والإشراق للمجتمع كـما تُزيـل الخوف من صفـوفه وتطرد كل إحساس بالأسر والعبودية لديه ثم تشحن النفوس بالجرأة والشهامة .

وهـذا ما حصـل بالضبط بعـد استشهاد الإمـام الحسـين (ع) حيث انبعث الإسلام برونق جديد . وهذا الأثر النوراني إنما بـرز في المجتمع من خـلال حركـة المقاومة والصمود الحسينية التي أحيت روح المسلمين وأزالت عنهم حس العبوديـة والأسر التي كـانت سائـدة منذ أواخـر عصر عثمان وفي أثنـاء دورة حكم معـاويـة وكسرت حاجز الخوف المتزايـد لديهم . بعبـارة أخرى أعـادت صياغـة الشخصية للمجتمع الإسلامي .

لقد وضع الحسين يده على الجُرح ـ كما يقول المثل ـ أي إنّه بعمله هذا حرّك حس الشخصيـة في المجتمع ، وهـذه المسألـة مهمة للغـاية إذ ليس هنـاك رأسمال أثمن وأغلى من هذا الرأسمال لأي مجتمعٍ كان ، أنْ يحسّ المجتمع بوجود شخصية خاصة به وأنْ يتولد عنده إحساس بالعزة والكرامة وامتلاك لقيم مثالية تخصـه دون غيره من المجتمعات الأخرى بحيث إنه يصبح مكتفياً ذاتياً وعندما يصل مجتمـع ما في سُلم التطور إلى مثل هذه الحالة ، أي أن تصبح لديه فلسفة مستقلة في الحياة ، يستطيع المباهاة بها ، الفخر بحيـاته المستقلة القـائمة عـلى تلك الفلـسفة ، عنـدها يمكن القـول بأنّ هـذا المجتمع استـطاع الحفاظ عـلى حماسـه وملحميته ذلـك أنّـه استطاع أن يحافظ على فلسفته المستقلة الخاصة النابعة من كيانه ووجـوده وأنْ يؤمن بهـا ويعتقد بـأنها هي الأفضل والأرقى والأحسن ، وأن من حقـه التباهي بهـا بين الأمم .

تعساً للمجتمع الذي يفقد مثل هذا الإحساس لأنه سيصبح لا شك مجتمعاً مريضاً ، وبالطبع فإن هذا الإحساس المقصود هنا غير ذلك الحس المنحـرف الذي يتمثل بالغرور والأنانية وحب الذات وشهوة التسلط والطغيان .

إنّ المجتمعـات التي تفقد مثـل هذه الأخـلاق القـائمـة عـلى حس امتـلاك

الفلسفة المستقلة الخاصة بها ، وضرورة الاعتماد عليها ، أو ترفض الإيمان بوجود فلسفة مستقلة خاصة بها ، فإنها سرعان ما تفقد كل شيء ، في حين يبقى باستطاعة المجتمعات التي تحافظ على مثل هذه العقيدة ، حتى وإن سلبوا منها كل شيء ، أن تصمد وتقف على قدميها ، وبعبارة أخرى يمكن القول بأنّ القوة الوحيدة التي تمنع ذوبان أي أمة في أمة أخرى أو أي فرد في فرد آخر هي القوة النابعة من هذا الخُلُق العظيم خُلُق امتلاك الشخصية المستقلة .

من المعروف إن الألمان قد اعترفوا بخسارة كل شيء في الحرب الكونية الثانية ما عدا شيء واحد هو شخصيتهم المستقلة ، ولمّا كُنّا ، كما يقول الألمان ، لم نفقد هذه الشخصية فإننا استطعنا الحصول على كل شيء مرة أخرى وقد صدقوا بالفعل . ولكن لو حدث أن أمة ما ظلت تملك كل شيء وخسرت شخصيتها فإنها سوف لن تستطيع الحفاظ على أي شيء مما تملك وسيكون مصيرها الذوبان في الأمم الأخرى شاءت ذلك أم أبت .

تعساً لحالة الاستلاب هذه وهي الحالة التي تسود مجتمعنا اليوم بكل أسف .

لقد قرأت لإقبال اللاهوري ـ الشاعر والفيلسوف الباكستاني العظيم ـ قوله إنّ موسوليني قال : « على الإنسان امتلاك الحديد حتى يمتلك الرغيف » .

أي إنك لو أردت امتلاك الرغيف لا بد لك من امتلاك القوة . لكن إقبال يقول مقابل ذلك : هذا الكلام ليس صحيحاً . فأنت لو أردت امتلاك الرغيف عليك أن تكون كالحديد ، فهو لا يريد لنا أنْ نمتلك الحديد بل أنْ نكون كالحديد ، أي أنْ تملك شخصية صلبة كالحديد . إنه يقول بضرورة امتلاك الشخصية وعندها لا حاجة للتوسل بالزور والقوة . ولا حاجة للاستعانة بالسلاح . وبذلك تسقط فلسفة موسوليني التي تريد للإنسان أنْ يتوسل بالسلاح *من أجل امتلاك الرغيف . وفي مقابل ذلك تسود فلسفتنا التي تُفيد : تحصل على* ما شئت عندما تكون كالحديد ، كالفولاذ . وتمتلك الشخصية الصلبة ، وحس العزة والفخار . إنّ الأمة التي تفقد الإيمان بفلسفتها الخاصة المستقلة للحياة

وتصبح مرعوبة من قبل أمة أخرى ، تصبح تابعة لتلك الأمة في كل تفكيرها وتتصور أنّ الآخرين هم الذين يفكرون بدلاً عنها ، وأنها في الأساس غير قادرة على الحكم والبت في قضايا الحياة بدون الآخرين .

وعند ذلك يصبح كل أمر عندها مقبولاً ما دام قد أصبح « موضة العصر » أو ظاهرة القرن المعاصرة أو إنها الفكرة المقبولة في المجتمع الأمريكي أو المجتمع الأوروبي وفي مثل هذه الحالة فإن المنطق لم يَعُد له دور في حياة هذه الأمة .

قبل حوالي الستين قرأت لأحد المتجددين الإيرانيين كتاباً يذكر فيه أنه عندما كان يعيش في (لندن) حصلت حادثة لطيفة وملفتة للنظر مفادها أنّ بنت سفير بريطانيا السابق في موسكو وهو لا شك من الشخصيات الكبيرة والمرموقة في المجتمع البريطاني عشقت رجلاً أسود ثم تزوجته الأمر الذي أثار ضجةً كبرى في لندن ، فكيف يمكن تصور زواج بنت بيضاء من رجل أسود ، وبنت أحد الشخصيات البريطانية المرموقة ، حتى تحول الأمر إلى حديث دائم للصحف اليومية ، ولكن إحدى الصحف كتبت تقول : « ولماذا كل هذا العجب وهذه الضجة ؟! فالعالم يتجه نحو المساواة والمجتمعات اليوم تؤمن بفكرة المساواة والإخاء بين الألوان وترفض التمييز العنصري بالإضافة إلى أن ديناً كبيراً من أديان العالم كالإسلام كان قد رفض التمييز بين البشر على أساس الألوان قبل أربعة عشر قرناً مضت ! »

ويضيف الكاتب الإيراني أنه صادف في تلك الأيام أن حضر أحد المجالس التي كان يشترك فيها عدد من الإنكليز إلى جانب عدد من الشباب الإيراني المقيم في لندن ، ولمّا تطرق الحاضرون إلى هذه القصة وكيف أنّ إحدى الصحف البريطانية كتبت عن الإسلام ورأيه في المساواة بين الأسود والأبيض قبل أربعة عشر قرناً قام أحد الإنكليز من الحاضرين في المجلس وقال ، نعم فدين وسخ كالإسلام لا بد له أن يحمي الوسخين (المقصود السود) .

ويضيف الكاتب الإيراني هنا ، إنّ اثنين من الشباب الإيراني الحاضر شعرا بخيبة أمل كبيرة وصارا يندبان حظهما ويتساءلان عن سبب انتمائهما إلى مثل هذا

الدين الذي يُسبب لهما إحساساً بالانكسار والذل ! ثم صارا ينقلان هذه الصورة البائسة ! من مجلس إلى مجلس ويصرّحان بأنّ الدين الإسلامي دين الأوساخ لأنه يحمي الأوساخ ويتساءلان كيف أنّ الإسلام لم يستطع إدراك الفرق الموجود بين الرجل الأبيض والرجل الأسود !

إن هذا يُسمى استلاب الشخصية ، فهؤلاء لم يكن لهم أنْ يفكروا كذلك بل يذوبوا في المحيط الذي يدور حولهم ، فلو كان عندهم ذرة من الاستقلال الفكري لكانوا ردّوا صاحب هذا الرأي رداً محكماً ، وأثبتوا له تفاهة حديثه ، وتخلّف عقليته ، لأنه ما معنىٰ أن يكون للون والبشرة أي دور في التمايز في فضائل البشر ! وأنْ يصبح مثل هذين الشابين مخذولين ومكسورين ! إنه مرض استلاب الشخصية فقط لأنّ هذه الحالة هي التي تخلق فكرة القول بأنّ ما يقوله الإفرنج لا بد وأن يكون صحيحاً !

نحن الشعب الإيراني عندنا صفة حسنة كما عندنا صفة سيئة ، الصفة الحسنة التي لدينا هي عدم وجود حس التعصب لدينا تجاه الحقائق وربما نستطيع القول إنّه لا تعصب لدينا أبداً ، أي إننا إذا ما واجهنا الحقائق وأدركنا صحتها بعقولنا فإننا نُسلّم بها ونأخذ بها أكثر وأسرع من أية أمة أخرىٰ . لكننا بالمقابل نملك صفة سيئة تعتبر نقيصة كبرىٰ فينا وهي : إنه في الوقت الذي نقبل بالحقائق ونُسلم بها إلاّ أننا لا نرتبط كثيراً بملاحم أمتنا وأركان شخصيتنا ونتخلىٰ عنها ونُضيِّعها عند أول مجادلةٍ أو مُماحكةٍ ركيكة . فليست هناك أمة تملك حس اللامبالاة تجاه شعائرها مثلنا .

انظروا إلى الهنود واليابانيين والعرب ، إنهم من الأمم الشرقية مثلنا أيضاً ، لكنهم ليسوا مثلنا من هذه الزاوية ، ليست هناك أمة تستسلم مقابل العادات واللغات الأجنبية بقدر أمتنا نحن ، انظروا إلى صور كتب العلوم سترون أنّ علماء الدرجة الأولى من الهند وقد تزيُّوا بأزيائهم الوطنية الخاصة بهم .

انظروا إلى نهرو ذلك الرجل السياسي الكبير ، والشخصية العالمية البارزة ، تروه كان يتجول في كل أنحاء العالم بلباسه الهندي ، ولا يمكن لطول اللباس أو

قصره أو لون البشرة أن تؤثر في شخصية الإنسان ، لكن ذلك العالم الذي يضع عمامته على رأسه ، أو عندما يلبس نهرو لباسه الأبيض الطويل ، وبذلته الخاصة بتقاليد شعبه ، ويتجول بها في كل مكان إنما يريد القول لكل العالم بأنه هندي ، ويجب أن يبقىٰ كذلك ، وإنه لا تعصب لديه أمام العلوم والصناعة من أي بلد جاءت ، وإنه لا تعصب لديه أمام العقائد الفلسفية والدينية الكبرىٰ ، وإنه لا بد لكل واحد منا من التمسك بشعائره وتقاليده الوطنية المحلية .

فلماذا يجب علينا أن نحمل ونلوّح بشعارات وشعائر أمة أخرى ؟ ويصبح الواحد منا يربط حزامين بدل حزام واحد لأن الغربي قرر استخدام الحزام في لباسه مثلاً على الرغم من أن الغربي يستخدم ذلك ضمن سياق التزامه بتقاليده الخاصة به .

كل يوم يخرجون علينا بمشروع جديد وحكاية جديدة وبين فترة وأخرى تراهم يعودون ويطرحون من جديد مسألة تغيير الخط وأنه لا بد من تبديل أحرفنا الوطنية إلى أحرف لاتينية[1] دون أن يُفكروا ما سيحل بثقافتنا ومدنيتنا وشخصيتنا ومعارفنا ومشاعرنا الوطنية والشعبية من ويلات بسبب هذا التحول والتغيير .

إن لدىٰ شعبنا آثاراً نفيسة لا نظير لها في الدنيا ، وهل يملك العالم كله أثراً أدبياً نفيساً مثل مثنويات المولوي ؟ أو يملك العالم كتاباً مثل كتاب سعدي ؟ إنها كتب قيلت وكتبت في قالب هذه الخطوط والأحرف الوطنية . فلو حصل أنْ غيّرنا هذا الخط الذي تتقارب (صاده) مع(سينه) و(ثائه) أو تتقارب أصوات نطق حروف (الزاي) مع(الضاد) و(الظاء) فيه ونسخناه من الاستعمال وغيّرنا هذا القالب اللغوي فهل يمكن لنا بعد مائة عام قراءة كتاب المثنوي ؟! لا أعرف كيف نسمح لأنفسنا بمثل هذا التفكير ؟!

---

(١) يشير الشهيد هنا إلى محاولات السلطة في العهد الشاهنشاهي البائد لتغيير الخط الفارسي المستخدم في إيران إلى خط لاتيني ضمن إطار السياسة الاستعمارية العامة المتبعة للقضاء على الثقافة الوطنية والدينية للمجتمع الإسلامي في إيران .

ماذا أعطى نبي الإسلام للعرب ؟ ومـاذا يملك إنسـان فقير ويتيم كمحمـد وقف كافة أفراد قبيلته ضـده حتى يُعطيـه لأمة العـرب ؟ لكنه مـع ذلك نقلهم من عالم الحضيض إلى أوج العزة والكرامة الإنسانية . فكيف حصل ذلك ؟

لقد منحهم الإيمان الـذي أوجد في داخلهم الكيـانية والشخصيـة . وفجأةً تحوّل ذلك العربي الأكل للجراد ، والشارب لحليب الجـمال ، والغارق في حـروب القبائل الجاهلية ، والعاجز عن تأمين الحياة والعزة لبناته ، والتي كان يدفنها خشية إملاق وهي حيةً ، تحوّل بفضل هذا الإحساس الجـديد بـالكيانيـة والشخصية إلى إنسـان يُفكّر في ضرورة خلاص العالم ، من حس العبودية والأسـر والانقياد لغـير وجه الله . ثم لا يهمه بعد ذلك أيضاً من الاعتراف بماضيه التعيس بـل ويفتخر في القول بأن ماضيه لم يكن سوى ماضٍ سيّىء وحقير، وأنه لم يكن يمتلك يوماً مفاخر وطنية تُذكر ، في حين أنّـه أصبح ، بعـد الدعـوة الإسلاميـة ، صاحب فكـر سام يتباهى به على غيره من الأمم ، وهذا يُقال له حس الكيانية والشخصية .

أروني كلمة تُشعل الحماس في روح الإنسان وتصنع شخصية لبني البشر أكثر من كلمة « لا إله إلا الله » ؟

إنـه لا مطاع ولا معبـود سـوى الله ، فـأين الأجـرام الفلكيـة والحيـوانـات والصخـور والأشجار من ركـوع البشر وسجودهم ! إنني لا أركـع لأي شيء مهما كـان وأيّاً كان إنني لا أركـع سوى لله الـواحـد القهّـار . ولا أقف إلّا إلى جـانب العـدالة والحق والإحسـان والفضيلة ولهذا الإنسـان يُقال بـأنه صـاحـب شخصيـة وكيان .

لقد دأب الأمويون بشكل حثيث على إماتة الشخصية الإسلامية في صفوف المسلمـين ، والكوفـة كانت آنـذاك مركـزاً لجيش الإسـلام ولـو لم يـذهب الإمـام الحسين إليها لتوجّه إليه اللـوم من مؤرخي العالم كافة ولقالوا له كيف تترك الكوفة ولا تُلبي دعـوتها وهي التي بـايعت ممثلك من خلال التفـاف ثـمانيـة عشر ألفـاً من أهلها واثني عشر ألفاً من الرسـائل والكتب التي وصلت إليـك ؟ وهل كـان هناك مكان للنهضة أفضل وأرقى من العراق ؟

والكوفة أساساً أمر ببنائها عمر بن الخطاب بعد الحروب التي خاضها المسلمون في صدر الإسلام وقد أشرف على بنائها جيش الإسلام نفسه . ثم إنه لم يكن هناك شعب أشجع وأقوى وأشد صلابةً على القتال من أهل الكوفة وأهل العراق .

ولكن هؤلاء أنفسهم ، وهم الذين خرج من بينهم ثمانية عشر ألفاً من المناصرين للحسين ومن بينهم كانت الكتب الاثنا عشر ألفاً ، تراهم يفرون من المعركة بعد قدوم ابن زياد إليها . فلماذا يحصل مثل ذلك ؟ لأن زياد بن أبيه كان قد حكم الكوفة لسنوات طويلة لم يترك خلالها جريمةً إلا ارتكبها من قلع العيون ، إلى قطع الأيدي والأرجل ، إلى بقر البطون ، إلى التعذيب والقتل في السجون ، حتى فقدت الكوفة شخصيتها تماماً .

ولذلك تراهم ما أن سمعوا بقدوم ابن زياد حتى صارت المرأة تسحب يد زوجها ، والأم تسحب يد ابنها ، والأخت يد أخيها ، والأب يد ابنه ،ويُخرجونهم بالقوة من بيعة مسلم .

ولا ريب في أنّ أهل الكوفة كانوا من شيعة علي بن أبي طالب (ع) وأن الذين قتلوا الإمام الحسين (ع) هم شيعته ولهذا كتب المؤرخون عن أهل الكوفة يقولون : « قلوبهم معه وسيوفُهم عليه »[1] . ذلك أنّ الأمويين كانوا قد سحقوا الشخصية الإسلامية في نفوس أهل الكوفة ولم يَعُد فيها من يملك تلك الأحاسيس الإسلامية الوهاجة .

لكن الكوفة هذه ، هي نفسها قامت وانتفضت بعد مرور ثلاث سنوات على استشهاد الحسين ، وخرج منها خمسة آلاف نفر من التوابين ، ذهبوا لزيارة قبر الحسين (ع) ، وأقاموا مجلس العزاء هناك ، وبكوا عليه ، ثم عقدوا العهد مع

---

(١) مقتل المقرم ص ٢٠٣ . تاريخ الطبري ج ٦ ص ٢١٨ . الكامل لابن الأثيرج ٤ ص ١٦ . إرشاد الشيخ المفيد ص ٢١٨ . مناقب ابن شهر آشوب ج ٤ ص ١٩٥ . كشف الغمة ج ٢ ص ٣٢ .

الله ، بعد طلب التوبة والغفران لتقصيرهم ، بأنهم لن يستقروا ما لم ينتقموا لدم الحسين بن علي (ع) أو الموت دون ذلك ، وقد فعلوا ذلك بالفعل وقتلوا قتلة الحسين والذين شاركوا في قتله في واقعة كربلاء .

وهذه النهضة كانت في الواقع قد بدأت معالمها تظهر منذ عصر يوم العاشر من محرّم نفسه أو يوم الثاني عشر من محرم بالتحديد ، فمن كان وراء مثل هذه النهضة ؟ إنه الحسين بن علي (ع) .

إن منح الشخصية لأية أمة يتمثل في منحها العشق والمحبة والمُثل العليا ، وإذا ما كان عندها مثل هذه المُثل والقيم الأخلاقية العالية لكنها مغطاة بالغبار فإنّ العملية ستكون بإزالة الغبار عنها وإحيائها من جديد .

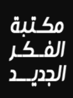
فعندما كان الحسين بن علي يتعرض لموضوع الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في أقواله وخطبه كان يقول : « وعلى الإسلام السلام إذ قد بُليت الأمة بداعٍ مثل يزيد »[1] . أو « إني لم أخرج أشراً ولا بطراً ولا مُفسداً ولا ظالماً وإنما خرجت لطلب الإصلاح في أمة جدي » .

لقد خرج فيهم الحسين بن علي (ع) بعد عشرين عاماً أو ثلاثين على تكدُّس الغبار فوق شخصيتهم ومُثُلهم ليطلب الإصلاح في أمة الإسلام ويمنحها العشق والمثل العليا من جديد ، وهذا هو الركن الأول في إحياء الحماس والإحساس بالكيانية المستقلة لأية أمة ، فالأمة التي تملك شخصيتها هي تلك الأمة التي تملك حس الاكتفاء الذاتي وعدم الحاجة للخارج .

هذه دروس قيمة يجب استخلاصها من قيام الحسين بن علي ونهضته . لقد أعطى الحسين الأمة درساً في حس الاكتفاء وعدم الحاجة للغير ، إذ في اليوم الذي

---

(1) مقتل الحسين للمقرم ص ١٥٦ . مناقب ابن شهر آشوب ص ٨٩ . مقتل الحسين للخوارزمي ج ١ ص ١٨٨ . لمعة من بلاغة الحسين ص ٦٤ . مقتل العواصم ص ٥٤ . نفس المهموم ص ٤٥ . ملحقات إحقاق ج ١١ ص ٧٠٢ .



قرر فيه الخروج من مكة لم يضع أي شرط لنهضته بل قال : « خُطَّ الموتُ على وُلد آدم »[1] إلى أن قال : « فمن كان فينا باذلاً مُهجته موطِّناً على لقاء الله نفسه ، فليرحل معنا فإنني راحلٌ مُصبحاً إن شاء الله تعالى »[2] .

ليس هناك قولٌ فوق هذا القول يُعطي معنىٰ الاستغناء والاكتفاء الذاتي في الدنيا كلها !

ثم انظروا إلى حديثه لأصحابه ليلة العاشر من محرم وذلك بعد أن جمع أصحابه وأهل بيته وشكر الله وأثنى عليهم جميعاً وقال لهم : « . . . أمّا بعدُ : فإني لا أعلمُ أصحاباً أوفىٰ ولا خيراً من أصحابي ولا أهل بيت أبّر ولا أوصل من أهل بيتي ، فجزاكم الله جميعاً عني خيراً ، ألا وإني لأظن يومنا من هؤلاء الأعداء غداً ، وإني قد أذنتُ لكم جميعاً فانطلقوا في حل ليس عليكم مني ذمام . . . » . القول المعروف .

إنَّ الحسين (ع) في خطبته هذه لم يقل لهم بأنني غريب فلا تتركوني لوحدي أنا المسكين المستكين ، بل إنه أراد لهم بخطبته هذه أن يفهموا معنىٰ الاستغناء والاكتفاء الذاتي للإنسان المسلم . لكنه بالطبع لم يرفع عنهم الواجب والتكليف الإلهي ولذلك فإنه لو رأى ، بعد إتمام الحجة عليهم عدم وجود رغبة منهم للبقاء معه لكان قد أبعدهم عن ساحة المعركة فوراً ذلك أنه لا يُريد لهم الاكتواء بنار العذاب الربّاني ، ولأنه لو طلب منهم المدد والعون بعد ذلك ولم يتحركوا لإعانته لابتلاهم الله بعذاب نار جهنم .

إن درس الاستغناء والاكتفاء الذاتي هذا ليس درساً بسيطاً . فهذا الدرس هو الذي أوجد روح الاستغناء والاكتفاء الذاتي لاحقاً والذي تبلور في الثورات والنهضات الحسينية المتتالية .

إن الحسين بن علي عليه السلام أعطىٰ بنهضته درساً في الغيرة والحمية

(١، ٢) بحار الأنوار ج ٤٤ ص٣٦٧ ، اللهوف ص ٢٥ ، نفس المهموم ص ١٠٠ ، مقتل الخوارزمي ج ٢ ص ٥ ، ملحقات إحقاق الحق ج ١١ ص ٥٩٨ ، كشف الغمة ج ٢ ص ٢٩ .



للناس . لقد أعطاهم درساً في الصبر والتحمل ، درساً في احتمال المصاعب وركوب الشدائد ولقد كانت هذه دروساً بالغة الأهمية بالنسبة للمسلمين . فإذا عندما يُقال ماذا عمل الحسين (ع) وكيف استطاع إحياء الإسلام بدمه ؟ يكون جواب ذلك أن الحسين بن علي (ع) قد نفخ روحاً جديدةً في النفوس وحرّك دماء المسلمين وجعلها تغلي في العروق وأثار الغيرة ومنح العشق والقيم المثالية للناس ، لقد أوجد فيهم حس الاستغناء والاكتفاء الذاتي ، لقد أعطاهم درساً بليغاً في المقاومة والصمود وتحمل الشدائد والصبر على الصعاب وأسقط عنهم حاجز الخوف والرعب وخلق منهم بطولات وشجاعة بعد أن كانوا غارقين في جبنهم حتى النخاع .

هناك قصة معروفة في التاريخ الإيراني يقال : إن نادر شاه [أحد ملوك السلسلة الإيرانية القاجارية] لاحظ في إحدى المعارك جندياً من جنوده وقد أبدى شجاعة فائقة فتعجب كثيراً واستدعاه يوماً ، وقال له : أين كنت وأين كانت شجاعتك وبطولتك يوم أغار الأفغان على إصفهان وسلبوها ونهبوها ؟ فقال له الجندي : كنتُ في إصفهان . قال : كنتَ في إصفهان ودخلها الأفغان وقتلوا من قتلوا وارتكبوا كل تلك الجرائم ؟ قال بلى ! فقال له : وأين كانت شجاعتك آنذاك ؟ قال : لم يكن نادر في الوجود آنذاك . فما أملكه اليوم من الشجاعة هو ما اكتسبته من روحية نادر شاه فإني عندما أراك تتحرك الغيرةُ فيّ فأصبح شجاعاً وباسلاً .

لذلك فإنني عندما أؤكد على أنّ المطلوب دراسة الملحمة الحسينية ، وواقعة كربلاء ، ونهضة عاشوراء ، من هذه الزاوية الحماسية أكثر من أية زاوية أخرى فإن مقصودي في ذلك هو الاستفادة من هذه الدروس العظيمة التي يمكن لها أنْ تعطينا إياها . إنني لستُ مُخالفاً للرثاء وقراءة التعزية لكنني أقول : إنّ علينا أن نُرثي الحسين ونقرأ التعازي بشكل نستطيع معه أيضاً تحريك حس البطولة والشجاعة الحسينية ، وإحياء روح الحماس الحسيني في صفوف الأمة .

إن الحسين بن علي (ع) امتياز اجتماعي كبير ، وشعار دائم كان يرفعه كل

من أراد القيام ضد الظلم إذ كان شعاره : «يا لثارات الحسين»[1] واليوم كذلك هو شعارنا وموضوعنا الكبير ، من أجل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والدعوة لإقامة الصلاة ، وإحياء الإسلام ، وتجديد حياة العواطف والأحاسيس الإسلامية والمثل العُليا في وجودنا . وهنا لا بد لي من الاقتراب إلى نهاية الموضوع ، رغم أنّ الحديث ذو شجون ، لكنني أعود مرة أخرى إلى الآية الكريمة التي قرأتها عليكم أول الحديث . بسم الله الرحمن الرحيم : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لِما يُحييكم** ﴾[2] .

نعم فحياة كل أمةٍ ليس بثرواتها الكثيرة ، ولا حتى بعلومها ، فالعلم وحده ليس كافياً لإحياء الأمم ، بل إنّ حياة الأمة تتمثل في إحساس تلك الأمة بشخصيتها وكيانيتها ، فما أكثر الأمم المتعلّمة التي لا تملك شخصيتها وما أكثر الأمم الجاهلة ولكنها متمسكة بشخصيتها . فإذا كان الجزائريون قد استطاعوا تركيع الاستعمار الفرنسي ، بعد مضي مائة وخمسين عاماً من النضال ، وتمكنوا من نيل استقلالهم أيضاً ، فإنّ ذلك يعود لكونهم يمتلكون حس الحماس ، وحس امتلاك الأخلاق ، والمُثل العالية .

وإذا كانت هناك أمة أخرى[3] تناضل وتكافح ضد أقوى أمم العالم وأغناها ، فهل سألنا أنفسنا بماذا تقاتل تلك الأمة ؟ أتقاتل بأعدادها أو بثرواتها ؟ أبداً فتلك الأمة إنما تقاتل بشخصيتها ، وأخلاقها ، وهي تقول للمعتدي : إنني لا أقبل بسيادتك أبداً ، وأنا إمّا أعيش واقفةً على قدميّ ودون أنْ يحكمني أحد ، أو يتسلط عليّ أحد ، أو أن أفنى من الوجود .

إن الذي أخذ هذا الدرس وتعلّمه من الملحمة الحسينية أكثر من غيره ، وانعكست ظلال المدرسة الحسينية على روحه المقدسة أكثر من أي إنسان آخر هي أخته الجليلة زينب عليها السلام . إنه موضوع عجيب بالفعل ، فزينب ورغم

---

(١) مسند الإمام الرضا ج ١ ص ١٤٨ . عيون أخبار الرضا ج ١ ص ٢٩٩ .

(٢) سورة الأنفال : الآية ٢٤ .

(٣) المقصود هنا شعب الفيتنام .

كل تلك العظمة التي كانت تملكها والمتأتية من تربية أبيها علي (ع) وأمها فاطمة الزهراء (ع) وزينب هذه بعد كربلاء هي غيرها زينب ما قبل كربلاء ، أي إنّ زينب ما بعد كربلاء قد تزايدت عظمتها وتضاعف حجم شخصيتها عما كانت عليه قبل كربلاء .

فنحن نرى زينب في ليلة العاشر من محرم تقترب مرة أو مرتين من حالة الانهيار العاطفي وتبكي إلى الحد الذي تقع فيه على جسم أخيها الحسين ولا يُهدّىء من روعها إلاّ تدخّل الحسين (ع) بمخاطبته لها وقوله : « لا يُذهبنّ حِلمَك الشيطان »[1] . ويطلب منها التحمل والصبر ، ثم يسألها عليه السلام ولماذا تصنعين بحالك هكذا ، ألَم تشهدي وفاة جدي رسول الله (ص) ؟ فوالله إنّ جدي خير مني ، وأبي خير مني ، وأمي خير مني ، وأخي خير مني . فترد عليه زينب : بأبي أنت وأمي يا أبا عبد الله ، فإن أولئك عندما رحلوا كنت أنت ملجأي وملاذي لكنه مع ذهابك اليوم سوف لن يبقى بعدك لي أي ملجأ أو ملاذ . فهذه زينب نفسها بعد انقضاء أيام عاشوراء وبعد أن شاهدت بنفسها وعايشت روح الحسين القوية والمقتدرة وسمعت خُطبة وتعليماته صارت زينب أخرى ليس لأحد دونها أدنى شخصية تُذكر . يقول الإمام زين العابدين (ع) بأننا كنا اثني عشر نفراً رُبطنا جميعاً بسلسلة واحدة ينتهي أحد طرفيها بساعدي والطرف الآخر بساعد عمتي زينب .

يقولون إن تاريخ ورود الأسرى إلى الشام صادف في اليوم الثاني من صفر . وعليه فإنه يكون قد انقضى اثنان وعشرون يوماً من الأسر على زينب (ع) ، اثنان وعشرون يوماً من المعاناة والعذاب المستمر وهي في هذه الحالة يُدخلونها إلى مجلس يزيد بن معاوية وهو في قصره الأخضر أي القصر الذي بناه معاوية عندما كان والياً على الشام ، ذلك البلاط الفخم الذي يقال إن كل من كان يراه ويرى خدمه وحشمه وكل تلك الفخامة والعظمة المحيطة به كان يفقد قدرته على التوازن .

وكما ينقل بعض الرواة فإن على القادم إلى مجلس يزيد أن يمر عبر سبع

---

(١) بحار الأنوار ج ٤٥ ص ٢ . إرشاد الشيخ المفيد ص ٢٣٢ . أعلام الورى ص ٢٣٦ .

قاعات حتىٰ يصل إلى القاعة الضخمة الأخيرة حيث يجلس يزيد على تخته المزيّن والمرصّع بالجواهر وهو مُحاطٌ بالأعيان والأشراف والسفراء المُعظَّمين للدول الأجنبية الذين يجلسون على مقاعدهم الذهبية أو الفضية . نعم فقد أدخلوا الأسرى في مثل هذه الظروف ، ومعهم زينب الأسيرة . التي شاهدت كل تلك الفظائع في عاشوراء وعانت كل تلك المعاناة طوال مدة الأسر المذكورة وإذا بزينب وهي في تلك الحال تموج روحها بشكل يُثير موجةً رهبية في جمع الحاضرين يصبح معها يزيد الذي كان يتبجح بفصاحته وبلاغته أخرسَ وعاجزاً عن مواجهة زينب (ع) .

ففي الوقت الذي يبدأ فيه يزيد بترديد أبيات الشعر الشهيرة لابن الزبعري ويفخر لنفسه بالإنجازات التي حققها سُلطانه تردُ عليه زينب مُنادية : « أظننتَ يا يزيد حيث أخَذْتَ علينا أقطار الأرض وآفاق السماء فأصبحنا نُساقُ كما تُساق الأسارىٰ أنّ بنا على الله هواناً وبك عليه كرامةً ؟ وأنّ ذلك لعظم خطرك عنده فشمخت بأنفك »[1] نعم فهي تُريد أن تقول له والله إنك أمامي صغير جداً وحقير ودنيء ولا أرىٰ فيك ذرةً من الشخصية والكيانية الإنسانية . فانظروا إلى هذه المجموعة من الأسرى من آل بيت الرسول (ص) ، فهم عملياً قد فقدوا كل شيء يملكونه ، ما عدا الإيمان والشخصية الروحية والمعنوية . ألا تتوقعون إذاً لشخصية مثل شخصية زينب أن ترسم ملامح ملحمة حسينية جديدة وتُحدِث انقلاباً وثورة حقيقية في الشام ؟ وهذا هو ما حصل بالفعل .

لقد أجبر يزيد في الآن أن يُغيِّر أسلوبه في معاملة الأسرى فأمر بإرسالهم إلى المدينة بشكل محترم كما اضطر كذلك للإعلان عن تبرّئه من قتلة الحسين (ع) وألقى باللائمة على ابن زياد وقال ألا لعنة الله على ابن زياد فإني لم آمره بهذا وإنه هو ابن زياد قد فعلها من عنده !! فمن كان وراء تلعثم يزيد وارتباكه ؟ إنها العقيلة زينب (ع) .

وهي التي أنهت خطبتها في ذلك المجلس قائلةً : « يا يزيد كِد كيدَك واسع

---

(١) بحار الأنوار ج ٤٥ ص ١٣٣ . مقتل الحسين للمقرم ص ٤٦٢ . اللهوف ص ٧٦ .

سعيكَ وناصب جهدك فوالله لا تمحو ذكرنا ولا تميتَ وحينا »[1] فها هي زينب تُنادي مَنْ يخافه الناس ، ويرتعبون منه ، ويُنادونه بأمير المؤمنين بكلّ احتقار ـ يا يزيد ـ اعمل ما شئت ولكنك كن على ثقةٍ بأنّ ذكرنا غير قابل للفناء ، بل إنّما أنت الفاني والمنهزم على الدوام .

لقد كانت خطبة العقيلة زينب كافيةً لأن تُخرس يزيد وتُسكته تماماً ، فاشتعل غضباً ، وزاد غيظ ذلك الشقي اللعين ، وسيطر على وجوده كله ، ولكنه لّما كان عاجزاً عن ردّ الحجة بالحجة ، ومواجهة التحدي بمثله ، اضطر لِيُظهر حقده ودناءته بطريقة ، أراد من ورائها ، إحراق قلب زينب ، وإسكاتها ، وقلب الموقف ضدها ، من خلال عمل يفتقد إلى الرجولة والإباء ، عندما أشار بعصاه الخيزران إلى شفاه وأسنان أبي عبد الله الشريفة الطاهرة .

ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم .



---

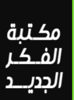
(١) بحار الأنوار ج ٤٥ ص ١٣٥ ، اللهوف ص ٧٧ .

القســم الثالث

عامل التبليغ في النهضة الحسينية

(التبليغ في الاسلام)

المحاضرة الأولى : مفهوم التبليغ
المحاضرة الثانية : أدوات ووسائل إبلاغ الرسالة
المحاضرة الثالثة : منهج التبليغ
المحاضرة الرابعة : أساليب التبليغ في النهضة الحسينية
المحاضرة الخامسة : واقعة كربلاء تجسيم عملي للاسلام
المحاضرة السادسة : دور أهل بيت سيد الشهداء في تبليغ النهضة الحسينية
المحاضرة السابعة : شروط المبلّغ والتأثير الدعائي لأهل بيت الحسين في مدة الأسر



المحاضرة الأولى

مفهوم التبليغ

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين بارىء الخلائق أجمعين والصلاة والسلام على عبد الله ورسوله وحبيبه وصفيه ، سيدنا ونبينا ومولانا أبي القاسم محمد صلى الله عليه وآله وسلم وعلى آله الطيبين الطاهرين المعصومين .

﴿ الذين يُبلِّغون رسالات الله ويخشونه ولا يخشونَ أحداً إلاّ الله وكفى بالله حسيباً ﴾[1] .

كما أنّ حديث الناس من ناحية البساطة والتعقيد يمكن أنْ يكون حديثاً بسيطاً وسهلاً وذا معنىً واحد أو ذا وجوه وأبعاد متعددة وفيه ظاهر وباطن مختلفان فإنّ الثورات والحركات الإنسانية أيضاً ينطبق عليها المعنى نفسه . فنحن يمكن أنْ نسمع نوعين من الحديث : حديثاً ذا معنى واحد وحديثاً ذا معاني متعددة ومختلف الأبعاد ولنا في القرآن الكريم خير مثال على ذلك . فالقرآن تنقسم آياته إلى نوعين من الآيات : آيات محكمات وأخر متشابهات .

فالآيات المحكمات هي تلك الآيات ذات المعنى الواحد إن من حيث

(١) سورة الأحزاب : الآية ٣٩ .

اللفظ ، أو من حيث العبارة والمعنى ، أي إنه لا يمكن استنباط أكثر من مفهوم ومعنى واحد من تلك الآيات .

بينما الآيات المتشابهات هي تلك الآيات التي يمكن استنباط معاني عدة منها وحتى لا نقع في الخطأ نتيجة تشابه المعاني في مثل هذه الآيات ينبغي علينا العودة إلى الآيات المحكمات في تفسيرها والآية المحكمة هنا بمثابة « أمُّ الكتاب » .

لقد قلنا إنّ الثورات والحركات الإنسانية هي الأخرى ينطبق عليها هذا التقسيم . فقد تكون نهضة ما ذات معنىً واحد وهدف واحد ، وربما تكون متشابهة المعاني والغايات ، وإنّ تلك الأهداف مجتمعةً تصب في هدفٍ أساسي واحد . نعم فقد تحمل النهضة في داخلها وجوهاً متعدّدة وأبعاداً مختلفة .

إنّ نهضة الإمام الحسين (ع) يمكن اعتبارها نهضة ذات معانٍ ووجوه وأبعاد مختلفة . والسبب في وجود التفسيرات المتعددة لهذه النهضة يكمن في محاذاة العوامل لبعضها البعض وتداخل تأثيرها .

فإننا لو نظرنا مثلاً إلى هذه النهضة من زاوية بعض العوامل المتداخلة فيها ، نرى أنها تظهر وكأنها محض تمرد وعدم استسلام للسلطة الجائرة، ورفض الرضوخ لمطالب الحكم غير الشرعية . فمن هذه الزاوية نرى أنّ هذه النهضة عبارة عن عملية نفي وعدم تسليم للأمر الواقع . وهذه الناحية نعرفها جميعاً .

فبعد موت معاوية ، وتسلّم يزيد السلطة ، وبعد كل تلك المؤامرات التي حيكت ، رأى (يزيد) لزوم أخذ البيعة من عدد من الوجوه البارزة ، والشخصيات المرموقة في العالم الإسلامي آنذاك ، وعلى رأسهم شخص الحسين بن علي (ع) تلك الشخصية المقدسة التي كان يحسب لها ألف حساب حتى يمكنه من وراء ذلك إسكات كل الناس وخنق أصواتهم ، وكان يرمي في الواقع إلى أخذ تعهّد من الحسين بن علي (ع) بشأن عدم مخالفته للحاكم الجديد .

فبعد موت معاوية بعث يزيد ، على الفور ، رسالة مستعجلة إلى حاكم

المدينة (الوليد بن عتبة بن أبي سفيان) وهو من بني أعمامه يُخبره فيها بموت (معاوية) ، وتسلُّمه هو مكان أبيه مركز الخلافة ، ضم إليها وريقة مستقلة ، كتب عليها أسماء بعض الشخصيات البارزة ، وعلى رأسهم الحسين بن علي (ع) ، طالباً إليه أخذ البيعة منهم بأي شكل كان .

ومعروف أنّ الإمام الحسين (ع) لم يقبل بإعطاء البيعة [وهي القصة التي ربما سمعتموها مراراً] وبعد توقف قصير في المدينة ، مع علمه أنهم لن يتركوه وشأنه ، عزم مع أهل بيته على التوجّه إلى حرم الله الآمن - بيت الله الحرام - في (مكة) . ويبدو أنّ خبر موت (معاوية) كان قد وصل إلى المدينة في نهاية شهر (رجب) وهو الوقت الذي طُلبت فيه البيعة من الإمام الحسين (ع) .

ربما كان اليوم الذي انطلق فيه الإمام الحسين (ع) باتجاه مكة هو اليوم السابع والعشرون من شهر (رجب) المرجّب وكان اليوم الذي وصل فيه إلى مكة هو اليوم الثالث من شهر (شعبان) وهو ما يُصادف يوم ولادته حيث أقام فيها حتى اليوم الثامن من (ذي الحجة) . على كل حال فإن الحسين لم يكن مستعداً على الإطلاق لتمكينهم من أخذ البيعة منه .

وجواب النفي هنا يُعطي لهذه النهضة ماهيةً خاصةً هي ماهية النفي ، وعدم التسليم والرضوخ لمطالب سلطة العصر الغاشمة .

العامل الآخر ، الذي يتداخل في هذه النهضة هو عنصر الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وهو ما ورد بوضوح وبشكل صارم في أقوال الحسين بن علي (ع) وبيّنتهُ الشواهد والدلائل الكثيرة أيضاً . أي إننا لو افترضنا جدلاً أنهم لم يطلبوا البيعة منه فإنه لم يكن هو ليسكت عنهم هذه المرة .

وأما العامل الآخر فهو عامل إتمام الحُجة . ففي ذلك الزمان كان العالم الإسلامي يتشكل من ثلاثة مراكز مهمة ومؤثرة :

المدينة : وهي دار هجرة النبي ، والشام : وهي دار الخلافة الراهنة آنذاك ، والكوفة وهي دار خلافة أمير المؤمنين علي (ع) سابقاً إضافة إلى كونها

مدينةً جديدةً بناها الجند في زمن (عمر بن الخطاب) ، واعتبروها معسكراً إسلامياً ، ولذلك تراها كانت تنافس الشام ، وتعادلها في ميزان القوى العام .

فعندما يسمع أهل الكوفة ، أي أهل معسكر العالم الإسلامي ، بنبأ عدم قبول الإمام الحسين (ع) بمبايعة (يزيد) تراهم يُرسلون إليه بثمانية عشر ألف رسالة، وتذهب هذه الرسائل إلى المركز ، يطلبون فيها من الإمام الحسين (ع) القدوم إلى الكوفة ، وأنّهم، في حال قدومه ، سيكونون له خير مدافع وخير معين .

وهنا يصبح الحسين (ع) أمام منعطف تاريخي خطير ، فإما أنْ يرفض طلبهم فيكون حكم التاريخ عليه قاسياً ، ويُتهم عندئذٍ بأنه لم يستغل الفرصة المناسبة والمؤاتية جداً ، أو أن يُقال إنه لم يرد استغلالها إمّا خوفاً أو لأي سبب آخر ، أو أنْ يُتمّم الحُجة عليهم وهم الذين مدّوا أيديهم إليه فيجيبهم بقبول الدعوة ، وهو الأمر الذي سمعتموه أيضاً بالتفصيل . وهنا تأخذ نهضة الحسين مرة أخرى ماهيةً وشكلاً وبُعداً ولوناً آخر .

ومن جملة الأبعاد الأخرى لهذه الحركة هو بُعدها التبليغي . أي إنّ هذه النهضة ، في الوقت الذي كانت فيه تعني الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من جهة ، وإتماماً للحُجّة من جهة أخرى [وفي ذات الوقت الذي شكلّت فيه نوعاً من عدم الاستسلام لشروط ومطالب السلطات الغاشمة لذلك العصر والزمان] فإنها شكلت في أحد أبعادها معنى التبليغ وأداء الرسالة والتعريف بالإسلام .

وحتى نبدأ بحثنا لا بدّ لنا من شرح معنى التبليغ وتوضيحه لا سيما الفرق بينه وبين مفهوم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر حتى يتضح للمتتبع ان عنصر التبليغ في النهضة الحسينية ، غير عنصر الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فيها .

والتبليغ مصطلح ورد استعماله كثيراً في القرآن الكريم . ففيه وصف أنبياء الله مثلاً على أنهم من المُبلغين للرسالات الإلهية . والأمر لم يكن محصوراً بالأنبياء طبعاً فقد ورد هذا التعبير في غير مورد أيضاً ؛ فالقرآن مثلاً ينقل على لسان الأنبياء

في قوله تعالى : ﴿ يا قوم لقد أبلغتُكُم رسالة ربي ونصحتُ لكم ولكن لا تُحبُّون الناصحين ﴾[1]أو كما ورد حول الأنبياء في قوله تعالى : ﴿ وما على الرسول إلا البلاغ ﴾[2] . على كل حال فالمقصود أنّ كلمة « بلاغ » و« تبليغ » و« يُبلّغون » وسائر التصريفات المتفرعة عنها قد ورد استعمالها كثيراً في القرآن الكريم ، فما معنى هذه الكلمة ؟

للأسف فإنّ هذه الكلمة في لغتنا الفارسية قد أخذت كما هو متعارف عليه اليوم طابعاً نحساً ومُنفراً حيث صارت تعني في اللغة اليومية المتداولة العمل بكل الوسائل المشروعة وغير المشروعة لخداع الناس وإغرائهم وإقناعهم بشراء أو اقتناء هذه البضاعة أو تلك من البضائع المعروضة في السوق[3] .

ولذلك ترى البعض يتوسل بها أحياناً عندما يُريد التكلّم عن موضوع معين والإثبات بأنه موضوع لا أساس له من الصحة فيقول يا مولانا هذا « تبليغ » وكذب وخداع . ولذا ترى أنّ البعض لا يُحبّذ استعمال هذا المصطلح في الشؤون الدينية . لكنني سبق لي وأن قلتُ للأخوة في جلسة أخرى بأنّه لا يجوز لنا أن نترك ونهجر هذه الكلمة التي تحمل معنىً صحيحاً لا سيّما وأنّها وَرَدَت كثيراً في(القرآن الكريم) وفي (نهج البلاغة) بسبب المعنىٰ التحريفي الذي طرأ عليها ، ونحكم عليها بناءً على المعنى الجديد ، بل لا بد لنا من شرح معناها الصحيح للناس على الدوام .

إنّ كلمة تبليغ لها معنىً مقارب لمعنىٰ الوصول والإيصال . هناك في اللغة العربية مثلاً موارد كثيرة تتداخل فيها المصطلحات بشكل ظريف ودقيق لا قدرة لنا نحن أبناء اللغة الفارسية على استيعابها أو تذوّقها . ففي اللغة العربية توجد كلمة « إيصال » مثلاً كما توجد كلمة « إبلاغ » . فما معنى الإيصال ؟ كأن تقول

(١) سورة الأعراف : الآية ٧٩ .
(٢) سورة المائدة : الآية ٩٩ .
(٣) تستخدم كلمة تبليغ في الفارسية المتداولة بمعنى كلمة الدعاية والإعلان في العربية ـ المترجم ـ .

مثلاً أوصلتُ قطعة القماش فتصبح بالفارسية « رساندم » وإذا قلنا ما معنىٰ « الإبلاغ » بالفارسية ؟ كأن تقول أبلغتُ الأمر كذا وكذا . فإنك ستجد أنّ معناه بالفارسية هو : « رساندم » أيضاً . وهذا يعني أنّ الفارسية تستخدم نفس المصطلح في كلتا الحالتين . بينما اللغة العربية لا يمكنها أنْ تساوي بين مصطلحي « الإيصال » و« الإبلاغ » . فمصطلح الإيصال لا يُستخدم إلاّ إذا كان المقصود إيصاله هو شيء ما بيد شخص ما إلى مكان ما أو شخصٍ ما . أي إن مصطلح الإيصال لا يستخدم إلاّ في إطار الأمور والقضايا الجسميّة والماديّة . كأن توصل رسالة أو ظرفاً إلى شخص ما ، أو انّ أمانةً معينة ـ على أن تكون مادية ـ طُلب منك أن توصلها إلى أصحابها فعندها يُستخدم مُصطلح « إيصال » ويقال إنّك أوصَلْتَ الأمانة مثلاً .

في حين انّ مصطلح الإبلاغ لا يُستخدم إلا بمعنىٰ إيصال الفكرة أو الرسالة المعنوية ، أي عندما تُريد إيصال شيء ما إلى فكر وروح وضمير وقلب إنسان ما . ولذلك فإنّ محتوى ومضمون الإبلاغ لا يمكن أنْ يكون أمراً مادياً وجسمياً بل إنه لا بدّ وأن يكون أمراً معنوياً وروحياً ، ولا بد أن يكون فكراً أو إحساساً أيضاً . وبعبارة أخرى يُستخدم مصطلح الإبلاغ في حالة إيصال سلام أو خبر أو فكرة معينة إلى الآخرين ، فيقال مثلاً : أبْلِغْ سلامي ، أو أبلِغْ هذا الأمر . فعندما يُبلِّغ أمرٌ ما يعني ذلك انّ فكرة ما أو شأناً من الشؤون المعنوية قد أُبلغ للآخرين ، وعندما يُبلغ المرء سلاماً فإنّه يُبلغ الإحساسات والمحبة والعشق إلى الآخرين .

وعليه فإنه في الموارد المشابهة لما ذكرنا أعلاه لا بد من استخدام مصطلح الإبلاغ والتبليغ فيها وفي القرآن الكريم ورد ذكر هذا المصطلح أيضاً عندما ورد ذكر الرسالات التي هي عبارة عن مجموعة من الأفكار .

وعليه فالتبليغ هو عبارة عن إيصال مفهوم أو أمر ما من إنسانٍ إلى إنسانٍ آخر . وكلمة « بيامبر » الواردة في اللغة الفارسية والتي تعني (النبي) عبارة عن ترجمة لكلمة « الرسول » العربية ، وهي الكلمة التي تعني بالعربية مبلِّغ الرسالة . وكلمة (الرسالة) العربية لحسن الحظ أخذت منحىً إيجابياً في تطورها وتداولها في

اللغة الفارسية . بالطبع فنحن أبناء اللغة الفارسية (وإلى حد ما أبناء العربية) نستخدم كلمة الرسالة في المفهوم المتداول بغير مفهوم الكلمة الذي يستخدمه القرآن الكريم .

فالعادة المتّبعة عندنا هي القول بأنّ فلاناً قد كتب رسالةً في الموضوع الفلاني وذلك عندما يكتب في موضوع ما بمقدار كرّاس صغير لا يتجاوز حجمه حجم الكتاب . في الوقت الذي لا يحمل فيه الموضوع أية رسالة معينة مثلاً ، كأن يكتب الواحد منّا كراساً أو مقالاً مُطوّلاً حول جذور مصطلح أو مفهوم من المفاهيم اللغوية أو حول قواعد اللغة الفارسية أو قواعد اللغة العربية فيقولون عنه إنّه كتب رسالته في الموضوع الفلاني في الوقت الذي نرىٰ فيه أنّ هذا الموضوع (الجذور اللغوية) لا يرتبط بهذه التسمية .

فمصطلح (الرسالة) ينبغي استخدامه في المكان الذي يكون فيه مجال لحصول معنى « الإبلاغ » . أمّا أن يأتي أحدنا ويُقدّم حلاً لمسألة علمية أو أدبية ما ، دون أن يكون حاملاً لأية رسالة ، أو بلاغ معين للناس ، ثم نأتي نحن ونستعمل كلمة الرسالة لعمله فهذا أمر لا يجوز ولكن لحسن الحظ يبدو أنّ استخدام مصطلح « الرسالة » مؤخراً في اللغة الفارسية قد أخذ منحىً جديداً أكثر إيجابية . حيث صار يُقال إنّ فلاناً عنده رسالة خاصة تجاه مجتمعه أي إنّ مصطلح الرسالة صار اليوم يُستخدم عندما يُراد القول إنّ فُلاناً يحسُّ بمسؤولية خاصة تقع على عاتقه تجاه مجتمعه ، وإن عليه أداءها . وهذا الاستخدام الجديد إذا لم يكن متطابقاً مع التعبير القرآني لكلمة « الرسالة » فإنه قريب منه جداً .

بعبارة أخرى إنّ الاستخدام الجديد لهذا المصطلح في مجتمعنا الحاضر قريب جداً من استخدام القرآن الكريم له وذلك في قوله تعالى : ﴿ الذين يُبلّغون رسالات الله ويَخْشونَهُ ولا يخشونَ أحداً إلا الله ﴾[1] وهذا شرط مهم من شروط الرسول والمُبلّغ أي ـ خشية الله ـ سنتطرق إليه لاحقاً إذا ما وفقنا إلى ذلك إنْ شاء الله .

---

(١) سورة الأحزاب : الآية ٣٩ .

والآن بعد أنْ عرفنا معنىٰ « الإبلاغ » و« التبليغ » نستنتج إنّ مفهوم التبليغ الذي ورد في القرآن الكريم هو غير مفهوم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . صحيح أنّ هناك علاقة بينهما ، لكنهما يظلان رغم ذلك مفهومين مختلفين .

التبليغ هو مرحلة من مراحل التعريف والإيصال الحسن للفكرة ، أي مرحلة المعرفة ، في حين أنّ عمل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يعود لمرحلة الإجراء والعمل . فالتبليغ وظيفة عمومية مُلقاة على عاتق المسلمين جميعاً كما أنّ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وظيفة عمومية أخرى .

إنّ الواجب المُلقىٰ على عاتق كل مسلم من ناحية التبليغ هو ذلك الإحساس الذي ينبغي أن يتولّد في داخله بأنه هو أيضاً حامل لرسالة الإسلام ، في حين أنّ الواجب المُلقىٰ على عاتق كل مسلم في موضوع الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هو ذلك الإحساس الذي ينبغي أن يتولد فيه بأنه هو الآخر جزء من القوة الإجرائية والتنفيذية لهذه الرسالة والتي يجب عليه أنْ يُطبقها ويُنفذها عملياً ويُلبسها لباس العينية في المجتمع . من هنا فإنّ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر شيء والتبليغ شيء آخر .

وعليه فإنه مثلما يوجد هناك جانب وبُعد الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في النهضة الحسينية يوجد كذلك بُعد التبليغ فيها ، إنّ هذه النهضة نهضة متشابهة ومتداخلة الأبعاد والمعاني ومن جملة الأهداف والمقاصد التي احتوتها هو أنها عرّفت الإسلام كما هو وكما يجب أنْ يكون . لقد أبلَغَتْ نداء الإسلام إلى عالم البشرية وعرضته على الجميع وبشكل بليغ جداً ! وكما ذكرتُ في البداية فالخطاب نوعان : محكم ومتشابه . وتعرفون أيضاً أنّ الخطاب ينقسم من زاوية أخرى أيضاً إلى قسمين : بليغ وغير بليغ .

فعلماء الإسلام يُشخصون بعضاً من الخطابات والأحاديث على أنها خطابات وأقوال بليغة وفصيحة ، فأي القول يمكن اعتباره قولاً بليغاً ؟

إنه ذلك القول الذي يستطيع أن يوصل منظور وهدف القائل على أحسن

وجه وأتمه إلى فكر وروح وإحساس الطرف المقابل .

إنه القول الذي يتمكن من إيصال هدف القائل حقاً وحقيقةً .

النهضة هي الأخرى بهذا الشكل ، فهناك نهضة بليغة وأخرى غير بليغة :

فالنهضة البليغة هي تلك النهضة القادرة على إيصال ما تريد إيصاله من رسالة إلى القلوب والأفكار والإحساسات البشرية على أحسن وجه ممكن . فعندما ننظر إلى النهضة الحسينية من هذه الزاوية نرى أنّه ليس هناك نهضة أبلغ وأفصح منها في الدنيا كلها :

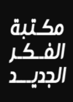
فهي من الناحية المكانية وأبعادها الكونية قد بلغت في التأثير مدى الكون كله .

وهي من الناحية الزمانية ليس فقط لم يتناقص نفوذها وتأثيرها بعد مرور أربعة عشر قرناً على وقوعها بل إنها زادت قدرةً ونفوذاً . إنها نهضة فوق العادة قوية وعظيمة .

والآن لا بدّ لنا من البحث حول موضوع التبليغ نفسه حتى نعرف جيداً عناصر التبليغ التي تتكون منها النهضة الحسينية ونُبيِّنها . لقد عرفنا معنىً ومفهوم التبليغ وعرفنا أيضاً أنّ القرآن الكريم أكّد كثيراً على مفهوم التبليغ . وهناك جملة معروفة وردت بشأن بعثة الأنبياء في نهج البلاغة تقول : « فبعث فيهم رُسُلَهُ ، وواتر إليهم أنبياءه ليستأدُوهم ميثاق فطرته ويُذكّروهم مَنسيَّ نعمتِهِ ويحتجوا عليهم بالتبليغ »[1] .

أي يُريد أن يقول لهم : إن الدين ليس أمراً مفروضاً على البشر بل إنه جواب على نداء الفطرة البشرية ، إنه العهد الذي قطعه الله مع عباده . وهو العهد الذي لم يُكتب على الورق ، ولم ينطق بالألفاظ ، ولا كان بالصوت ، ولم

(١) نهج البلاغة فيض الإسلام الخطبة الأولى القسم ٣٦ ص ٣٣ .



يحصل بطريقة البيعة ، بل إنه خُطَّ بقلم القدر في عمق الروح والطبيعة الإنسانية أي إنّ الرسل جاؤوا ليقولوا : أيها الناس ! لا نُريد منكم إلّا الوفاء بعهدكم الذي عاهدتم الله به وليس شيئاً آخر . « ويُذكروهم مَنسيَّ نعمته » ، فالأنبياء إنما هم مُذكِّرون ـ « ويحتجوا عليهم بالتبليغ » . وحتى يُبلغوا الناس رسالة الله وبهذا يكونون قد أتموا حجتهم على الناس . ثم يقول : « ويُثيروا لهم دفائن العقول »[1] (ما أبلغها من جمل) .

نعم فالرسل إنما جاؤوا ليزيلوا الغبار وطبقات التراب المتراكمة والمُكدّسة على عقول الناس وقلوبهم كي يخرجوا تلك الجواهر المدفونة في أعماق باطن الناس وفي أفكارهم وأرواحهم وعقولهم ؛ نعم لقد جاء الرُسُل ليظهروا هذه الجواهر الكامنة في داخل الناس أنفسهم وجلائها لهم مرة أخرى ، إذ كل فردٍ منا يملك جوهرةً في بيت روحه ونفسه وهو لا يعلم عنها شيئاً . لقد جاء الأنبياء حتى يُبرزوا هذه الجواهر من أجل أن يتمكن كل واحد منّا من إخراجها بكل شوق وحرارة وابتهاج .

فأنبياء الله جميعاً من المُبلغين حسب هذا المعنىٰ الذي سبق شرحه لكنهم ليسوا جميعاً مُشرِّعين ، ولذلك فإن الأنبياء على نوعين :

فهناك الأنبياء المشرّعون والمبلّغون في آنٍ معاً .

وهناك الأنبياء المُبلّغون فقط . إنّ الأنبياء المُشرِّعين هم الأنبياء الذين يُسّنون القوانين وعددهم قليل ومجموعهم لا يتجاوز الخمسة : ـ نوح وابراهيم وموسى وعيسىٰ وخاتم النبيين محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، لكن الأنبياء جميعاً يمكن اعتبارهم من المُبلّغين للرسالات الإلهية ، كما أنهم من الآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر . فأنتم عندما تسمعون بمجيء مائة واربعة وعشرون ألفاً من الأنبياء لا يجوز أن تتصوروا بأنّ كل واحد منهم كان يسنُّ قوانين جديدة للبشر .

---

(١) المصدر السابق .

فالذين جاؤوا بالقوانين محدودون. أما سائر الرُسُل فإنهم مُبلّغون لرسالات الأنبياء المشرِّعين ، وعلينا أن نطلق عليهم الرُسُل التبليغيين . كما أنه سوف لن يأتي نبيٌ مُشرِّع بعد نبي آخر الزمان وخاتم الأنبياء ولا أي رسول تبليغي كذلك . غير أن المبلغين سيستمرّون في الظهور ، كيف؟ لّما كانت دورة الخاتميّة بمثابة دورة الكمال والبلوغ البشري فإنّ الوظيفة التي كانت مُلقاة قبلاً على عاتق الرُسُل المائة والأربع وعشرون ألفاً ـ أي مهمة التبليغ ـ لا بد وأن يقوم بها اليوم عامة الناس ، العلماء وغير العلماء . ولهذا فإنّ المُبلّغين الواقعيين للإسلام هم أولئك البشر الحاملون لرسالة الرُسُل . أي إنهم أولئك النمط من البشر الذين يُبلّغون رسالة الأنبياء إلى الناس .

ولكن ما هو شرط نجاح الرسالة ؟ وما هي هيئة الرسالة التي يمكن لها أن تكون موفقة ؟ وهل إنّ الإسلام بذاته رسالة موفقة ؟ وإذا كان الجواب بالإيجاب فما هو سر نجاح الإسلام ؟

نقول : إنّ شروط نجاح أية رسالة يتمثل في أربعة أشياء إذا ما توافرت في أية رسالة يكون نجاح تلك الرسالة أمراً قطعياً . ولكن لو فشلت هذه الشروط في الاجتماع ؟ فإنها ستخلق اشكالاً أخرى مختلفة عن الأصل :

الشرط الأول لنجاح أية رسالة هو عقلانيّتها ، وقوة محتواها أي إنّ علينا أولاً أن نرى ما أوردته الرسالة للبشرية من حاجات ، وإذا ما كانت تلك الحاجات منطبقة مع المتطلبات العامة للإنسان وقادرةً على أن تُلبي احتياجاته الإنسانية أم لا ؟ فالإنسان يملك مئات الحاجات الفكرية والاجتماعية والحسيّة والعملية والمادية والعاطفية وغيرها .

إنّ أية رسالة ناجحة لا بدّ لها أن تكون متطابقة مع الحاجات البشرية العامة . وينبغي أن تكون في االدرجة الأولى منطقية في طروحاتها أي أن تكون منسجمة مع الطرح الفكري والعقلي للإنسان ، وبالتالي قادرة على جذب عقل الإنسان نحوها .

ولهذا فإنّ الرسالة التي تكون مناقضة لمنطق الإنسان وعقله وإنْ كانت توافق الحسّ البشري مثلاً سوف لن يكون بمقدورها الاستمرارية والدوام في مهمتها مهما طال بقاؤها . من أجل هذا ترى القرآن الكريم يدعو الإنسان باستمرار إلى التعقل والتفكر ولم يتخلّ القرآن لحظة عن العقل والمنطق بل إنك تراه يستخدم العقل بمثابة قاعدة وأساس في كافة طروحاته ، ويدعو إلى التعقل دوماً وعلى طول الخط .

ومن أجل أن يكون مضمون الرسالة غنياً وقوياً بما فيه الكفاية لا بد لها إذاً من أن تأتي منطبقةً مع احتياجات الحسّ البشري ، فالإنسان بدوره يمتلك مركزاً للإحساسات والعواطف لا يمكن تجاوزه ، إلى جانب مركزه العقلي والفكري ، ولذلك فإنّ انسجام طروحات أية رسالة وتوافقها مع الإحساسات والعواطف البشرية ، وإلى حد ما إشباع الإحساسات العالية والرفيعة والرقيقة للبشر ، بالإضافة إلى التناغم مع الحاجات الحياتية ، والعملية ، والموضوعية يمكن اعتبارها من الشروط الأخرى التي تُغني مضمون تلك الرسالة .

فالرسالة التي تتصادم مع الحاجات الطبيعية للبشر لا تستطيع أن تكون رسالة موفقة .

هناك حديث يتم الاستناد إليه في الفقه أيضاً يقول فيه النبي الأكرم محمد (ص) : « الإسلام يعلو ولا يُعلى عليه »[1] . وهو من الأحاديث التي تحتمل تفسيرات عدة وقد فسّره كل مجموعة من العلماء من زاوية معينة ، واستنبطوا منه استنباطات متعددة ، والحديث هذا يمكن اعتباره من جملة أقوال النبي المتشابهة . وبعبارة أخرى يمكن اعتباره من « جوامع الكلم » للنبي الذي تم فيه استخدام لفظ واحد لمعانٍ عدة . فعلماء الفقه مثلاً عندما يقفون عند هذا الحديث فإنهم يستنبطون منه بعض المقررات الاجتماعية الخاصة بالمجتمع الإسلامي ويستخلصون من الحديث أنّه لا ولاية ولا سيادة لغير المسلم على المسلم

---

(١) نهج الفصاحة ص ٢١٤ الحديث ١٠٥٦ .

أبداً ، وأنه لا يمكن للإسلام أنْ يقبل بمثل هكذا سيادة بتاتاً ، كأن يأتي أحد من أهل الذمة (مثل اليهود أو المسيحيين وأحياناً الزرادشت) ويتحكم في شؤون المسلمين في المجتمع الإسلامي ! أو أن يتخذ من أحد المسلمين عبداً له ! فالفقهاء يقولون إنَّ « الإسلام يعلو ولا يُعلى عليه » ومعنى هذا إنّ الإسلام لا بد وأن يكون فوق العقائد والنظريات الأخرى . وانطلاقاً من هذه الرؤية يتم استنباط الأحكام الفقهية الخاصة بهذا الموضوع .

إنّ المتكلمين ينظرون إلى هذا الحديث من زاوية أخرى ، فهم يتعاملون معه من الزاوية الكلامية (فالمتكلمون يتعاملون مع الأحاديث والروايات على أساس المنطق والإستدلال والبحث والمحاجّة) ولهذا فإنهم يقولون :

إنّ هذا الحديث يعني أنّ منطق الإسلام هو المنطق الغالب . فهناك حيث تتم المواجهة بين منطق الإسلام ومنطق العقائد الأخرى وتتصارع الاستدلالات والمناهج والاحتجاجات فإنّ منطق الإسلام لا بد هو المتفوق والمنتصر ، وهذا بُعد آخر لهذا الحديث .

وأما الذين تعاملوا مع هذا الحديث من الناحية الاجتماعية فهؤلاء أيضاً استنتجوا بدورهم استنتاجاً آخر عندما قالوا :

إنّ المقصود بأنّ الإسلام هو أفضل المناهج والرسالات والعقائد العملية والقابلة للتطبيق . ولماذا ؟ لأنّ قانون الإسلام هو القانون الأكثر انطباقاً أو تطابقاً مع الحاجات البشرية ولهذا تراه يفتح الطريق أمام حركة البشر العملية أفضل من غيره .

عندما ينظر المرء إلى أجهزة الدعاية المسيحية ويرى كل تلك الإمكانات الواسعة والوسائل والأدوات التي بحوزتها بالإضافة إلى ضخامة الميزانية والعدد الهائل من القوة البشرية التي تضعها في هذا المجال وشبكة التنظيم المتطورة يعجب حقاً كيف أنّ الإسلام يستطيع المقاومة والصمود أمام كل تلك الحملة الدعائية المسيحية ؟! إنه لأمر عجيب حقاً !

فعندما ننظر إلى واقعنا نرى أنفسنا في مستوى الصفر من زاوية التجهيز الدعائي ، فليس هناك دين في العالم أضعف من الدين الإسلامي من ناحية جهاز الدعاية والتبليغ .

إنّ اليهود الذين يُشكّلون أقلية بين الأديان نراهم مجهزّين أحسن التجهيز في الخفاء . على الأقل بعوامل التحريف ، إنّهم لا يملكون عوامل إيجابية يجذبون بواسطتها الناس إلى دينهم لكن عواملهم التخريبية كثيرة ، أي القدرة على تخريب الأديان الأخرى . فأنت ترى مثلاً أنّ اليهودي مستعد لقضاء سنين طويلة من عمره وهو يدرس ويتخصص في أحد الفروع الإسلامية حتى يتمكن من إشغال مقعد علمي في إحدى الجامعات فيُنفّذ بذلك ما يُخطط له . أو أن يؤلف كتاباً وينفث فيه من سموم أفكاره ما يشاء . فهل تعرفون (وهذا أمر سمعته مراراً من أهل الخبرة والاطّلاع) أنّ ٩٠٪ من مقاعد الدراسة العلمية لعلوم الاستشراق في العالم هي بحوزة اليهود ؟ نعم فمستشرقو العالم هم اليهود ! تصوروا كم هي قدرتهم على التخريب ! تلك هي المسيحية وهذه هي اليهودية ! يكفي أن تنظروا إلى الفرقة الفاسدة والضالة كما سميتموها في بلادنا هذه وتروا مقدار قوة أجهزتها الدعائية[١] !

مع ذلك كله فقد قرأت قبل عدة سنوات في إحدى صحفنا المحلية (نقلاً عن صحيفة (لوموند) الفرنسية) بأنّ أربعة عشر مليوناً من سكان العالم قد انضموا إلى الإسلام في السنوات الأخيرة فقط . فما هي وسائل الدعاية التي أتت بهم إلى الإسلام ؟ وهل كان هناك مُبلّغ واحد مخصص لهذا العمل ؟ كل ما هنالك ربما كان لدى هؤلاء الناس أجهزة الراديو الصغيرة (الترانزستور) التي كانوا يستمعون بها إلى بعض البرامج التي تُذاع باللغة العربية عن الدين الإسلامي . إنني عندما تحدّثت إلى أحد المُطّلعين من الأصدقاء القاطنين في (أوروبا) قال لي : إنّ الرقم الذي أعطته (لوموند) ليس دقيقاً فإنني سبق لي وأن تكلمتُ مع إحدى

---

(١) أعتقد أنه يقصد الفرقة البهائية ـ المترجم ـ

الشخصيات الدينية المسيحية البارزة حول هذا الموضوع وقال : إنّ عدد الذين انضموا إلى الإسلام بلغ خمسة وعشرين مليوناً .

ثم أضاف بأن القارة الأفريقية الآن أمام ظاهرة حادة وبارزة وهي أنّ قوتين أساسيتين اليوم في حالة تقدم سريع هناك ، هما : الإسلام والشيوعية وأنّ كل وسائل التبشير المسيحي غير قادرة عل وقف هذا النمو السريع لهذين التيارين .

يحدث هذا والأجهزة الدعائية المسيحية هي القوية بينما أجهزة الدعاية الإسلامية ضعيفة للغاية فنستنتج من ذلك أنّ المضمون والمحتوى للرسالتين مختلف ؛

فمضمون المسيحية لا يتعدى الحالة الإحساسية والعاطفية رغم قوتها في هذا المجال لكن المضمون الإسلامي مضمون ذا منطق قوي .

ومضمون المسيحية يحمل في طياته حالة الفرض والإجبار بينما مضمون الإسلام مضمون عملي يتلاءم ونسيج الحياة الاجتماعية العام .

فالمنطق الإسلامي يدخل إلى النفوس مثلما يدخل الماء إلى فم العطشان ، ويمر عبر البلعوم بكل سهولة ونعومة . فمن خلال العقل يثبت وجود الله وفكرة التوحيد .

في مقابل ذلك ترى المنطق المسيحي يبدأ من اللحظة الأولى بوضع العقل جانباً ويدعو إلى فكرة التثليث !

إنها أيام محرّم الحرام ونحن إنما طرحنا هذه الموضوعات من أجل أن نشرح الرسالة الحسينية إلى الناس ونُبيّن لهم كيف أنّ النهضة الحسينية نهضة تحمل لواء الإسلام ، وكيف أنّ الإمام الحسين قد استطاع بنهضته هذه أنْ يُبلِّغ رسالة الإسلام إلى العالم كله .

في الثامن من (ذي الحجة) وهو اليوم الذي يتوافد فيه الحجاج إلى مكة من

كل حدب وصوب ، في اليوم الذي يتحرك فيه الناس نحو (منى) و(عرفات) ترك الإمام الحسين (ع) (مكة) وراءه بعد أن خطب خطبته الغرّاء وانطلق عازماً إلى العراق كما جاء في رواية السيد (ابن طاوس) ، وانتقل من موقع إلى موقع حتىٰ وصل الحدود العراقية وهو لا يعلم بعد ماذا يجري في (الكوفة) من أحداث .

ففي هذه الأثناء كانت حادثة مؤلمة وعجيبة تقع (لمسلم بن عقيل) في الكوفة ، فلقد شاهد الإمام الحسين (ع) في الطريق رجلاً قادماً من الكوفة ومتجهاً نحو مكة . [الطرق في الجزيرة العربية لم تكن محاذية لبعضها البعض بحيث يكون الذاهب والقادم مجبرين على لقاء أحدهما بالآخر ، فالطريق عبارة عن صحراء مترامية الأطراف تفصل بين الذاهب والقادم فيها مسافات طويلة] فتوقف لحظة إشارةً منه لذلك الشخص برغبته عليه السلام بلقائه ، ولمّا كان هذا الشخص معروفاً من قبل الإمام الحسين (ع) وهو يحمل خبراً سيئاً ومؤسفاً ، فإنه لم يرد التوقف حتىٰ لا يسأله الإمام عن أخبار (الكوفة) فيضطر لإخباره بتلك الأخبار المؤسفة ، ولذلك فقد حَرّفَ طريقه باتجاه آخر .

من ناحية ثانية كان هناك رجلان من قبيلة بني أسد ممن أنهيا مناسك حجهما بسرعة واتجها مُسرِعين للالتحاق بقافلة الحسين (ع) وفي نيتهما نصرة (أبي عبد الله) .

وشاءت الأقدار أنهما التقيا بهذا الشخص القادم من (الكوفة) ، والذي لم يتوقف عند قافلة الحسين (ع) . عند اللقاء انتسب الطرفان حسب الأصول والتقاليد العربية ، فإذا بالرجل من بني أسد وبعد حصول المزيد من السؤال والجواب ، وتوصل الطرفين إلى اقتراب نسب بعضهما من البعض الآخر سأل الرجلان القادمان من المدينة ذلك الرجل القادم من العراق : ما أخبار الكوفة عندك ؟ فقال لهما : إنّه يحمل أخباراً سيئة من (الكوفة) وإنّ الحسين (ع) قد حاول أنْ يستوقفه وهو في الطريق قبل أنْ يصل إليهما ، ولكنه لما كان لا يُريد إخبار الإمام بتلك الأخبار السيئة فقد استكمل طريقه حتىٰ وصل إليهما الآن ،

وهكذا أخبرهما بقضايا (الكوفة) وما جرى فيها (لمسلم) وأصحابه .

وبعد أن سمع هذان الرجلان ما سمعاهُ واصلا طريقهما في إثر الحسين (ع) حتىٰ وصلا النقطة التي نزل عندها لكنهما لم يُخبراهُ على الفور بل انتظرا بعض الوقت حتىٰ نزل عليه السلام منزلاً آخر ، وكان قد مضىٰ ليلة ويوم على لقائهما بذلك الرجل .

كان عليه السلام يجلس في خيمة ، وقد أحاطت به مجموعة من صحبه وأنصاره ، فدخل الرجلان وجلسا مع الجالسين ، وقالا يا أبا عبد الله ! نُريد إبلاغك ببعض الأخبار فهل تسمح لنا بعرضها عليك هنا في هذا المجلس ، أو أنك تُريد أنْ تسمعها في الخلوة ؟ فقال لهما قولا كل ما عندكما بحضور أصحابي فأنا لا أخفي شيئاً عنهم . فقال أحدهما : يا بن رسول الله ! إننا قد التقينا بذلك الرجل الذي لمحته عن بُعد ، ولم يتوقف عندك ، وهو من المُعتمدين وأصحاب الثقة لدينا ، فنحن نعرفه جيداً ، ونحن وإياه أبناء عشيرة واحدة ، إنّه من بني أسد ، وقد سألناه عن أخبار (الكوفة) فكانت لديه أخبار مؤسفةٌ عنها فهو يقول : إنه لم يخرج من الكوفة إلّا بعد أن رأى بعينه استشهاد (مسلم) و(هاني بن عروة) وإنه قد رأى جسديهما مربوطين بالحبال ويُسحلان في أزقة (الكوفة) وأسواقها .

فما أن سمع أبو عبد الله(ع) خبر شهادة (مسلم) حتى اغرورقت عيناه بالدموع لكنه شرع فوراً بقراءة الآية الكريمة : **﴿ من المؤمنين رجالٌ صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضىٰ نحبهُ ومنهم من ينتظر وما بدّلوا تبديلاً ﴾**[1] .

في مثل هذه الظروف تُرى ماذا يُنتظر من أبي عبد الله (ع) أنْ يقول : هل يقول بأنه ما دامت (الكوفة) قد تمت السيطرة عليها و(مسلم) قد قُتِل و(هاني) كذلك فإنّ مهمتنا قد انتهت ، ونحن قد فشلنا فلنرجع من حيث أتينا . لا أبداً

---

(١) سورة الاحزاب : الآية ٢٣ .

فقد قرأ تلك الآية الكريمة التي عبّرت بدقة عن الموقف . فالآية يبدو أنها كانت قد نزلت بشأن معركة الأحزاب . أي بعد أن قُتل من قتل من المؤمنين في تلك المعركة واستشهد على طريق الحق ، فيما بقي الآخرون ينتظرون دورهم في الفداء والتضحية .

نعم فمسلم قد أدىٰ واجبه ونحن على الطريق سائرون، وبالطبع فإنّ أصحابه عليه السلام قد قالوا قولتهم ووقفوا وقفتهم الشجاعة إلى جانبه ، لكن ذلك جعل عدداً من الأعراب ممن التحق به في وسط الطريق ، ظناً منهم أنه يأتي بلداً ، سيحصلون فيه على الغنائم والأرزاق ، ولكنهم ما إن سمعوا بأخبار (الكوفة) هذه حتىٰ تفرّقوا يميناً وشمالاً « ولم يبق معه إلاّ أهل بيته وصفوته » وقد كان عددهم قليلاً آنذاك ، لكنه أضيف إليهم فيما بعد عدد لا بأس به من الأفراد المُغرّر بهم ممن كانوا في جيش (عمربن سعد) لكنهم كانوا يعودون إلى رشدهم واحداً واحداً ، ويلتحقون بمعسكر الحسين في معركة كربلاء .

ربما لم يكن عددهم يتجاوز العشرين آنذاك . لقد جاء خبر استشهاد (مسلم) و(هاني) الفجيع إلى أبي عبد الله وصحبه وهو في تلك الظروف الصعبة . يقول صاحب لسان الغيب : « بعض المؤرخين يقول لّما كان أبو عبد الله الحسين (ع) لا يُخفي شيئاً عن أهله وأصحابه ، فإنه كان عليه أنْ يذهب إلى خيمة النساء والأطفال ليُخبرهم بشهادة (مسلم) في الوقت الذي يوجد بينهم عدد من عائلة (مسلم) ، أطفال (مسلم) وإخوته الصغار ، أخته وبعض أخوات عمومته وأقربائه » .

فكيف يُطلعهم أبو عبد الله على هذا الخبر لقد كان لـ(مسلم) بنت صغيرة فنادى ابنة (مسلم) وقال: إيتوني بها. فجاؤوا بابنة (مسلم) فأجلسها على ركبتيه وصار يُلاعبها ، لقد كانت البنت ذكية ، وشديدة الملاحظة إذ رأت أنّ الملاطفة التي تراها الآن ملاطفة غير عادية ، ملاطفة الأب لبنته ولذلك قالت له : يا أبا عبد الله ! يا بن رسول الله ! إذا مات أبي فكم . . .[1] ؟ فتأثر أبو

---

(١) العبارة هكذا ناقصة في أصل الشريط .

عبد الله ، وقال لها : بُنَيّة أنا محلُ أبيك !! فارتفعت أصوات البكاء من أهـل بيت أبي عبد الله (ع) . وعندها توجه عليه السلام نحو أولاد (مسلم) وقال لهم : يا بني عقيـل ! إنكم أعطيتم (مسلم) وهـذا يكفي . يكفي بني عقيـل أنهم أعـطوا (مسلماً) ، فـإن أردتم الرجوع فارجعوا . فقال بنو عقيل : يا أبا عبد الله ! يـا بن رسول الله ! إننا لم نكن قد قدّمنا (مسلماً) شهيداً وكُنا معك ، فكيف بنـا بعد أنْ أصبحنا نطالب بدم مُسلم . فهل نتركك لوحدك ؟ والله لا نـبرح حتىٰ نُدرك ثـأرنا أو نذوق كما ذاق مسلم !!

ولا حول ولا قوة إلاّ بالله العلي العظيم
وصلى الله على محمدٍ وآله الطاهرين .



المحاضرة الثانية

أدوات ووسائل إبلاغ الرسالة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين بارىء الخلائق أجمعين والصلاة والسلام على عبد الله ورسوله وحبيبه وصفيّه سيدنا ونبيّنا ومولانا أبي القاسم محمد صلى الله عليه وآله وسلم وعلى آله الطيبين الطاهرين المعصومين . ﴿ **الذين يُبلّغون رسالات الله ويخشونَهُ ولا يخشون أحداً إلاّ الله وكفى بالله حسيباً** ﴾[1] .

لقد قلنا في المحاضرة السابقة إنّ نجاح أية رسالة رهن بتحقق الشروط اللازمة لها ، وقلنا إنها أربعة شروط أولها يرتبط بالرسالة نفسها ، بمقدار غناها وقدرتها المعنوية وبتعبير القرآن بحقانيّة الرسالة نفسها . وهذا شرط لا يتعلق بالرسول ، بل بالرسالة نفسها كما أسلفنا .

والقول بأنّ حقانيّة أية رسالة بحد ذاته عامل مؤثّر للغاية في نجاح تلك الرسالة أمر لا يقبل التشكيك ، لا من الزاوية العلمية والنفسية والروحية ؛ ولا من ناحية المنطق الديني والعقيدي .

والقرآن الكريم طالما يؤكد على أنّ حقانية الرسالة عامل بحد ذاته مؤثّر في

---

(١) سورة الأحزاب : الآية ٣٩ .

بقاء الرسالة ودوامها ، وفي المقابل فإنّ كون الرسالة على باطل ، أو عديمة المحتوى والأثر والفائدة ، أيضاً بحد ذاته عامل مساعدٌ على فناء تلك الرسالة ، والقضاء عليها من داخلها .

قال الله تعالى في كتابه الكريم : بسم الله الرحمن الرحيم ﴿ **أنزل من السماء ماءً فسالت أودية بقدرها فاحتمل السّيلُ زَبَداً رابياً ومما يوقدون عليه في النار ابتغاء حلية أو متاع زَبَدٌ مثلُهُ كذلك يضرِبُ الله الحقّ والباطلَ فأما الزَبَدُ فيذهبُ جُفاءً وأمّا ما ينفعُ الناس فيمكُثُ في الأرض كذلِكَ يَضْربُ الله الأمثال** ﴾[1] .

هناك عوامل أُخرى لنجاح أية رسالة لا ترتبط بماهية ومحتوى الرسالة . إنّ أية رسالة تُريد الانتقال من روح إلى روح أخرى ، وتنفذ إلى داخل أرواح الناس ، وتضعُ المجتمع تحت تأثيرها المعنوي لا شك بحاجة إلى رسول . إنّ خصائص وشخصية الرسول ، والكفاءات المطلوبة فيه ، والشروط اللازمة لحامل الرسالة ، كلها أمور أخرى ليس هنا مجال البحث حولها .

العامل الآخر المطلوب هو الوسائل والأدوات المتخذة لإبلاغ الرسالة . فالرسول لا بد أنه بحاجة إلى سلسلة من الأدوات والوسائل الضرورية والتي بدونها لا يمكنه إبلاغ رسالته إلى الناس . والعامل الرابع يتمثل في الطريقة والمنهج والأسلوب الذي يتبعه الرسول . أي كيفية إبلاغ الرسالة . إذن هناك أربعة عوامل مؤثرة في نجاح أو فشل أية رسالة هي :

١ ـ ماهية الرسالة (حقانيّة الرسالة وغنىٰ مضمونها) .

٢ ـ خصائص شخصية الرسول .

٣ ـ وسائل وأدوات الإبلاغ .

٤ ـ الكيفية والمنهج المتّبع في أداء الرسالة .

---

(١) سورة الرعد : الآية ١٧ .

والآن نستمر في بحثنا فنتحدث حول الوسائل والأدوات اللازمة لإبلاغ الرسالة . ونقول : إنّ أية رسالة إذا ما أُريد لها أن تصل إلى الناس لا شكّ أنها بحاجة إلى الوسيلة والأداة . فأنا لو أردت مثلاً إبلاغكم رسالة ما لن يكون بمقدوري ذلك دون استخدامي لوسيلة أو أداة معينة . أي إنه ليس بإمكاني وأنا جالسٌ هنا أن أُلقي إلى قلوبكم بهذه الرسالة هكذا بواسطة الإشراف ودون استخدام أية وسيلة تُذكر . فالحدّ الأدنىٰ المطلوب مني استخدامه هو اللفظ ، أو الحديث ، أو الخطابة والمحاضرة ، أو الكتاب والكتابة أكان ذلك نثراً أو شعراً . حتىٰ هذا المنبر الذي أُخاطبكم الآن من خلاله ما هو في الحقيقة سوىٰ وسيلة وأداة للتبليغ ، وهذا (الميكروفون) الموضوع هنا بحد ذاته عبارة عن أداة ووسيلة للحديث وإبلاغ الرسالة إلى غير ذلك من الوسائل الأخرى .

بالطبع فإنّ الشرط الأول لإبلاغ الرسالة الإلهية يتمثل بمشروعية الوسائل المستخدمة في التبليغ . أي إنه لا يجوز القول بأنه ما دام الهدف مقدساً ويتمثل في إبلاغ الرسالة الإلهية فإنه يجوز لنا استخدام الوسائل والأدوات كيفما اتفق سواء أكانت تلك الوسائل مشروعة أو غير مشروعة .

ولا يجوز القول بأنّ الغاية تُبرّر الواسطة ، أي إنّ الغاية تُبرّر المقدمات المطلوبة للوصول إليها . وإنه يكفي أن يكون الهدف صحيحاً ولا حاجة بعد ذلك للنظر إلى المقدمة .

إنّ مبدأ كهذا مرفوض في منهج الإسلام . لأنّ اتخاذ أية خطوة باتجاه تحقيق الهدف المقدس يتطلب منّا استخدام الوسائل المُقدسة لذلك أو كحد أدنىٰ اتخاذ الوسائل المشروعة . فإذا كانت الوسيلة المتوفرة وسيلة غير مشروعة فلا يحق لنا استخدامها .

فهناك للأسف البعض ممن يستخدم وسائل وأدوات غير مشروعة من أجل الوصول إلى أهداف بحد ذاتها مشروعة ولو دققنا في هؤلاء الناس نرى أنهم في الحقيقة إنما يتخذون من تلك الوسائل بالذات أهدافاً وغايات وما حديثهم عن الغايات المشروعة سوى محض ادّعاء .

فعلى سبيل المثال يمكن ذكر موضوع التمثيل والمسرحية التي تقام في عاشوراء (وتسمى بمسرح الحسين) [وهو أمر كان كثير التداول في (طهران) سابقاً] وهو في الواقع نوع من التمثيل المسرحي لحادثة كربلاء ، وتمثيل قضية كربلاء ، أمر بحد ذاته ليس فيه إشكال ما دام الأمر لا يتعدى موضوع عرض واقعة كربلاء على شكل مسرحية ، لكننا رأينا ذلك بأعيننا ، كما أنّ الكل يعرف ، بأنّ مسألة التمثيل كانت قد أصبحت بحد ذاتها هدفاً للناس ، ولم يعد الموضوع موضوع الإمام الحسين (ع) وعرض قصة كربلاء ، وتمثيل الواقعة ، فقد دخلت *عناصر وقضايا كثيرة على العملية جعلتها أشبه بكل شيء عدا حادثة كربلاء ،* وقضية الإمام الحسين (ع) .

وما أكثر الخيانات ، والأكاذيب ، وأعمال الضلال والخدع ، وتحقق اللذات التي كانت ترتكب في هذا المجال وكانت تصل أحياناً إلى ارتكاب الحرام الحتمي . فالبعض منهم لم يكن معتقداً ولا ملتزماً بأيّ شيء .

فأنا أذكر ذلك منذ طفولتي حيث كانت هذه القضية باستمرار مورد نزاع بين والدي رضوان الله عليه وبعض الناس ، وقد استطاع الوالد بسبب نفوذه الواسع آنذاك من التخفيف من حدة تأثيراتها السّلبية ، وقد كان يقول لهم : « إنكم تقومون بأعمال هي في حكم الحرام قطعاً باسم الإمام الحسين (ع) وهذا أمرٌ لا يجوز أبداً » .

كما أنني أتذكر تلك السنوات التي عشتها في (قم) ، وكم من هذه المسرحيات المبتذلة التي كانت تعرض على الناس آنذاك . في السنين الأولى لمرجعية المرحوم آية الله (البروجردي) ـ رضوان الله عليه ـ حيث كان في أوج نفوذه جاء إليه البعض وشرح له وضع هذه المسرحيات ، والوضع العام المبتذل الذي يرافقها ، فدعا سماحته في حينها جميع رؤساء الهيئات الحسينية إلى اجتماع في منزله وسألهم يومها أيّ المراجع تُقلِّدون؟ فقالوا له جميعاً : « نُقلِّدك أنت » . فقال لهم سماحته : « إنّ فتواي بشأن هذه المسرحيات والتمثيلات التي تقيمونها بالشكل الذي سمعتُ فيه حرام في حرام » . فهل تعرفون ماذا كان ردّهم عليه ؟ قالوا

له : « مولانا ! نحن نُقلِّدك طوال العام ما عدا هذه الأيام الثلاثة أو الأربعة فنحن لسنا من مُقلِّديك !!» قالوا له ذلك ، ولم يعتنوا بحديثه وفتواه ، وفعلوا ما كانوا يُريدون فعله .

أنّ هذا يبيّن بوضوح أن الهدف ليس الإمام الحسين (ع) وليس الإسلام ، الهدف هو المسرحية والتمثيل بحد ذاته وما تخفيه من فوائد ، أو قل من لذات واستمتاع رخيص . كان هذا هو الشكل أو الطريقة القديمة لهذا الموضوع .

أما اليوم فإننا نرى التشويه للتاريخ يجري بشكل آخر على الطريقة الحديثة كما يقال ! وذلك من خلال ما يُسمىٰ بمسرح العرفاء والفلاسفة الذي يدعون إليه بين الحين والآخر تحت غطاء الاحتفال بالذكرىٰ السنوية للعارف الكبير (المولوي) ، وإقامة مؤتمر كبير لهذا الغرض ثم يقولون بأنّ العرفاء كان لهم مجلس يُسمىٰ بمجلس الطرب والسماع . وبالرغم من أنّ مجلس السماع بحد ذاته مورد إشكال ، ولكن حتىٰ لو افترضنا أنّ ذلك العارف كان يُنظم مجلس طرب وسماع فعلاً أيام حياته ، ولا أُريد الخوض هنا أيضاً بمشروعية أو عدم مشروعية هذا المجلس ، لكنه بالتأكيد لم يكن كمجالسهم التي يقيمونها اليوم باسمه حيث يأتون بعددٍ من الراقصين والمطربين ويُحيون بواسطتهم مجلساً لا علاقة له بالعرفان لا من قريب ولا من بعيد .

وهذا ما حصل بالفعل في ذكرى مرور سبعمائة عام على العارف الكبير مولانا (مولوي)[1] . وذلك عندما أقاموا حفلاً راقصاً أعدّ من أجل الطرب والشهوة واللذة باسم ذلك الرجل العارف الذي يأبىٰ شأنه أن يكون كذلك !

مرةً أخرى نقول إذا كان الهدف مشروعاً فينبغي أن تكون الوسيلة مشروعة أيضاً . ولكن يخرج علينا من جهةٍ ثانية أناس لا يقبلون حتىٰ باستخدامنا للوسائل المشروعة ، حيث يتطلب الأمر أحياناً جهداً كبيراً لإقناعهم بضرورة استخدام الوسائل الحديثة المشروعة . حتىٰ هذا الميكرفون الذي نخاطبكم اليوم من

---

(١) يشير الشهيد هنا إلى المؤتمر الفاضح الذي أقامه العهد البائد تحت هذا العنوان .

خلاله ، فهل تتصورون حجم المعارضة التي جوبهنا بها لاستخدامنا له ؟!
فلماذا كل هذه المخالفة ؟ أليس الميكرفون بالنسبة للصوت ، مثل النظارات بالنسبة للعيون ، ومثل السمّاعة للأذن . فالإنسان صاحب السمع الثقيل بعد استعماله للسماعة يصبح سمعه طبيعياً ، ويصبح مثلاً يسمع القرآن بعد أن كان لا يسمعه كما أنّه يصبح يسمع السب والشتيمة جيداً بعد أن كان لا يسمعها .
وهذا أمرٌ لا علاقة له بالسماعة والحالة هي نفسها مع الميكرفون ،فالميكروفون ليس أداةً مخصصة لعمل الحرام .

فالوسيلة التي يحرم استعمالها هي تلك الوسيلة المخصصة لفعل الحرام فقط ولا يمكن استخدامها لغير فعل الحرام . كالصليب مثلاً أو الصنم فهي أدوات لا يخرج منها إلا عمل الشرك ولكن لماذا يحرم استعمال الوسائل التي يمكن استخدامها في الحرام كما يمكن استعمالها لعمل الحلال ؟

ينقل أحد وعّاظ المنبر الحسيني المشهورين أنّه وفي السنوات الأولى التي اكتشف فيها الميكرفون ، وبينما كان قد بدأ لتوه في استخدام الميكرفون في الحديث من على المنبر أو بتعبيره ـ بعد أن صرنا نستمتع في قعدتنا ـ (الحقيقة أنّ للميكروفون فضلاً كبيراً على حياة الوعّاظ فلو رجعنا إلى ما قبل ثلاثين سنة خلت لرأينا أنّ الوعّاظ الذين كانوا يعمّرون حتىٰ الـ٧٠ عاماً قليلون ، فأغلبهم كان يفارق الحياة في سني الأربعين والخمسين عاماً ، وأحد أسباب موتهم السريع *تمثل في الواقع بعدم وجود الميكرفون آنذاك مما كان يضطر الواحد منهم إلى الصراخ الدائم حتىٰ يُسمع صوته* للجميع . والسبب الآخر كان عدم وجود السيارة آنذاك إذ كان مُجبراً على ركوب الجحش أو الحمار مباشرةً بعد خروجه من المجلس وهو أمرٌ مُضر بالصحة لا سيما في فصل الشتاء وهكذا فإن الميكرفون جاء بمثابة المنقذ لهم) . ولكن استعماله لم يكن قد شاع وانتشر بعد ، يقول ذلك الواعظ إنّه صادف أن أحد الوعّاظ الذين يسبقوني في القراءة ممن لا يُطيقون تحمل الميكرفون أنْ صرخ بأعلى صوته قائلاً : أبعدوا عني قبر الشيطان ! فما كان من القائمين على العزاء إلاّ أن وضعوا الميكرفون جانباً بالفعل ، لكنني رأيت أنّ الموقف لا يناسبني بهذا الشكل وإذا ما سكتُ اليوم

فإنّهم سيحرمونني من نعمة الميكرفون على الدوام فلمّا جاء دوري قلتُ لهم بصوت عالٍ : إيتوني بلجام الشيطان هذا يرحمكم الله !!

الهدف القول إنّ هذا الجمود الفكري والتخلّف الذي يُسيطر على أذهان البعض منّا ليس في محله أبداً . فما هو ذنب الميكرفون ؟ فأجهزة الراديو والتلفزيون والسينما بحد ذاتها ليست هي المذنبة . المهم أنْ نرى المضمون ! ماذا يُقال في الراديو؟ وماذا يُقال ويُعرض في التلفزيون هو المهم؟ وماذا يُعرض في قصة الفيلم من موضوعات هو المهم ؟ وهنا لا يجوز للإنسان أنْ يتحجر في تفكيره ويحوّل الشيء المشروع والحلال بحد ذاته إلى شيء حرام وغير مشروع !!

ومن أجل أنْ نعرف كيفية استخدام الإسلام للوسائل المتاحة آنذاك وكيف أنّ تلك الوسائل قد لَعبت دوراً مهماً وأساسياً في إبلاغ رسالة الإسلام للعالم دعونا نعود إلى الوراء ، إلى سيرة القرآن الكريم نفسه ، فهل فكرتم يوماً في موضوع فصاحة وبلاغة وسلاسة آيات القرآن الكريم ، في سهولتها والجاذبية التي تُميِّزها ؟

فالقرآن يحملُ في داخله ميزتين أساسيتين الأولى تتعلق بمضمون ومحتوى الرسالة وهي ما يُطلق عليها بالحقانيّة . وأما الأخرى فهي ميزة الجمال .

إنّ نصف النجاح القرآني عائدٌ إلى كون القرآن مقولة جمال وفن . فللقرآن فصاحة تفوق فصاحة البشر ، ويعود نفوذه إلى الجمال الذي يمتاز به ، والفصاحة وجمال الخطابة هما أفضل وسيلة لانتقال محتوىً ومضمون أي حديث من طرف إلى آخر .

والقرآن الكريم لا يترك فرصةً إلاّ ويُعبّر فيها عن هذه المميزات القرآنية وجمال التصوير القرآني . وهناك العديد من البحوث التي تناولت تأثير آيات القرآن في الإنسان نفسه ! وهذا التأثير يرجع إلى الأسلوب القرآني ذاته أي فصاحة القرآن وجماله . قال تعالى :

﴿ اللهُ نَزَّلَ أحسَنَ الحديث كتاباً مُتشابهاً مثانيَ تَقْشَعِرُّ منه جُلُودُ الذين

يخشون ربّهم ثم تَلِينُ جُلُودُهم إلى ذكر الله ذلِكَ هُدى الله يهدي به من يشاء ﴾[1] كما يقول تعالى في آية أخرى :

﴿ إنّما المؤمنونَ الّذين إذا ذُكِرَ الله وُجِلَتْ قُلُوبُهم وإذا تُليت عَليهم آياتُهُ زادَتهُم إيماناً وعلى ربهم يتوكلون ﴾[2] . وقوله تعالى :

﴿ يخرُّون للأذقانِ سُجّداً ﴾[3] أو كما ورد في قوله تعالى حول المسيحيين : ﴿ وإذا سَمِعوا ما أُنزِلَ إلى الرسول ترى أعيُنَهُم تَفِيضَ من الدمع ﴾[4] .

هل تعرفون أساساً كيف حصل الانقلاب في الحبشة ؟ ومن أين بدأ انقلاب الحبشة أساساً ؟ وماذا حصل حتىٰ صارت الحبشة مسلمة ؟

فهل هناك غير القرآن وجماله ؟ إنها تلك القصة المفصّلة المعروفة حول دخول جعفر بن أبي طالب إلى ذلك المجلس المهيب والوقر ، والقاعة الضخمة ، ذات الهيبة السلطانية التي ما إنْ دخل إليها جعفر وشرع في قراءة آيات القرآن (سورة طه) حتىٰ انقلبت الجلسة رأساً على عقب . فما الذي حصل ؟! إنها تركيبة القرآن اللغوية والجمالية فبيانه وفصاحته تخلقان جواً روحياً وجاذبيةً وقدرة فائقة في التأثير على القلوب والأنفس .

إنّ إحدى ركائز النجاح لأمير المؤمنين علي (ع) تتمثل في فصاحته وبيانه فـ(نهج البلاغة) يعتبر من التأليفات التي مر على زمان صدوره بشكل كتاب ما يُقارب الألف سنة . وموضوعات (نهج البلاغة) من خُطب وأقوال وحكم مر على قولها ما يُقارب الألف وثلاثمائة وخمسين عاماً (بالتقويم القمري) . هذا الأثر الأدبي البليغ كان وما يزال مُحافظاً على قيمته وأثره الثمين .

---

(١) سورة الزمر : الآية ٢٣ .
(٢) سورة الأنفال : الآية ٢ .
(٣) سورة الإسراء : الآية ١٠٧ .
(٤) سورة المائدة : الآية ٨٣ .

وقد تتبعتُ مرة وتفحصت جيداً تاريخ الأدب القديم والمعاصر ابتداءً من عهد أمير المؤمنين علي (ع) حتىٰ يومنا هذا فرأيت أنّ كافة الأدباء والفُصحاء من أهل لغة الضاد إنما يقفون خاضعين أمام فصاحة وبلاغة هذا الأثر العظيم .

وما يُذكر في هذا المجال أنّه دُعي مؤخراً في القاهرة إلى احتفال ضخم لتكريم وتقدير الأستاذ الشهير (شكيب أرسلان) المعروف باسم أمير البيان وأنه قد صعد إلى المنبر رجل من الحاضرين وحاول أنْ يصف (شكيب أرسلان) ويثمنه عالياً ، فقارن بينه وبين أمير المؤمنين (ع) وقال عنه إنه أمير بيان عصره كما كان عليّ أمير بيان عصره . ولكن ما أنْ جاء دور (شكيب أرسلان) في الحديث حتىٰ بدت عليه معالم العصبية والحنق وقال ما هذه السفاسف التي قيلت بشأني في هذا الحفل ؟ فهل تُقارنونني بعلي ؟! إنني لا أُساوي خيطاً في نعل علي . فأين بياني من بيان علي ؟!

نعم فنحن نرىٰ في عصرنا هذا بالذات من يستمع إلى خُطب علي (ع) ولا يستطيع أنْ يتمالك نفسه ، فتجري دموعه كالسيل من مآقيه دون اختيار ، فمن أين أتىٰ هذا التأثير ؟ إنه من جمال خطاب علي (ع) .

ولدينا نماذج كثيرة من هذا القبيل من الناس في زمن علي (ع) نفسه ، يقال إنه لَمّا أتمّ (ع) خطبته الغرّاء المعروفة والتي يبدو أنه أنشأها في الصحراء كان الحضور جميعاً قد غرقوا في البكاء .

والقصة انّ هناك رجلاً اسمه « همام » طلب يوماً من أمير المؤمنين (ع) أنْ يصف له صورة الأتقياء ، فامتنع عليه السلام في البداية ثم اكتفىٰ بثلاث جمل بسيطة مختصرة . فما كان الرجل ليكتفي بل طلب المزيد من التوضيح والرسم الكامل للصورة ، وعندها شرعَ علي في وصف صورة المتّقين وهو جالسٌ في ذلك المجلس وقال إنّ ليلهم هكذا ونهارهم هكذا ولباسهم هكذا ومعشرهم هكذا، وقراءتهم للقرآن هكذا . . . وقد أحصيتها مرةً فكانت مائة وثلاثين صفةً وردت في أربعين جملةً قرأها علي (ع) في ذلك المجلس ، وظل الرجل يستمع إلى الخطبة

بوجلٍ شديدٍ وكانت حرارته ترتفع باستمرار وما أن انتهى علي من الخطبة حتى صرخ الرجل صوتاً ومات ، فالرجل لم يَعُد يحتمل وطاقته المحدودة كانت قد وصلت إلى نهاياتها ، فقال علي أمير المؤمنين وقتها : « هكذا تصنعُ المواعظ البالِغةُ بأهليها »[1]

لنأخذ موضوع الدعاء مثلاً . صحيح أنّ الإنسان يخاطبُ ربّه في الدعاء ، وبالتالي فإنّ اللفظ والخطاب ليس له أثر كبير في هذا المجال . لكنّ أدعيتنا بالإجمال تتصفُ بدرجة عالية من الفصاحة والجمال . لماذا ؟ ذلك أنّ جمال الدعاء ينبغي أنْ يكون عاملاً مساعداً في إيصال مضمون الدعاء إلى قلب الإنسان . ولماذا يُقال إنّه من المُستحبّ أنْ يكون المؤذِّنُ « صَيّتاً » أي صاحب صوت جميل ؟

إنّه أمرٌ يرد بحثُه في متن الفقه الإسلامي . فكلمة (الله أكبر) لا يختلف معناها سواء قالها الإنسان بصوت جميل أو بصوت بشع ، كذلك عبارة (أشهد أنّ لا إله إلا الله) ، لكن الإنسان عندما يسمع الله أكبر من صاحب الصوت الجميل تختلج أحاسيس قلبه بشكل يختلف عنها في حالة سماعه (الله أكبر) نفسها من صاحب الصوت البشع .

لقد شهدت يوماً مجلساً للعزاء وقد خصصوا أحد كبار المُسنين من الأعياء ومن أصحاب اللسان الثقيل وأوكلوا إليه مهمة إرسال الصلوات فتعجبتُ كثيراً لهذه الحالة المأساوية لأن الرجل كان لا يستطيع إرسال الصلوات إلّا بعد جهدٍ كبير وبعد أنْ يهتز بدنه كله ، حتى يصبح في حالة سخرية لا يُحسَدُ عليها ، وتساءلتُ بيني وبين نفسي سبحان الله ! لم يبق أحد يُرسل الصلوات غير هذا الرجل المسكين ؟ وهل إنّ المطلوب منّا أنْ نختار أسوأ الأصوات لهذه المهمة ؟!

وفي هذا المجال بالذات يذكر لنا سعدي ـ الشاعر الإيراني المعروف ـ قصةً لا بأس من نقلها هنا : كان هناك مؤذن في إحدى المدن ، يتميز بصوته النشاز ،

---

(١) نهج البلاغة ـ فيض الإسلام . الخطبة ١٨٤ وهي معروفة بخطبة همام ص ٦١٨ .

والبشع ، ومرت الأيام عليه وإذا بيهودي قد أقبل إليه يوماً وقال له : « هل تقبل مني هذه الهدية البسيطة؟» فقال له : ولماذا؟«قال له اليهودي : «لأنّك قد خدمتني خدمةً كبيرة » ، فسأله المؤذن : « وما هي الخدمة ؟ فأنا لم أخدمك بشيء » ، فقال اليهودي : إنّ لي بنتاً كانت قد بدأت منذ مدة تميل إلى اعتناق الدين الإسلامي ولكنها منذ أنْ بدأت تستمع إلى صوت أذانك عادت إلى رشدها وبدأت تشمئز من الإسلام ، وأنا الآن بدوري فَرِحٌ لأنك ساهمت بعودة ابنتي إلى دينها فجئت لك بهذه الهدية !» وهذا شيء يؤلم في الواقع .

هناك حديث رفيع وظريف جداً لـ (ابن سينا) ورد في مقامات العارفين ،يتحدث فيه عن كيفية ظهور التجمّع الروحي عند الإنسان ، فيذكرُ عدة عوامل مؤثرة بهذا الخصوص من جملتها قوله : « الكلام الواعِظُ من قائل زكيٍّ » . ونحن عندما نسمع بهذه العوامل سنرى كيف أننا لا نحمل كثيراً منها في داخلنا ! نعم فالواعظ نفسه لا بد له وأن يكون طاهر القلب ، نقياً ، بعد ذلك يقول : « بعبارةٍ بليغةٍ ونغمةٍ رخيمة »

نعم فكلامه لا بد وأنْ يكون بليغاً حتىٰ يدخل أثره إلى أعماق أرواح المستمعين . ثم إنّ مظهر الواعظ نفسه عامل مؤثر آخر في حجم الأثر الذي يتركه الخطاب .

وتراني الآن أعرضُ عليكم هذه العوامل حتىٰ نفهم أنّ طريقة ووسيلة الانتقال والإيصال بحد ذاتها أمر مهم .

إنها الخصوصيات والكيفية والوسائل المطلوب توافرها لدى الرسول الذي يُريد إبلاغ رسالته ونشرها في الأطراف والأكناف .

هناك مسألة أُخرى أحبّ تبيانها لكم ، وهي مسألة قراءة القرآن . صحيح أنّ القرآن ليس مثل الأذان : فالأذان مطلوب من شخص أن يذهب إلى المئذنة ويؤذن في الناس ، وقلنا إنه يُستحب أنْ يكون صيِّتاً ، لكن القرآن يقرأه الجميع .

وعليه فإنه مطلوب من الجميـع الذين يقـرأونه أن يقـرأوه قراءة جميلة . وهـذا أمرٌ مؤثّر في روح القارىء كما في روح المستمع .

فهـذا هـو القـرآن الكـريم حيث يقـول تعـالى فيـه : ﴿ ورتّـل القـرآن ترتيلاً ﴾[1] فماذا يعني ذلك ؟ إنه يعني أنك عندما تقرأ القرآن ينبغي عليـك أن لا تقـرأهُ مُتصلاً بشكـل سريع ولا أن تضـع الفواصـل الكثـيرة بـين الكلمات . بـل المطلوب قراءة تتصف بحـالة الإلقـاء المتّسق المتناسق ، أي اقـرأ القـرآن بشكـل وكأنك تُخاطِبُ نفسـك ، أو كـما يقول العـرفاء فـإنّ المطلوب من الإنسـان أن يقرأ القرآن بشكل يفترض فيه أنّ الله يخاطبه الآن حين القراءة وأنّ المُخاطَب الدائم هو القارىء نفسه وأنّه في حالة استماع وتلقٍّ مباشر من الله تعالى .

يقول (إقبال اللاهوري) إنه سمع مرةً حديثاً من أبيه ترك له أبلغ الأثـر في حياته ، وخلاصة الحديث كما يرويه (محمد إقبال) نفسه : إنه صادف أنْ مَرّ علـيّ أبي ذات مرةٍ وانا منشغل في قراءه القرآن فقال لي : « يا محمد ! إقرأ القرآن بشكل كأنه قد نزل عليك » ولذلك تراني ومنذ ذلك الوقت لا أقرأ القرآن يوماً أو أتوجه لمطالعة آياته إلاّ وأتصوّر أنّه الله تعالى هو الذي يقرأ الآن وهـو يخاطبني الآن أيضـاً إنه (محمد إقبال) .

ولدينا في الحديث : « تغنّوا بـالقرآن »[2] وهـو حديث يتكـرر مضمونـه في أحاديث كثيرة أخرى . والمقصود قطعاً هو قراءة القرآن بلحن جميل جداً ، بالطبع ليس المقصـود هنـا بـالألحـان هي تلك الألحـان التي تـوحي وتنـاسب اللهـو واللعب والشهوة فإنها قطعاً حرام وغير مشروعة ولكن كل لحن يتنـاسب مع حـالة معينة عند الإنسـان .

عندما كنتُ طالباً في الحوزة العلمية في مشهد كان هناك رجل يُـدعى السيد (محمد عرب) وكان قارئاً ممتازاً للقرآن الكريم ، وكان رجلاً متديناً ويحـترمه علماء

---

(١) سورة المزمل : الآية ٤ .

(٢) بحار الأنوار ج ٩٢ ص ١٩١ . جامع الأخبار الفصل ٢٣ ص ٥٧ .

مشهد كافة ، وكان هذا الرجل يهتم جداً بتربية جيل من الطلبة يتقنُ قراءة القرآن على الأصول فقد كان يُعلم تلاميذه أولاً قواعد علم قراءة القرآن ، وهو أمر مفقود في إيران للأسف الشديد ، لكنه منتشر في الدول العربية ولا سيما في مصر ، بالإضافة إلى تعليمهم عدداً من الألحان (والتي كان يُطلق عليها ألحان) الخاصة التي كان يُعلّمهم إياها في مسجد (گوهر شاد) الشهير في (مشهد) . وكان في تلك الأيام عدد من الألحان التي تشبه في تسمياتها أسماء الألحان الموسيقية المعروفة ، لكنها طبعاً ألحان قرآنية خاصة . فكان الطلبة يتعملون هذه الألحان القرآنية اللطيفة . وهذه مسألة هامة لا بد لنا أن نروّجها . فإحدى معاجز القرآن تكمن في قابليته على استيعاب الألحان ، الألحان المعنوية والروحية بالطبع لا يحتاج ألحان اللذة والشهوة . وهو أمرٌ يحتاج بالضرورة إلى رجال متخصصين .

أتعرفون لماذا انتشر صوت (عبد الباسط عبد الصمد) بهذا الحجم الكبير في العالم الإسلامي كلهُ ؟ الجواب لأن عبد الباسط كان يقرأ القرآن بصوت ولحن جميلين وكان يعرف أنواع القراءات والألحان ، ويعرفُ بالضبط كل سورة بأي لحن تُقرأ . فمثلاً هناك لحن يناسبُ سورة (الشمس) وآخر يُناسب سورة (والضحى) .

ورد في الحديث حول عدد من الأئمة الأطهار سلام الله عليهم ومن جملتهم الإمام السجّاد والباقر عليهما السلام ، بأنهم عندما كانوا يقرأون القرآن فإنهم كانوا يُرتّلونه بصوت رخيم ، ولحن جميل أخّاذ ، حتىٰ إنّ صوت قراءتهم كان يطير بالأفاق ويملأ فضاء الزقاق مما كان يدفع المارة إلى التوقف عند بابهم ويُقال إنه وطوال المدة التي كان يقرأ فيها الإمام القرآن بلحنه الجميل ، وصوته اللطيف ، كان الناس المارة يتجمعون حول بيته إلى درجة أنّ الزقاق يصبح غير قابل للمرور من شدة التزاحم ، بل ويقال أيضاً إنّ الناس كانت تقف لتستمع إليه وهي تحمل على أكتافها قِرب المياه الثقيلة التي ملأتها من البئر وهي في طريقها إلى البيت ذلك أنّ صوت الإمام الجذّاب كان يمنعهم من متابعة المسير ، ويُسمّر أرجلهم على الأرض ، ويفقدهم القدرة على تحريكها ، إلى أنْ ينتهي الإمام من قراءة القرآن .

(كانت العادة قديماً أن يحمل الأشخاص قرباً من الجلد ليملأوها من مياه الآبار المنتشرة في المدينة وذلك للاستخدام في المنازل ، ذلك أنّ المدينة لا يوجد فيها نهر بل مجموعة من الآبار فقط) فماذا يعني كل هذا ؟ يعني أنّه مطلوب منّا أن نستعمل ونستخدم الوسائل المشروعة من أجل إبلاغ الرسالة الإلهية على أحسن وجه .

لماذا تُرى يقرأ الإمام القرآن بلحن جميل ونغم رخيم جداً ؟ فلا بدّ أنه كان يُريد أداء وظيفة تبليغ القرآن من خلال ذلك . إنّه يُريد إيصال صوت القرآن ورسالة القرآن بهذه الطريقة .

خذ قضية الشعر مثلاً في الإسلام فترى مسائل عجيبة حوله :

فالنبي حارب الشعر كما روّج له في نفس الوقت ، فهو حارب الشعر غير الملتزم ، أي الشعر غير الهادف والخيالي المحض ، شعر التسلية والأكاذيب ، كأن ينظم أحدهم شعراً في وصف سلاح فلان ، أو فرس فلان ، أو وصف معشوقة هذا ، أو شَعْرَهَا ، أو ينظم شعر الهجاء والمديح ، مقابل الحصول على المكافآت المالية .

فالنبي حارب مثل هذا الشعر بشدة وقال في هذا المجال : « لأنْ يمتلىء جوفُ رَجُلٍ قَيْحاً خير له مِنْ أنْ يمتلىء شعراً »[1] لكنه ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ يقول في مكان آخر : « إنّ من الشعر لحكمة »[2] .

لقد كان من أصحاب النبي (ص) بعض الشعراء ، و(حسّان بن ثابت) الشاعر المعروف كان أحدهم . والتمييز بين هذين النوعين من الشعر لم يأتِ على ذكره النبي (ص) لوحده بل ورد ذكره في القرآن الكريم أيضاً . قال تعالى : **﴿ والشُعراء يَتّبِعُهُمُ الغاوون * ألم تر أنّهم في كُلّ وادٍ يهيمون * وأنّهم يقولون ما لا يفعلون * إلاّ الذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴾**[3] .

---

(١) نهج الفصاحة ص ٤٧٠ الحديث ٢٢١٥ .

(٢) الغدير ج ٢ ص ٩ .

(٣) سورة الشعراء : الآيات ٢٢٤-٢٢٧ .

نعم فلقد كان هناك شعراء يُقدِّرهم النبي (ص) والأئمة الأطهار (ع) ويشوقونهم ويشجعونهم في عملهم ، ولكن مَنْ هم هؤلاء الشعراء ؟

إنهم الشعراء الذين كانوا يُبلِّغون رسالة الإسلام إلى الناس عن طريق استخدام الشعر الجميل ، وإنّه لمن الطبيعي أنْ يكون الشعر أقدر من النثر في إنجاز هذه المهمة ، فالشعر له وزن خاص وقافية ، ولحن ، وأذهان الناس مستعدة لحفظ الشعر أكثر منها لحفظ النثر . لقد قال النبي (ص) بحق شاعر الرسالة المحمدية (حسّان بن ثابت) : « لا تزالُ مؤيَّداً بروح القدس ما ذَبَبْتَ عنّا أهل البيت »[1] . نعم فهذا هو قول الرسول الأكرم (ص) حول شاعر الحقيقة والإسلام وشاعر أهل البيت عليهم السلام .

كما أنّ شعراء عصور الأئمة (عليهم السلام) لم يُقصِّروا في خدمة الإسلام وأهل بيت النبوة . . .

فلدينا في التاريخ الإسلامي من الشعر الحماسي والتوحيدي الكثير سواء باللغة العربية أو الفارسية . (بالطبع هناك من نظم بالتركية ولغة الأردو (أي الباكستانية أيضاً) وهي أشعار راقية في الحكمة والموعظة . وكل هذه الأشعار إنما هي من نتائج وإنجازات الثقافة والتراث الإسلاميين .

إنّ الأثر الذي يتركه الشعر لا يمكن للنثر أن يترك مثله . وإعجاز (نهج البلاغة) يكمن بالتحديد هنا حيث ترى كل تلك الفصاحة والجمال النثري بالشكل الذي يفوق في تأثيره تأثير الشعر بكثير . إنّك لن تستطيع أن تجد صفحة واحدة من النثر بالفارسية يوازي شعر (الشاعر الكبير) سعدي . بالرغم من كثرة وجود النثر الأدبي الرفيع لدينا باللغة الفارسية مثل الكلمات القصار للخواجة (عبد الله الأنصاري) أو نثر (سعدي) نفسه .

الملاّ (جلال الدين الرومي) بكل اقتداره وقوة آثاره الأدبية ، لا تجد له أي

---

(١) الغدير ج ٢ ص ٣٤ وفي عبارة أخرى للغدير . (. . ما نصرتنا بلسانك) .

أثر نثري يُذكر عندما تُقارن مجالس الحكمة والوعظ النثري له مع الشعر الراقي الموجود باللغة الفارسية . باللغة العربية أيضاً لا نجد عندنا نثراً راقياً جداً بمستوى الرُقي الأدبي للشعر ـ بالطبع ما عدا (نهج البلاغة) وهو ما سبقت الإشارة إليه فالشعر بحد ذاته استطاع أن يلعب دوراً هاماً في التبليغ وهو قادرٌ على أن يلعب المزيد أيضاً .

بالطبع فالشعر السّيء يستطيع أنْ يلعب دوره السّيء كما أنّ الشعر الجيّد يستطيع أنْ يلعب دوره الجيّد كذلك . فأشعار الحكمة ، والتوحيد ، والمعاد ، والنبوة ، وأشعار مدح النبي والأئمة الأطهار ، أو الأشعار القرآنية ، أو ما أخذ طابع المرثية والرثاء الحسيني ، شرط أن يكون على خُطىٰ شعر شعراء عصر الأئمة ، كلها أشعار مفيدة قادرة على لعب دور بالغ ومفيد جداً .

لقد تطرقتُ مرةً في خُطبي إلى هذا الموضوع وقلتُ ذات مرةٍ بأنّ هناك تفاوتاً وفرقاً كبيراً بين رثاء (الكُميت) و(الخزاعي) والرثاء الذي نُظم في عصرنا الراهن من أمثال رثاء (الجوهري) أو (المحتشم) . فالفرق بين هذا وذاك لشاسع كالفرق بين الأرض والسماء . إنّ تلك المراثي كانت مفيدة جداً بينما هذه المراثي الجديدة ليست مفيدة وبعضها مُضر أيضاً .

إنّ (إقبال اللاهوري) أو (إقبال الباكستاني) كان عالماً عظيماً ومحترماً حقاً . إنه ذلك الرجل الذي كان يحس بثقل المسؤولية المُلقاة على عاتقه تجاه الرسالة المحمدية ولذلك تراه لم يترك وسيلةً مشروعة وخيّرةً إلّا واستخدمها في سبيل الإسلام .

ومن جملة تلك الوسائل التي استخدمها هي الشعر ، فليس هناك أحدٌ من شعراء اللغة الفارسية ، لا سيما في العهود المتأخرة ، يستطيع منافسة (إقبال) بشعره الهادف ، وإذا ما كان الشعر وسيلةً لدى الشاعر من أجل الوصول إلى هدفه فإنه عند ذاك يصبح لا نظير له على الإطلاق .

فـ(إقبال) كان ينظم الأناشيد الشعرية عندما كان الأمر يتطلب نشيداً ،

ولديه أناشيد رائعة جداً بهذا الخصوص نظمها بلغة الأردو وقد تمّت ترجمتها إلى اللغة العربية . وقد تُرجِمَتْ أخيراً من قبل السيد (محمد علي سفير) إلى اللغة الفارسية ، وتمت إذاعتها وقراءتها هنا من على منبر (حسينية الإرشاد) ، فما أروعها من أناشيد !

فأنا شخصياً قد بكيتُ لدى سماعها ورأيت الكثيرين ممن بكوا على أنغامها ، فلماذا لا نستخدم أسلوب الأناشيد ؟ إنّ هذه جميعاً وسائل لا بد منها ، فنحن اليوم لا يجوز لنا إغفال هذه الوسائل والإمكانيات الحديثة ، فقد ظهرت وسائل في العصر الحديث لم تكن متداولة في العصر القديم ، ولا يجوز لنا الاكتفاء بوسائل العصر القديم ، المهم أنْ نُميّز بين الوسيلة المشروعة والوسيلة غير المشروعة .

إنّ أبا عبد الله الحسين (ع) نفسه لم يترك وسيلة ممكنة إلاّ واستخدمها وهو في عز حرارة الشمس ، وذلك من أجل إبلاغ رسالته وإيصال رسالة الإسلام . انظروا إلى خطبه عليه السلام ابتداءً من (مكة) مروراً بالطريق إلى (كربلاء) وانتهاءً بـ(كربلاء) وحتىٰ يوم استشهاده ، إنّها خُطب مُهيجةٌ وعاطفيةٌ ومُحرِّكةٌ للغاية فضلاً عن جمالها وفصاحتها وبلاغتها المتناهية .

فالوحيد الذي استطاع في خطبه أنْ ينافس عليّاً أمير المؤمنين (ع) هو الحسين (ع) . حتىٰ إنّ البعض قال : « إنّ خطب الإمام الحسين (ع) ، في يوم عاشوراء ، أفضل من خطب أمير المؤمنين (ع) » . فهل دققتم في جمال تعبيراته ، وفصاحتها ، ورفعتها ، وهو يشرح أهدافه وغاياته بعد أنْ قرّر ترك (مكة) مُتجهاً نحو (الكوفة) .

لا بدّ للمرء من أن يعرف العربية جيداً حتىٰ يتمكن من إدراك جمال وحُسن التعابير الواردة في القرآن الكريم ، والحديث النبوي الشريف ، وأحاديث الأئمة الأطهار ، وأدعيتهم ، وخطبهم . إنّ الترجمة الفارسية لكل هذا لا تفي بالغرض ، فكيف يمكن إدراك مفهوم هذه الجملة الجمالية الرائعة : « خُطَّ الموتُ على وِلد آدم مخط القلادة على جيد الفتاة . . . » إلى أن يقول :

و« ما أولهني إلى أسلافي اشتياق يعقوب إلى يوسف » . إلى آخر الكلام الرائع والبليغ. حيث يقول لأصحابه بأنّ المصير الذي سَيُلاقيه لا بد وأن يكون في رضا الله وإنه مهما كانت الظروف فما علينا إلا الشكر له والرضا برضاه سبحانه وتعالى بقوله عليه السلام : « رضا الله ، رضانا أهل البيت »[1] .

إنّه الطريق الذي اختاره الله لنا ، وما دام كذلك فما علينا إلاّ انتخابه . إنها كلمات بسيطة لا تتجاوز السطرين لكن فيها تكمن قوة هائلة ، وأثر كتاب كامل من الحديث الحسن .

ثم يُنهي كلامه عليه السلام عندما يُريد إبلاغهم بما يُريده منهم بقوله لهم : « مَنْ كان باذلاً فينا مُهجتَهُ ، ومُوَطِّناً على لقاء الله نفسه ، فليرحل معنا ، فإنني راحلٌ مُصبحاً إن شاء الله » .

ثم انظروا إليه وإلى أصحابه كيف قضوا ليلة العاشر من محرم :

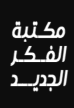
أصوات جميلة ، ورفيعة ، وعالية ، تعلو من خيامهم ، تتلو القرآن ، وهمهمة هنا ، وتواشيح هناك ، وأصوات ساحرة تجذب إليها قلوب الأعداء ، لعلّها تخضع خشوعاً لله .

لقد قُلت لكم بالأمس (في المحاضرة السابقة) إنّ أصحاب أبي عبد الله ، الذين قدموا معه من المدينة ، قلائل ، وربما لم يتجاوز عددهم العشرين نفراً . ذلك أنّ عدداً منهم قد تركوه في الطريق ، ولم يُتابعوا معه حتىٰ (كربلاء) .

إنّ أغلب أصحابه الاثنين والسبعين الذين حضروا معه معركة (كربلاء) هم إمّا ممن التحق به في كربلاء نفسها ، أو ممن ترك معسكر (عمر بن سعد) وانضم إلى معسكر الحسين (ع) في آخر لحظة ، ومن جملة أولئك الذين التحقوا به كانوا أولئك الذين مرّوا بالقرب من خيمته عليه السلام واستوقفهم صوتٌ رخيمٌ

---

(١) بحار الأنوار ج ٤٤ ص ٣٦٧ . مقتل الحسين للمقرم ص ١٩٣ . اللهوف ص ٢٥ . كشف الغمة ج ٢ ص ٢٩ .



من داخلها : إنه صوت تلاوة القرآن الكريم ، وذكر الله ، ذكر الركوع والسجود وسورة الحمد والسور الأخرى ، إنها أصوات خاشعة كانت تجذبهم وتؤثّر فيهم . . .

وهذا يعني أنّ أبا عبد الله وأصحابه لم يتركوا وسيلةً يمكن الاستفادة منها بأحسن وجه إلّا واستخدموها في حربهم للظالمين ، فهم قد عبأوا كل الوسائل والإمكانيات التي بحوزتهم في خدمة التبليغ والدعاية للمعركة الفاصلة . حتىٰ مسرح ترتيب الخيم ، ومسرح العمليات الحربية ، فقد رسم صورة ترتيبها عليه السلام بشكل عرض تاريخي مُثير ، وكأنه أراد لها أن تبقىٰ مشاهد تاريخية تهز الأبدان والنفوس في الأجيال إلى يوم يُبعثون .

يقول الراوي : إنّ أصحاب الحسين عليه السلام ظلوا يمنعون آل بيت النبوة ـ صلوات الله وسلامه عليهم ـ من النزول إلى ميدان القتال سواء أكانوا أولاد الحسين (ع) ، أو أبناء عمومته ، أو أخوته ، أو أبناء أخيه . إذا كانوا يقولون له : يا مولاي دعنا نُقاتل دونك نحن أولاً فإنْ نحن قُتِلنا جميعاً فعند ذلك أنت أعرف منّا . لكن شباب أهل بيته ، ورجالهم ، كانوا ينتظرون ، بفارغ الصبر ، تلك اللحظة التي سيأذن لهم فيها الحسين (ع) بالخروج إلى القتال . فما أن استشهد آخر رجل من أصحاب الحسين (ع) ، يقول الراوي ، حتى صارت التمتمات تخرج من كل أنحاء المعسكر « فجعل يُودّع بعضُهم بعضاً » .

وكان أول من استأذن الحسين (ع) ونزل إلى الميدان من أهل البيت (ع) هو الابن الأكبر للإمام علي الأكبر(ع) . وعليٌّ الأكبر هذا كان أشبه الناس خَلقاً وخُلقاً برسول الله (ص) وعندما كان يخطب كان المرءُ يرى وكأن جده رسول الله قد تمثّل فيه ، نعم فقد كان نسخةً طبق الأصل عن جده النبي محمد (ص) ولذلك ترى الحسين (ع) وهو يودعه يقول :

« اللهم اشهد على هؤلاء ، فقد برز إليهم أشبه الناس خَلْقاً وخُلقاً ومنطقاً برسولك محمد (ص) وكُنا إذا اشتقنا إلى رؤية نبيّك نظرنا إليه » .

لقد جاء هذا الغلام يطلب الإذن من أبيه بالقتال والجهاد . يقول الرواة بأنه عليه السلام كان يتردد ويتعلل بعلل كثيرة لكل من يطلب منه الإذن بالقتال وهو ما حصل مع القاسم بن الحسن مثلاً وهيَ القصة التي تكرر سماعها على آذانكم كما أعتقد لكن الأمر كان يختلف مع علي الأكبر فما أنْ جاء يستأذنه في البراز حتىٰ أذِنَ له بإيماءةٍ منه وذلك عندما أنزل رأسه عليه السلام مشيراً بالإيجاب .

يقول الراوي : وبينما كانت عينا أبي عبد الله الحسين تبدوان وكأنهما نصف مفتوحتين نظر إلى غلامه نظرةً يائسةً ومشى وراءه بعض الخطوات مودعاً . « ثم نظر إليه نظر آيسٍ »[1] ثم رنا بطرفه إلى السماء وقال :

« اللهم اشهد أنه برز إليهم غلامٌ أشبه الناس خَلْقاً وخُلقاً برسولك . . . الخ » كما أسلفنا إلى ان الحقها بعد ذلك بجملة موجهةً لـ (عمرو بن سعد) : « قطع الله رحمك يا بن سعد كما قطعت رحمي ! »[2] .

وبالفعل فإنه لم تمضِ مدةٌ طويلة على دعاء أبي عبد الله حتىٰ انتقم المختار لدم الحسين بن علي (ع) فقتل (عمر بن سعد) أولاً ولما جاؤوا برأسه ووضعوه في مجلس المختار وهو مُغطى بقطعة قماش وكان يومها ابن عمر بن سعد حاضراً في المجلس يُريد التشفع لأبيه فنادوه وسألوه إذا ما كان يعرفُ صاحب الرأس المُغطىٰ ؟ فلما كُشف الغطاء عن الرأس انتفض الابن من مكانه دون اختيار ، فامرهم المختار على الفور بأن يلحقوه بأبيه .

يبرز علي الأكبر إلى الميدان وهو يرتجز الشعر ويتقدم نحو أهل الكوفة ، وهو الفارس المغوار ، ويُقاتل بشجاعةٍ نادرة ، إلى أنْ يُسيطر عليه العطش فيرجع إلى أبيه (وهذه من المعجزات التاريخية إذ ما هو المقصود من عودته هذه وما هي الغاية

---

(١) اللهوف ص ٤٧ .

(٢) اللهوف ص ٤٧ . مقتل علي الأكبر للمقرم ص ٧٦ . مقتل الحسين المقرم ص ٣٢١ . مقتل الحسين للخوارزمي ج ٢ ص ٣٠ . بحار الأنوار ج ٤٥ ص ٤٣ .

من ورائها ؟) يقول له : « العطش قد قتلني ، وثقل الحديد قد أجهدني . فهل إليَّ بشربة ماء من سبيل أتقوّىٰ بها على الأعداء ؟ »

فما كان من هذا الحديث إلّا أنْ كوى قلب أبي عبد الله بالنار . فقال له : يا بُني إنّ فمي ولساني كفمك ولسانك بل وأكثر . ولكنني أعدك بشربة ماء من جدك وذلك بقوله :

« عُد يا بُني إلى قتال عدوك ، وإني لأرجو أنْ يسقيك جدّك بكأسه الأوفىٰ شربةً لا تظمأ بعدها أبداً » .

فيعود عليٌّ إلى الميدان ويستمر في البراز والجهاد .

هناك رجلٌ يُدعىٰ (حميد بن مسلم) وهو راوي الحديث وقد كان مثل الصحفي في ساحة عمليات كربلاء وهو إذ لم يشترك في الحرب غير أنّه بنفسه ينقل أغلب وقائع المعركة .

يقول الراوي : إنني كنتُ واقفاً إلى جانب أحدهم ، وكان علي الأكبر يقاتل ويضرب بالسيف عن يمينه وعن شماله ، وقد أبلىٰ بلاءً حسناً ، وصار الجميع يفرّون منه فتوعد ذلك الرجل علياً الأكبر بأنه إذا مامَرّ من جنبه فإنه سيقتله حتماً ويحرق قلب أبيه .

يقول الراوي فقلتُ له وما شأنك به أنتَ . فإنّه لا بد سيقتل في النهاية . قال : كلا وما أن مَرّ علي الأكبر من هناك حتىٰ غافله هذا الرجل بضربة رُمحٍ أودت بقوته وجعلته يُلقي بيديه على رقبة جواده بعد أنْ فقد توازن جسمه . وإذا بعلي الأكبر يُنادي هنا رافعاً صوته : « يا أبتاه هذا جدي قد سقاني بكأسه الأوفىٰ شربةً لا أظمأُ بعدها أبداً »[1] .

---

(١) بحار الأنوار ج ٤٥ ص ٤٤ . مقتل الحسين للخوارزمي ج ٢ ص ٣١ . مقتل الحسين للمقرم ص ٣٢٤ مقتل العواصم ص ٩٥ .

وهنا ينقل الراوي هذه الجملة العجيبة : « فاحتملهُ الفرس إلى عسكر الأعداء فقطّعوه بسيوفهم إرباً إرباً »[1] .

ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم
وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد



---

(١) مقتل الحسين للمقرم ص ٣٢٤ مقتل العواصم ص ٩٥ . بحار الأنوار ج ٤٥ ص ٤٤ . مقتل الحسين للخوارزمي ج ٢ ص ٣١ . كما وردت في مضامين متشابهة في : أعلام الورى ص ٢٤٢ . في رحاب أئمة أهل البيت ج ٣ ص ١٢٧ . الكامل في التاريخ ج ٤ ص ٧٤ . اللهوف ص ٤٨ . مناقب ابن شهر آشوب ص ١٠٩ ، الشيخ المفيد ص ٢٣٩ .

المحاضرة الثالثة

منهج التبليغ

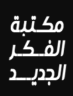
بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين باريء الخلائق أجمعين رالصلاة والسلام على عبد الله ورسوله وحبيبه وصفيّه سيدنا ونبيِّنا ومولانا أبي القاسم محمد صلى الله عليه وآله وسلم وعلى آله الطيبين الطاهرين المعصومين : ﴿ الذين يُبلِّغون رسالات الله ويخشوْنَهُ ولا يَخْشون أحداً إلاّ الله وكفى بالله حسيباً ﴾[1] .

سبق وأن بيَّنتُ لكم أنّ أحد أبعاد النهضة الحسينية هو التبليغ . التبليغ بالمعنىٰ الواقعي للكلمة وليس بالمعنىٰ المتداول حالياً بين الناس (سبق وأن مرّ علينا أن كلمة التبليغ باللغة الفارسية تفيد معنىٰ الدعاية والإعلان) . أي إيصال النداء والرسالة التي هي رسالة الإسلام وصوت الإسلام للناس . فلننظر إلى الإمام الحسين (ع) ونتفحص في الأساليب الخاصة التي اتّبعها عليه السلام في حركته ونهضته لا سيما تلك الأساليب ذات القيمة التبليغية المتأنية أساساً لكون الإمام قد استخدمها في إيصال أهداف وغايات حركته ونداء الإسلام الواقعي المنبعث من أعماقه عليه السلام بأفضل وجه إلى الناس . ولنبدأ أولاً بشرح مختصر لمسألة الطريقة والأسلوب ، أو ما يُصطلح عليه اليوم بالمنهج ، وهو المصطلح الذي يطلق عليه الأجانب - Method - .

---

(١) سورة الأحزاب : الآية ٣٩ .



إنّ أحد شروط نجاح أي عمل : اختيار وانتخاب الطريقة والأسلوب الصحيح . خذ مثلاً علم الطب : إنه علم واحد لكنك ترى أحياناً أنّ طريقة كل طبيب أو جرّاح تختلف عن الآخر . كأن يبرز أحدهم أكثر توفيقاً ونجاحاً في الأسلوب والطريقة أو المنهج العملي الذي اختاره للتطبيب .

يعيش العلم والعلماء اليوم مرحلة جديدة من مراحل التطور البشري بعد أن مر العلم بمنعطف هام في سير تحولاته صار يقال إنّ هناك علماً حديثاً مقابل العلم القديم . صحيح أنه ليس هناك شيء في العلم اسمه جديد مقابل القديم ، لكن المرحلة الجديدة لتطور العلم صار يُطلق عليها بالمرحلة الجديدة ، فما هو الفرق الموجود بين المرحلة القديمة والمرحلة الجديدة ؟ .

في المرحلة الجديدة تسارع التطور العلمي بشكل يفوق التصور ، كما لو أنّ مانعاً هاماً قد رُفع من أمام عجلة التطور العلمي مما دفع العلم إلى المُضي بسرعة فائقة في التطور في حين أنّ حركة العلم في المرحلة القديمة كانت حركة بطيئة .

والسؤال المطروح ما هو سبب هذه السرعة في المرحلة الجديدة ؟ هل إن العلماء الجدد مثل (پاستور) أكثر نبوغاً من العلماء القدامى أمثال (بقراط) و(جالينوس) و(ابن سينا) ؟ أو بعبارة أخرى هل يمكن القول بأنه قد ظهرت أسماء بارزة وشخصيات خارقة للعادة وأدمغة مفكرة في العالم الجديد لم يكن موجود مثلها في العالم القديم ؟

أبداً ، ليس كذلك . فقد لا يوجد أحد يدّعي بأنّ (پاستور) ، أو الآخرين ، من أقرانه أكثر نبوغاً من (أرسطو) و(أفلاطون) و(إبن سينا) و(بقراط) و(جالينوس) أو خواجه (نصير الطوسي) . لكن سرعة نجاح هؤلاء الجدد أكثر من سرعة أولئك القدامى . فاين يكمن سر هذا التحول إذن ؟

يقولون إنّ السرّ يتمثل في أنّ أسلوب العلماء قد تغيّر فجأةً . فمنذ أن تبدّل أسلوب العلماء في التحقيق تسارعت عجلة التطور العلمي بشكل ملحوظ . فالأساليب لها دور في النجاحات ، ومن الممكن أنْ نضع شخصاً نابغةً ، وذكياً ،

وصاحب استعداد ونشاط ، على رأس إحدى المؤسسات فتراه يفشل في إدارتها ، في حين أنّ شخصاً آخر ، أقل منه نبوغاً واستعداداً ذهنياً ، لو وضع على رأس نفس المؤسسة ، لربما أحسن إدارتها ، وكان أفضل من غيره ويكون السبب في الأسلوب والطريقة المتّبعة من قبل كل منهما .

ولنضرب على ذلك مثالاً أكثر وضوحاً : إنّ كل واحد منّا لا بد وأنه صادف في حياته أفراداً في المجتمع ، أذكياء جداً ، وذوي استعداد وحافظة ذهنية واسعة ، لكنهم مع ذلك يكونون أقل نجاحاً ، من آخرين ، من أفراد المجتمع ، ممن هم أقل منهم مستوىً في الذكاء والاستعداد الذهني والقدرة والفاعلية ، لماذا ؟

لأنّ طريقة هؤلاء تكون أفضل من طريقة أولئك . فإنك ربما تجد من هو قادر من ناحية استعداده الذهني على القراءة المتواصلة والإستيعاب اليومي على مدى ستّ عشرة ساعةً ، ولكن كيف ؟ كأن يقرأ كتاباً ما من أوله إلى آخره ، ثم يتناول على الفور كتاباً آخر لا علاقة له من ناحية التخصص بالكتاب الأول ، ثم كتاباً آخر وهكذا دواليك ، وذلك بشكل فوضوي تماماً ، بينما في المقابل قد تجد من لا يملك أكثر من ثماني ساعات من القدرة على مواصلة القراءة اليومية لكنه عندما يبدأ بقراءة كتاب ما فإنه أولاً يقرأه بدقة كاملة دون تَسرُّع ثم لا يكتفي بهذه المرة بل يُعيدُ قراءة الكتاب نفسه ولا يُمد يده إلى كتاب جديد ما لم ينته من استيعاب مواد الكتاب الأول ، ولا يكتفي بهذا الحدّ أيضاً . بل تراه يشير في المرحلة الثالثة إلى الموضوعات الهامة والجيدة في الكتاب ، وينقل كل تلك الموضوعات ، التي يراها لازمةً ، بشكل منظم ، إلى أرشيف معلوماته الخاص . أي إنه يخلق حافظة كتابية خاصة به تُفيده مدى الحياة يمد إليها يده متىٰ ما أحس بالحاجة إليها ، وعندما ينتهي من أمر هذا الكتاب تراه يلجأ لقراءة كتاب آخر في نفس المجال والتخصص ، وبعد مرور فترةٍ على قراءة هذا النمط من الكتب وانتفاء الحاجة إليها تراه يبدأ في قراءة مجموعة أخرى من الكتب ذات التخصص المختلف عن المجموعة الأولى . وهكذا دواليك .

في حين أنّ المرء الذي يقرأ اليوم كتاباً ما ، ثم غداً كتاباً آخر ، وبعده من

نوع آخر تماماً ، دون أن تلتزم قراءته هذه أي نظام أو منهج معين يشبه في الواقع ذلك الشخص الذي يجلس على المائدة ويأكل ملعقة من هذا النوع من الطعام ثم ملعقة من ذاك وأخرى من طعام ثالث ولقمة من هنا وأخرى من هناك وبالتالي فإنه يُعرِّض معدته للفساد ومن ثم لا يكون قد أنتج شيئاً إيجابياً على الإطلاق . وهذا الأمر يعود إلى الطريقة والأسلوب والمنهج المتّبع .

إنّ قضية التبليغ بمعناها الواقعي والصحيح تعني نقل وإيصال الرسالة إلى الناس ، أي توعية الناس بالرسالة وإقناعهم بها وجذبهم إليها ، وإبلاغ أية رسالة يحتاج إلى أسلوب ومنهج صحيح .

وبالأسلوب الصحيح وحده يمكن للتبليغ أن يكون ناجحاً وموفقاً ، ولو حصل أن اختار الإنسان الأسلوب المعاكس ، فإنه ليس فقط سوف لا يحصل على نتيجة إيجابية من العمل ، بل إنه سيجني حتماً نتيجةً معاكسة تماماً ، فعندما يُدقّق الإنسان مثلاً في موضوع ما ويُركّز عليه جيداً ومن ثم يتوجه للبحث عن الآيات القرآنية المتعلقة بذلك الموضوع ويتدبّر فيها فإنه سيرى عندئذٍ كم هي كثيرة ومفيدة النتائج المترتبة على هذه الطريقة والتتبع لآيات القرآن الكريم ! وهذا أمر ينطبق على كل المواضيع ومن جملتها موضوع التبليغ .

إنّ القرآن الكريم قد بيَّن الطريقة والأسلوب والمنهج الواجب اتباعه في التبليغ ، إما بواسطة آياته مباشرةً ، أو عن طريق أحاديث الأنبياء ، وعلى ألسنتهم . وإنّ إحدى القضايا التي أكدّ عليها القرآن الكريم في مجال أسلوب وطريقة التبليغ هي كلمة (البلاغ المُبين) . أي الإبلاغ الواضح والنيِّر ، فما هو المقصود من هذا المصطلح ؟ المقصود هو بساطة الموضوع ، وسلاسته ، وعدم احتوائه على أيّ شائبةٍ ، بحيث يصبح في متناول فهم الناس فيستوعبونه بسهولة كاملة .

فالكلام المُغلَق ، والمعقّد والمغلّف بغلاف من الكلمات والاصطلاحات الكثيرة والذي يُطالب الناس ويقول لهم بأنه لا مقدرة لكم على إدراك الأمور إلّا بعد سنوات الدرس الطويلة ، كلامٌ غير موجود في قاموس تبليغ الرسل

والأنبياء . فلقد كان الأنبياء يشرحون مفاهيمهم بشكل بسيط ، وواضح ، بحيث يفهمها أكبر العلماء ويستفيدون منها في نفس الوقت الذي يستفيد منها أقلُّ الناس معرفةً بالعلم والعلوم ، على الأقل في حد إمكانياتهم ، ومدى سعة استيعابهم الذهني للأمور والمفاهيم (لا أريد القول هنا بأنّ الجميع يستفيد بمستوى واحد) .

ولذلك فإنّ على المُبلّغ والرسول الذي يُريد أنْ ينطق بلسان الأنبياء ، ويتكلم مثلهم ، وينهج طريقهم ، عليه حقاً أنْ يكون بلاغةُ بلاغاً مُبيناً . وهذا جانب من معنىً مفهوم المبين .

بالطبع هناك احتمالات أُخرى لمعنىً ومفهوم كلمة (المُبين) (وقد يكون جميع المعاني المستخرجة من هذه الكلمة صحيحاً) فقد يكون أحد احتمالات معنىً كلمة (المبين) هو الحديث المباشر ودون ستار . أي إنّ الأنبياء ، ليس فقط لم يتحدثوا بلغة مغلقة ومعقدةٍ وملتوية ، بل إنهم كانوا يُحدِّثون الناس دون مجاملات وبطريقة مباشرة لا حجاب ولا ستار فيها ، ولم يكن أسلوبهم أسلوب الكناية واللف والدوران فعندما يحسون بضرورة قول شيء ما للناس فإنهم كانوا يقولونه لهم بصراحة ووضوح تام ، فيقولون لهم مثلاً ﴿ أتعبدون ما تنحتون ﴾[1] .

المسألة الأخرى التي يؤكد عليها القرآن الكريم في موضوع التبليغ هي تلك المسألة التي يُعبّر عنها القرآن (بالنُصح) . ونحن نترجم « النُصح » عادةً بإرادة الخير ، وهذا صحيح لكن يبدو أنّ إرادة الخير ليست تماماً عين النصح ، فلازمة النُصح تبدو أنْ تكون مقابل « الغش » . فأنتَ لو أردت مثلاً أنْ تبيع الحليب لأحدٍ فبإمكانك ان تبيعه حليباً خالصاً ويمكن أنْ تبيعه حليباً مغشوشاً ، أي مخلوطاً بالماء لا سمح الله ، أو لو أردت بيع الذهب لشخصٍ فقد تبيعه ذهباً خالصاً (بحدود المعايير المعروفة للذهب) وربما تبيعه ذهباً مغشوشاً ، يعني فيه غش ؛ فالنصح يأتي مقابل الغش . والناصح الواقعي هو ذلك الشخص الذي يملك الخلوص الكامل ، وعندما يُقال توبةٌ نصوح ، يعني توبةٌ خالصةٌ .

---

(١) سورة الصافات : الآية ٩٥ .

فالمبلّغ ينبغي له أن يكون ناصحاً وخالصاً ومُخلصاً . أي أنْ لا يهدف في حديثه تحقيق أي هدفٍ ، أو غرضٍ ، أو غايةٍ ، سوى إبلاغ وإيصال الرسالة المترتبة عليه ، أي الخير للطرف المقابل ، وذلك بكل إخلاص وخلوص نية . كما ورد في الحديث : « الناسُ كُلُّهم هالكون إلا العالمون ، والعالمون هالكون إلاّ العاملون ، والعاملون هالكون إلا المخلصون ، والمخلصون على خطر عظيم » .

سبق لي وأن نقلتُ للمستمعين هذه القصة عدة مرات وأجد الآن مناسبةً لتكرارها عليكم : يُنقل عن المرحوم آية الله (البروجردي) أعلى الله مقامه ، أنّه أثناء وعكته الصحية الشهيرة (وهي الوعكة التي أودت بحياته بعد أيام قلائل) صادف أن طلب منه أحد أفراد حاشيته أنْ يقول كلمةً يكون فيها تذكار لنفسه ونصيحة للآخرين المجتمعين حوله . فقال سماحته : «لقد آن الرحيل ولم نعمل شيئاً ولم نجمع ذخيرتنا للآخرة » . فما كان من أحد الحضور إلاّ أنْ فكّر أنّ الوقت وقت المجاملات فقال : « لماذا تقولون هكذا يا مولانا ؟ الحمد لله ، فأنتم قد قمتم بالعمل الفلاني ، وطبقتم كذا وكذا ، وبنيتم مسجداً ، وأسّستم مدرسةً ، وأرسيتم دعائم الحوزة العلمية ، إلى غير ذلك من الحديث . . .

وما أنْ أتم المتحدث حديثه حتى أدار سماحته وجهه إلى الحضور وقال جملةً من حديث شريف وسكت . والجملة هي : « خلِّص العَمَل فإنّ النّاقِد بصيرٌ بصير »[1] .

نعم أيها المستمعون فمسألة الإخلاص في العمل مسألة ليست بسيطة ، والقرآن بدوره أيضاً يُشير إلى مثل هذه النقطة ، وذلك على لسان الأنبياء كافّة كما ورد في قوله تعالى : ﴿ ما أسألكُمْ عليه من أجرٍ ﴾[2] . نعم لأنني ناصحٌ لكم لذلك لا أبغي منكم أجراً على عملي .

المسألة الأخرى هي مسألة عدم التكلّف ، والتكلّف مفهوم يرد ذكره

---

(١) مواعظ العددية ص ١٢٤ .

(٢) سورة (ص) : الآية ٨٦ .

ويتكرر استعماله في موارد كثيرة وهو بمعنى أنْ يُلصِق الإنسان شيئاً بنفسه وهو ليس فيه ، وهو ما يرد استعماله في الحديث والخطابة أيضاً . فيقال مثلاً للأشخاص الذين يستخدمون ألفاظاً ومصطلحات عجيبة وغريبة بدل استخدامهم الكلام الفصيح والبليغ بأنهم أشخاص مُتكلّفون في الكلام .

جاء في الحديث الشريف أنه صادف أنّ أحد الحضور في جلسات الرسول الأكرم (ص) صار يستخدم من هذه الكلمات والتعبيرات العجيبة الغريبة فقال (ص) : « أنا وأتقياءُ أمتي بَراءٌ من التكلُّف » .

فالتكلُّف غير الفصاحة . بل إنّ الفصاحة بالذات تعني الحديث السلس ، وعدم التكلُّف ، وعدم التعقيد في الحديث . لقد ورد على لسان الأنبياء عليهم السلام ـ حول التبليغ في قوله تعالى : ﴿ ما أنا مِنَ المُتكلّفين ﴾[1] وكما جاء في تفسير المُفسِّرين لهذه الآية فإنّ المعنى لا يُفيد بأنّ المُتحدّث ليس من المتكلّفين في حديثه ، بل إنّ المقصود إنه غيرُ مُتكلّف فيما يقوله من الحديث . أي إنّه لا يقول ، ولا يتحدث بما لا يعرفه ، وليس ثابتاً وظاهراً وبيّناً له . أي إنه لا يتظاهر بمعرفة أمر ما أمام الناس في الوقت الذي هو يجهل ذلك الأمر أو أن حقيقته لم تتبيّن بعد .

لقد ورد في (مجمع البيان) في سياق تفسير هذه الآية الشريفة أنه روي عن (عبد الله بن مسعود) عن النبي (ص) أنه قال : «يا أيها النـاسُ من عَلِمَ شيئاً فَلْيَقُل ، ومَنْ لم يعلم فَلْيَقُلْ : الله أعْلَمْ ، فإنّ من العِلم أنْ يقولَ لِما لا يَعْلَمُ الله أعْلَمْ »[2] .

نعم فإنّ أحد العلوم هو العِلم بأنك لا تعلم ، فالاعتراف بهذا الأمر هو بحد ذاته درجة من درجات العلم و(عبد الله بن مسعود) بعد أنْ ينقل هذا الحديث يردف فيقول : «فإن الله تعالى قال لنبيّه(ص) : ﴿ قل ما أسألكم عليه من

(١) سورة(ص) : الآية ٨٦ .
(٢) مجمع البيان ج ٨ ص ٤٨٦ .

أجرٍ وما أنا من المُتَكَلِّفين ﴾(١) . مما يعني أن (عبد الله بن مسعود) وهو من صحابة النبي الكبار قد استخدم هو الآخر عبارة « ما أنا من المُتكلِّفين » بمعنى أنّ على كل من يعلم أنْ يقول ما يعلم وما لا يعلمه عليه أنْ يقول بأنّه لا يعلم .

فهذا (ابن الجوزي) وهو من الخطباء المعروفين حيث يُقال إنه صعد مرةً فوق أحد المنابر الذي يرتفع عن الأرض ثلاث درجات وإذا بامرأةٍ تأتي إليه وتسألهُ مسالة ما فيقول لها لا أعلم فتجيبهُ المرأة : « لمّا كنتَ لا تعلم فلماذا صعدت ثلاث درجات أعلى من الناس ؟ » . فقال لها : « إنّ هذه الدرجات هي لتلك الأشياء التي أعرفها وأنت لا تعرفينها . وإنه لو كان المفروض أنْ يصنعوا لي منبراً بحسب الأشياء التي أعرفها لَوَجَب عليهم صنع منبرٍ يصل في علوه إلى القمر » .

الشيخ (الأنصاري) وهو من العلماء الأعلام العظام سواء من الناحية العلمية ، كما في بابي الفقه والأصول ، حيث يُعتبر حقيقةً من العلماء المحققين من الطراز الأول أو من ناحية الورع والتقوى . ولذلك تراهم كانوا يُبالغون كثيراً عندما يتحدثون عنه إذ كانوا يقولون عنه مثلاً : إنّ الشيخ يعرف كل شيء وإنّ من المستحيل غياب أية مسألة عنه .

ومع كل هذا فإنه كان يحصل أنْ يُسأل عن مسألة شرعية معينة فلا يتذكّر لها حلاً رغم أنه كان من المجتهدين ، وكلما كان لا يتذكّر الحل كان يقول بصوت عالٍ بأنه لا يعلم حتى يُسمع السائل والتلامذة المُحيطين به بأنّ الاعتراف بعدم العلم ليس أمراً مُشيناً .

وكان إذا سُئل عن مسألةٍ معيّنة ، وكان عنده حلها ، يُجيب السائل بحلها بصوت منخفض لا يَسمعه إلاّ السائل نفسه . وإذا لم يكن يعرف جوابها فإنه كان يُردّد بصوت عالٍ يسمعه الجميع لا أعرف ، لا أعرف ، لا أعرف .

هناك مسألة أخرى يذكرها القرآن الكريم في الحديث عن الطريقة

---

(١) نفس المصدر السابق .

والأسلوب التبليغي ، وذلك على لسان الأنبياء ، ألا وهي مسألة التواضع (مقابل الاستكبار) . فمن يُريد أنْ يُبلِّغ الرسالة ، ولا سيما إذا كانت الرسالة إلهية ، فإنه مطلوب منه إظهار أعلى درجات التواضع أمام الناس ، أي ينبغي عليه الابتعاد عن كل مظاهر الادّعاء والأنانية والـ(أنا) تماماً ، ومن ثم عدم تحقير الناس أبداً ، ولا بد له أنْ يضرب المثل الأعلى في الخشوع والتواضع . فالقرآن الكريم يورد حديثاً للنبي (نوح) عليه السلام ، وهو يخاطب بعضاً من أهل قومه ، كما ورد في قوله تعالى : ﴿ أَوَعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ من رَبِّكُمْ على رَجُلٍ مِنْكُمْ ﴾[1] . فانظروا إلى عبارة « من رَبِّكم » ولاحظوا كيف أنه لا يريد تخصيص مقام الربوبية به ويقول - ربي - بل يقول « ربكم » أنتم على ما هي حالتكم عليه . ثم يقول : « على رجلٍ مِنْكُمْ » أي على واحد من مثلكم .

إنّه منتهىٰ التواضع البشري وهو ما جاء ذكره في القرآن الكريم في مكان آخر على لسان النبي محمد (ص) : ﴿ قُل إنّما أنا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يوحىٰ إليّ ﴾[2] .

نعم ثم يضيف سبحانه وتعالى : ﴿ أنّما إلهكُمُ إلـهٌ واحدٌ فمن كان يرجو لِقاء رَبِّهِ فليعمل عملاً صالحاً ولا يُشرك بعبادةِ رَبِّهِ أحداً ﴾[3] .

وهناك مسألة أُخرىٰ يمكن إضافتها إلى قضايا التبليغ وطرقه وأساليبه ألا وهي مسألة الرفق واللين أي الابتعاد عن مظاهر الخشونة . فمن يُريد إبلاغ رسالة ما إلى الناس وخاصة إذا ما كانت الرسالة هي نداء السماء ، ويهدف إلى إيجاد الإيمان والعلاقة بين الفرد والرسالة السماوية ، فإنّ عليه أنْ يكون لينّ القول وسهل الحديث . فالحديث أيضاً مثل الماديات في الدنيا فمنه الناعم ومنه الخشن .

فأحياناً يأتي الحديث إلى الإنسان ، ويصل إلى مسامعه ، ليّناً سهلاً بشكل وكأنه (راحة الحلقوم) بالنسبة للبدن ، أي ناعماً وملائماً ولطيفاً إلى درجة يجذب قلب الإنسان إليه بأي شكل من الأشكال .

---

(١) سورة الأعراف : الآية ٦٣ .

(٢، ٣) سورة الكهف : الآية ١١٠ .

واحياناً أخرىٰ يصل الحديث إلى مسامع الإنسان خشناً وصلباً بشكل كما لو أنّ المسامير قد دُقّت على أطرافه ، حديثاً محاطاً بالشوك والتحقير والكناية والسخرية ، وخشناً إلى الدرجة التي يتمنىٰ فيها الإنسان طرده من مسامعه وعدم قبوله .

فهذا هو القرآن الكريم يُرسل (موسىٰ) و(هارون) ـ عليهما السلام ـ إلى محاورة (فرعون) ودعوته للحق ويضع في صُلب تعليماته لهما طريقة الدعوة ومنهجها في قوله تعالى : ﴿ **فقولا له قولاً ليّناً لعَلَّهُ يَتَذكَّر أو يخشىٰ** ﴾[1] . ورغم ذلك كله فإنّ (فرعون) لم يهتدِ ، ولم يكن من السامعين ، لكنه منهج الأنبياء حتىٰ مع (فرعون) في الدعوة .

ويقول القرآن الكريم حول النبي الأكرم (ص) : ﴿ **فبما رحمةٍ من الله لِنْتَ لَهُمْ ولو كُنْتَ فظاً غليظ القلب لانفضّوا من حولك فاعفُ عنهم واستغفر لهم وشاورهم في الأمر فإذا عَزَمْتَ فَتَوَكّل على الله إنّ الله يُحبُّ المتوكلين** ﴾[2] .

نعم فالله سبحانه وتعالى هنا يخاطب النبي الأكرم ، ويُذكّره بأنّ نعمة الله ورحمته هي التي جعلت منه ذلك الرسول الليّن السهل القريب إلى الناس ، وأنّه لولا هذه الليونة ، ولولا دفع الخشونة عنك يا رسول الله ، لانفض الناس من حولك مع كل معجزاتك التي تملكها ، وكل هذا الإعجاز القرآني الذي بين يديك ، إضافة إلى كل مميزاتك ، ومواصفاتك الأخرىٰ . فالليونة عامل مؤثّر في التبليغ وهداية الناس إلى العرفان والإيمان .

وهناك قصص كثيرة في هذا المجال يمكن ذكرها إلاّ أنّ البحث يطول ، ولكن هل إنّ الليونة والسهولة هذه تتناقض مع الصلابة ؟

كلّا فهناك فرقٌ بين الخشونة والصلابة .فهلّا لاحظت مرةً حبّة الحصى

---

(١) سورة طه : الآية ٤٤ .

(٢) سورة آل عمران : الآية ١٥٩ .

الصغيرة الغائرة في قعر الأنهار وتلمّستها جيداً ورأيت كيف أنّ احتكاك المياه الدائم بها بفعل السنين الطويلة قد صلّب من كيانيتها، لكنه نعّم ملمسها كثيراً، فتراها قويةً صلبةً ، لا فرق بينها وبين سائر الأحجار والصخور الأخرى ، لكنها ناعمة وملساء إلى درجة أنّ الإنسان لا يشعر عند لمسها بأي إزعاج أو عدم ارتياح يُذكر ، بل إنّ الإنسان لَيَشعُرُ بالانزعاج والخشونة من مسح يديه على ملابسه أكثر من مسحه إياها على تلك الحصىٰ . وإن سيفاً مصقولاً ترى فيه من الليونة ما يشبه حركة الوتر وليونته ، لكنه في الوقت ذاته ، يملك صلابة وصرامة .

أنْ تكون صلباً ، ومحكم البُنية ، وشجاعاً ، ولا تخاف أحداً غير الله ، شيء ، وأنْ تكون خشناً شيء آخر ، فالأنبياء وعلى الرغم من كل التواضع والنعومة التي كانوا يُبدونها في أحاديثهم وأخلاقهم وسلوكهم مع الناس ، إلاّ أنهم لم يكونوا على استعداد للتراجع ، أو التنازل ، قيد أنملة ، عن مبادئهم، فهم لا يخافون من شيء ولا يخشون أحداً غير الله .

فالشهامة والشجاعة يمكن اعتبارهما شرطين من شروط الرسول وجزءاً لا يتجزأ من منهج الدعوة وكيفية التبليغ . والآية القرآنية التي قرأتها عليكم في أول المحاضرة تُفيد هذا المعنىٰ قال تعالى : ﴿ **الذين يُبلّغون رسالات الله ويخشونه ولا يخشون أحداً إلاّ الله** ﴾[1] .

المسألة الأخرى التي ترد في موضوع بحث طرق تبليغ الأنبياء ومنهجهم ، هي مسألة كون الأنبياء لا يُمثّلون في الواقع إلاّ دور الرُّسُل ، ولا يملكون شيئاً من عندهم أبداً . فهم خلق الله ، ورُسُله ، ومُبلّغو رسالاته . فلم يأتوا ليوقعوا صكوك الجنة ، أو النار ، لأحدٍ من الناس ، كما فعل قساوسة المسيحية من قبل ، وربّما لا يزالون ؛ فلا أحد من الأنبياء يستطيع ضمان أي مقدار من الجنة لأحدٍ من الناس . وعلى الرغم من أنهم كانوا يعرضون رسالاتهم بكل يقين واطمئنان ولا ينتابهم شكّ أو تردد في أي جزء من الرسالة إلاّ أنهم كانوا إذا ما سُئلوا عن

---

(١) سورة الأحزاب : الآية ٣٩ .

عواقب أمور النـاس ونهاياتهم ، كـانوا يكتفـون بالقـول : الله هو العـالم ، وعنده بواطن العلوم ، والله وحده هو العالم بعاقبة كل امرىء إلى أين تنتهي .

فمن لا يعرف ذلك الصحابي الجليل والمهاجر العظيم (عثمان بن مظعون) والذي كتب عنه المؤرخون أنّه من أوائـل المهاجـرين الذين انتـظموا مـع الرسـول الأكرم (ص) في المدينة المنورة . وهذا الصحابي كان أول الراحلين إلى الملأ الأعلى في (المدينة المنـورة) . وقد أمـر الرسـول الأكرم (ص) بـدفنه في (البقيـع) وهي الأرض التي صـارت (مقبرة البقيـع) بعد أن دفن هـذا الصحابي الجليـل فيهـا ، وقـبره الآن موجـود في القسم الشرقي منها وقـد كان الـرسول (ص) يُحِبُّـه ويُقَـدِّرهُ تقديراً كبيراً ، والكل كان يعرف ذلك .

وهو من يقول عنه أمير المؤمنين علي (ع) في (نهج البلاغة) : « كـان لي فيما مضىٰ أخٌ في الله ، وكان يُعَظِّمُهُ في عيني صِغَرُ الدنيا في عينه »[1] وهذا ما يقول بـه شارحو نهج البلاغة ويُضيفون بأنّ أمير المؤمنين (ع) كـان له ولـدٌ اسمه (عثـمان) وأنّه قد سمّاه يومها على اسم (عثمان بن مظعون) تأسيّاً بذلك الصحابي الجليل .

ويذهب مثل هذا الرجل من الدنيا بعد أن كـان يـسكن في دار أخٍ أنصاري لـهُ ، ومعه أيضـاً كانت تـسكن امـرأةً في تلك الـدار ، وربمـا كـانت زوجـة ذلـك الأنصاري كان اسمها (أم علاء) حيث كانت بخدمة ذلك الصحابي أيضاً .

يقـول الراوي إنّ رسـول الله (ص) قد حضر للمشـاركـة في تشييـع جنـازة (عثمان بن مظعون) وقد تصرّف في تلك المراسم كما يتصرف مع أخص أصحابـه وأنصـاره . وأثنـاء تلك المـراسم إذا بـ (أم عـلاء) تُـديـر وجههـا نحـو جنـازة (عثمان بن مظعون) وتقول : « هنيئاً لك الجنـة » . فإذا بـالرسـول الأكرم ينـظر إليها ويقول لها بصوت حاد : ومن قال لكِ هذا؟ قالت يا رسول الله! فهذا من صحـابتك وأنـا إنما قُلـت ذلـك لعلاقتـك ومحبتـك الشـديـدة لـه . فـما كـان من

---

(١) نهج البلاغة حكمة ٢٨١ ص ١٢٢٥ .

رسول الله (ص) إلّا أن قرأ الآية الكريمة : ﴿ قُلْ ما كُنْتُ بِدْعاً مِنَ الرُّسلِ وما أدري ما يُفْعَلُ بِي ولا بِكُمْ ﴾[1] .

إنه لأمرٌ بليغٌ حقاً . وشبيه ذلك ورد في نهاية سورة الجن المباركة : ﴿ قُلْ أنّي لا أملِكُ لَكُمْ ضَراً ولا رَشَداً * قُل إني لن يُجيرَني من الله أحِدٌ ولن أجِدَ من دونِهِ مُلْتَحَداً ﴾[2] .

إنّ إحدى الخصائص البارزة جداً في الأسلوب التبليغي الذي أتّبعه الرُسُل والأنبياء ، وربما ورد ذكر ذلك في القرآن حول الرسول الأكرم محمد (ص) أكثر من غيره ، هي عدم التفريق بين طبقات الناس في تبليغ الإسلام . فالزمان والعصر هو العصر الجاهلي والحياة الاجتماعية التي كانت سائدةً آنذاك حياة طبقية عجيبة فالفقراء عندهم لم يكونوا من البشر فضلاً عن الغلمان والعبيد .

أمّا الأشراف والأعيان والذين يُعبّر عنهم القرآن الكريم بالملأ فإنهم كانوا يعتبرون أنفسهم هم أصحاب الحق الدنيوي على الدوام ومن بعد الإسلام فإنهم أصحاب الحق الأخروي أيضاً . وهؤلاء لم يكتفوا باحتقار الفقراء وعدم الحساب لهم بأي حساب ، بل إنهم كانوا يعتقدون بأنّ هذا التفاوت الطبقي سيظل سائداً حتى في الآخرة . فالدنيا بنظر هؤلاء الملأ دليل الآخرة وعندما نكون مُعزّزين ومُكرّمين في الدنيا فهذا دليل على أنّ الله يُحبنا ويُعزنا حتىٰ منحنا كل هذه الأشياء وبالتالي فإنه سيَمُنّ علينا في الآخرة بمثل هذا ، وأما أنتم الفقراء فإنكم ستظلون كذلك على حالكم هذه . فالتعيس والبائس في الدنيا تعيسٌ وبائسٌ في الآخرة أيضاً .

وكان أولاء يقولون للرسول الأكرم (ص) : أتعرف يا رسول الله أين يكمن عيبك ؟ وهل تعرف لماذا نحن مترددون في قبول رسالتك ؟ ذلك لأنك قد جمعت حولك المسحوقين والأراذل من الناس . إكنس هؤلاء من حولك

---

(١) سورة الأحقاف : الآية ٩ .

(٢) سورة الجن : الآيتان ٢١ ـ ٢٢ .

وعندها ستَرانا نحن الأعيان والأشراف قد أحطنا بكَ . لكن القرآن الكريم يقول لنبيّه الكريم أنْ صُدَّهم رُدَّ عليهم يا محمد وقل لهم : ﴿ وما أنا بطارد المؤمنين ﴾[1] . فأنا لستُ بطاردِ المؤمنين بجريمة كونهم غلماناً أو عبيداً أو فقراء أبداً . قال تعالى : ﴿ ولا تطرُد الذين يدعُون ربّهم بالغداة والعشي يريدون وَجهَهُ ﴾[2] . فلا تطرد هؤلاء من حولك يا رسول الله . هكذا يخاطبه ربّه ، دَعْ الأشراف يولون وجوههم حيثما شاؤوا وإنْ أرادوا الإسلام فليصبحوا من الآدميين .

ربما سمعتم قصة أحد هؤلاء الأعيان من المسلمين عندما كان جالساً في مجلس الرسول (ص) . فلمّا كانت السُّنة والسيرة عند رسول الله (ص) تقضي بالجلوس دائرياً في المجالس أي بشكل حلقة حتىٰ لا يتشكل من المجلس مكان أعلى ومكان أسفل ، وتقضي ثانياً بنهي الرسول لأصحابه عن القيام لأي أحد عند دخوله المجلس وقوله بأنها من سُنّة الأعاجم ، سُنة الإيرانيين . وقوله ـ صلى الله عليه ـ بأنّ من دخل مجلساً فليجلس حيثما وجد مكاناً للجلوس ، لا أن يُجبَر الناس على القيام حتىٰ يفرغ محلّ للجلوس من أجل أن يجلس فلان في صدر المجلس مثلاً . فالإسلام ليس فيه كل ذلك .

ويقول الراوي إنه دخل على هذا المجلس رجل فقير رث الملابس ، فوجد محلّاً فارغاً إلى جانب ذلك الرجل من الأعيان فجلس حيث وجد المكان . وما أنْ جلس الفقير حيث جلس حتىٰ لملم نفسه ذلك الغني الوجيه حسب العادات الجاهلية وانحاز جانباً في مقعده ، فانتبه الرسول الأكرم (ص) لحركة ذلك الوجيه فقال له ما الخبر يا فلان ؟! أخشيت أنْ يلتصق جزء من ثروتك بهذا الرجل قال لا يا رسول الله . قال : أم خفت أنّ جزءاً من فقره سيعلق بك ؟ قال لا يا رسول الله . قال : ولماذا إذاً تصرفت هذا التصرف ؟ قال أخطأت يا رسول الله وإنني على استعداد لدفع نصف ثروتي الآن وفي هذا المجلس لأخي المسلم هذا عقاباً لي

---

(١) سورة الشعراء : الآية ١١٤ .

(٢) سورة الأنعام : الآية ٥٢ .

على جريمتي هذه . فقيل لذلك الأخ المؤمن قم وخذ ما يُريد منحه إياك هذا الرجل قال لا أريد ذلك. فقالوا له ولكنك لا تملك الثروة والمال فلماذا لا تأخذ؟ قال لأنني اخاف إنْ أخذتها أنْ أصبح يوماً مغروراً ومتكبراً مثلهُ .

هناك مسالة اخرىٰ تُطرح ايضاً في سياق أسلوب التبليغ هي مسالة الصبر والاستقامة . قال تعالىٰ : ﴿ فاصبر لِحُكم رَبِّك ولا تكُن كصاحب الحُوت ﴾[1] . وقال كذلك : ﴿ فاصبر كما صَبَرَ أولو العزم مِن الرُسُلِ ﴾[2] او كما ورد في مكان آخر ﴿ فاستقم كما أمرت ومن تابَ معكَ ﴾[3] . وعبارة « فاستقم كما أُمرتَ » هذه وردت في مكانين في سورة (الشورى) كما في سورة (هود) . لكنها في سورة (الشورى) تكتفي الآية بمخاطبة الرسول الأكرم (ص) وحده ، في حين أنّها في سورة (هود) تخاطب النبي وأصحابه معه ، حيث تطلب ، منه ومن أصحابه أيضاً ، الاستقامة والصمود . من هنا يُنقل عن الرسول (ص) قوله : « لقد شيبتني سورة هود »[4] . فهي لم تطلب منه لوحده الاستقامة بل تطلب منه إبلاغ أصحابه أيضاً ودعوتهم إلى الصبر والاستقامة .

ولا بد لنا هنا في هذا المجال من الحديث بعض الشيء عن الأسلوب التبليغي للإمام الحسين (ع) . فقد قام أبو عبد الله الحسين بعدد من الأعمال والإجراءات التي يمكن اعتبارها أسلوباً وطريقة ومنهجاً له ، في إدارة النهضة والحركة الحسينية . ولكن دعوني الآن أترك الحديث عن أسلوب وطريقة عمل الإمام الحسين (ع) إلى الليلة القادمة وهي ليلة عاشوراء ، فإنني أريد قراءة شيء من المقتل عليكم هذه الليلة .

والحقيقة أنها سُنَّةٌ مُتّبعة في كل مكان تقريباً وهي الحديث عن حضرة (أبي

(١) سورة القلم : الآية ٤٨ .

(٢) سورة الأحقاف : الآية ٣٥ .

(٣) سورة هود : الآية ١١٢ .

(٤) مجمع البيان ج ٥ ص ١٤٠ .

الفضل العباس) ـ سلام الله عليه ـ في ليلة التاسع . فمقام أبي الفضل العباس رفيع جداً . فأئمتنا عليهم السلام قالوا عنه : « إنّ للعباس ـ منزلةً عند الله يَغبِطُهُ بها جميعُ الشُّهداء »[1] .

ومما يؤسف له القول بأنّ التاريخ لم يترك لنا كثيراً عن حياة هذا الرجل الجليل والعظيم . أي إنه لو شاء أحد أنْ يكتب كتاباً في سيرة العباس فسوف لن يجد الكثير . ولكن ماذا تنفع المعلومات الكثيرة ؟ فأحياناً تكون حياة يومين أو ثلاثة أيام أو خمسة لشخص ما والتي لا يطول شرحها ولا يستوعب أكثر من خمسة صفحات من الورق لكنها مشرقةً إلى درجةٍ أنها تثبت وتُبرهن قيمة ذلك الشخص ، وأهميته بمقدار عشرات الكتب . وحضرة أبو الفضل العباس هو من هذه الشخصيات النادرة ، كان يبلغ من العمر في واقعة (كربلاء) حوالي (٣٤) عاماً وكان له أبناء من جملتهم ولد اسمه (عبيد الله بن عباس بن علي بن أبي طالب) وهو الذي ظل على قيد الحياة لزمان طويل بعد الواقعة .

ينقل الرواة أن الامام زين العابدين (ع) وقعت يوماً عيناه على عبيد الله فتذكر مأساة (كربلاء) فسالت الدموع من عينيه على الفور .

كان للعباس (ع) من العمر ما يقارب سن البلوغ في يوم استشهاد أمير المؤمنين علي (ع) ، أي حوالي ١٤ عاماً . فأنا اتذكر أنني قرأتُ في (ناسخ التواريخ) بأنه قد حضر عليه السلام معركة صفين . ولكنه لمّا كان بعدُ في سن الطفولة ـ ما قبل البلوغ ـ (لأن معركة صفين وقعت حوالي ثلاث سنين قبل استشهاد أمير المؤمنين علي (ع)) فإن أمير المؤمنين لم يسمح له بالمشاركة في الحرب .

ولكنني كما أتذكر أن صاحب (ناسخ التواريخ) كتب أنه عليه السلام رغم ذلك كان يركب فرساً أسوداً ولا يُعرفُ عنه أكثر من ذلك . لكن موضوعاً آخر

---

(١) أبصار العين في أنصار الحسين ص ٢٧ . بحار الأنوار ج ٤٤ ص ٢٩٨ . نقلاً عن امالي الصدوق مجلس ٧٠ رقم ١٠ .

يخص (أبا الفضل) كتبه كثير من الرواة وقد ذكرته المقاتل المعتبرة والمُسندة ومفاده أنّ أمير المؤمنين علي (ع) قد طلب ذات يومٍ من أخيه (عقيل) أن يختار لـه امرأةً كما ورد « ولدتها الفحولة » أي أنْ تكون من سلالة الشجعان . ولّما كان (عقيل بن أبي طالب) من النسّابة ومن أهل الخبرة الذين يعرفون بطون القبائل ، وعرق وعنصر كل عشيرة وقبيلة من قبائل العرب ، لذلك قال لأخيه فوراً : « عَنيّ لكَ بأمُّ البنين بنتِ خالد » . وأم البنين تعني كما توضح التسمية نفسها بأنها أم الأولاد والبنين. ويبدو كما يذكر ذلك التاريخ أنّ إحدى جدّات هذه المرأة الصالحة كان اسمها أم البنين أيضاً ولهذا السبب كما يبدو سُميت (أم العباس) بأم البنين أيضاً . وهكذا كان فقد اختيرت أم البنين لعلي بن أبي طالب وقد ولدت له بالفعل اربعة أولاد ولم تَلِد له على الظاهر بنتاً وبهذا تكون تسمية أم البنين قد انطبقت عليها بالفعل .

بالطبع فإنّ أمير المؤمنين علي (ع) كان لـه أولاد شجعان غير أبي الفضل . فهناك أولاً الحسنان (الحسن والحسين) ـ سلام الله عليهما ـ وشجاعتهما محرزة في أكثر من موقع لا سيما الإمام الحسين عليه السلام الذي برزت شجاعته بوضوح في واقعة (كربلاء) إذ أبدَى بطولة نادرة ورثها عن أبيه علي عليه السلام . بالإضافة إلى ذلك فهناك (محمد بن الحنفية) وهو أكبر بكثير من العباس وقد شارك في معركة (الجمل) حيث أبلى فيها بلاءً حسناً فكان قوياً وشجاعاً وجليلاً . ويبدو أن أمير المؤمنين (ع) كان يُبدي اهتماماً خاصاً به (بالطبع لم نعثر على هذا في متن التواريخ فهو موضوع في حد الحدس)

المشهور بين المقاتل المعتبرة أنّ أول من استشهد من أهل بيت النبوة في (عاشوراء) هو (علي الأكبر (ع)) وآخر من استشهد منهم هو (أبو الفضل العباس (ع)) . أي إنّه بعد أنْ استشهد عليه السلام لم يكن قد بقي مع الحسين (ع) أي واحد من الأصحاب أو من أهل البيت من المقاتلين . قالوا فجاء إلى أخيه الحسين (ع) يستأذنه في القتال ويطلب الرخصة منه للخروج إلى الميدان ويقول له قد ضاق صدري وسئمتُ الحياة . فهو قد بعث بإخوته الثلاثة من أمه إلى ميدان القتال ليستشهدوا أمامه في سبيل الحسين (ع) وهو يقول لهم اذهبوا إلى

ميدان القتال فإني أريد أنْ احمل اجر مصيبة أخي أبي عبد الله . وعليه فقد أصبحت أم البنين امّاً لشهداء أربعة استشهدوا جميعاً في كربلاء وهي لم تكن فيها فقد كانت في المدينة ولا تعرف ماذا سيحل بأهل بيت النبوة فيها .

لم يكن أحد في المدينة يعرف ماذا يجري لآل البيت في (كربلاء) . ولكن الأخبار وصلت أخيراً إلى المدينة وهي تحمل نبأ استشهاد الأولاد الأربعة لأم البنين . تلك المرأة التي لم تكن تملك في الدنيا شيئاً سوى أولادها الأربعة هؤلاء . وبالطبع فإن هذه المرأة كانت امرأةً شجاعة وكاملة لكنها تظل رغم ذلك امرأة وقد أصبحت أرملة بعد أن فقدت زوجها وكل أولادها مرة واحدة . ولذلك يُقال إنها كانت تجلس أحياناً في الطريق المؤديّة إلى الكوفة من المدينة وتبدأ في رثاء أولادها وتنتحب وتبكي عليهم وتندبهم .

التاريخ يكتب أنّ هذه المرأة كانت قد أصبحت بحد ذاتها وسيلةً من وسائل التبليغ ضد حكم بني أمية . فكل من كان يمر بتلك الطريق ويراها تبكي أولادها وترثيهم كان يتوقف عندها ويبكي معها ، حتىٰ أن (مروان بن الحكم) الذي كان حاكماً للمدينة وهو الذي يعتبر من ألدّ أعداء آل البيت فإنه كلما كان يمر بها كان يجلس عندها بدون إرادة ويبكي معها . وكانت هذه الامرأة الصالحة تجلس احياناً وتبدأ برثاء أولادها بأبيات من الشعر ترثي أبناءها فيها وتقول :

لاتَدْعُونيّ وَيْك أُمّ البنين ... تُذَكّريني بلُيُوثِ العَرين
كان لي بُنونَ أُدعىٰ بِهِم ... واليوم أَصْبَحْتُ ولا مِنْ بَنِين[1]

نعم ، فقد كانت يوماً أم البنين وهي اليوم قد فقدتهم جميعاً ولا سيما رشيدهم وأشجعهم وأبهاهم أبو الفضل العباس وقد رثته بأبيات من الشعر شجية ومُحرقة للقلوب . حيث تقول فيها :

يَا مَنْ رأىٰ العباس كَرّ على جماهير النَقَد
ووراءه من أبناء حيدَرَ كُلُّ ليثٍ ذي لبد

---

(١) منتهىٰ الآمال ج ١ ص ٣٨٦ . إبصار العين في أنصار الحسين (ع) ص ٣١ .

أنبئت أنّ ابني أُصيبَ بـراسـه مقـطوع يـد

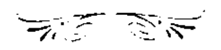
ويـلي عـلى شبـلي أمـال بـراسـه ضـربُ العمـد

لو كان سيفُك في يديك لما دنا منك أحَد[1]

لقد سألت عن الطريقة التي قُتل فيها ابنها العباس . فقالوا لها لقد قاتل قتال الأبطال ، وكان يصول ويجول في أوساطهم ، أوساط معسكر الأعداء ، ويضرب فيهم بسيفه عن يمين وعن شمال ، لكنهم وبعد أن قطعوا يمينه ومن ثم شماله قطعوا عليه الطريق تماماً وازدحموا عليه وأتته السهام من كل جانب كالمطر ، فأصاب القربة سهم فأريق ماؤها ، وجاء سهمٌ فأصاب صدره الشريف ، وسهم آخر أصاب إحدىٰ عينيه ، إلى أنْ ضربه لعينٌ آخر من القوم بعمود على أم راسه فانقلب عن ظهر فرسه ، وخرّ إلى الأرض صريعاً والعَلَم إلى جنبه ، وجعل يخور بدمه ، فقطّعه القوم بأسيافهم . روحي فداك يا أبا الفضل العباس !!! « لو كان سيفُك في يديك لما دنا منك أحد » .

ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم

وسلام الله عليك يا أبا عبد الله .



(١) المصدر السابق .

المحاضرة الرابعة

أساليب التبليغ في النهضة الحسينية

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين باریء الخلائق أجمعين والصلاة والسلام على عبد الله ورسوله وحبيبه وصفيّه سيدنا ونبينا ومولانا أبي القاسم محمد صلى الله عليه وآله وسلم وعلى آله الطيبين الطاهرين والمعصومين .

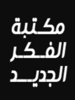
﴿ الذين يُبَلّغون رسالات الله ويخشونه ولا يخشون أحداً إلاّ الله وكفىٰ بالله حسيباً ﴾[1] .

لقد وعدتكم الليلة الماضية أن أعرض عليكم هذه الليلة ، وهي ليلة عاشوراء ، بمقدار ما أستطيع ، وبمقدار ما يُساعدني الحضور الذهني ، أساليب وطرق التبليغ (بمعناه الصحيح) التي اتبعها الحسين في نهضته ، ولكنني سأبتدىء معكم أولاً بتقديم بعض الملاحظات الهامة التي تُبَيِّن لكم القيمة البالغة لما يمكن أنْ نصطلح عليه بالتكتيك الدعائي (التبليغي) الذي اتّبعه أبا عبد الله عليه السلام .

لقد وقعت في الخمسين سنة الفاصلة بين وفاة الرسول (ص) وبين شهادة

---

(١) سورة الأحزاب : الآية ٣٩ .



الحسين بن علي (ع) أحداثٌ وقضايا خطيرة وجرت تحوُّلات بالغة الأهمية .

يلاحظ المحققون المعاصرون المُطّلعون على مبادىء علم الاجتماع وعلى الأخص الأستاذ (عبد الله العلايلي) ، بالرغم من كونه سنياً ، حيث يُركّز هو بالذات أكثر من غيره على هذه الناحية من البحث . فيقول : إنّ بني أمية وخلافاً لكل قبائل العرب (قريش وغير قريش) لا يُشكّلون تجمعاً عرقياً فقط بل إنّ طريقة عملهم ونشاطهم أشبه ما تكون بطريقة الحزب ، أي إنهم كانوا يُعبّرون عن تصور فكري اجتماعي خاص ، وإن وصفهم أشبه ما يكون باليهود في عصرنا الراهن بل وعلى طول التاريخ . فقد تصرفوا على الدوام على أنهم تجمع عرقي يحمل أفكاراً ومبادىء خاصة بهم لا يكتفون بالتنسيق والتكامل فيما بين نشاطاتهم للوصول إلى تحقيق تلك المبادىء ، بل إنهم يملكون المخطط والمشروع الخاص بهذه المبادىء ، ووصف المؤرخون القدامى بني أمية على أنهم تجمع عرقي يغلب عليه طابع الدهاء والمواصفات الشيطانية .

واليوم أيضاً تراهم يوصفون بنفس تلك المواصفات ولا يغرب عن بال أحد بأنّ بني أمية هم أول مجموعة بشرية أحسّت ، أكثر من أي تجمع بشري آخر ، بقدوم الخطر عليها بعد ظهور الإسلام في الجزيرة العربية . فقد اعتبرت الإسلام مصدر خطر شديد على مواقعها، وقاتلته بكل ما أوتيت من قوة إلى أن جاء يوم فتح مكة بعد أن يئست من محاربته واطمأنّت إلى الهدنة التي أعلنها الرسول (ص) فأعلنت عند ذلك إسلامها الظاهري فقال عنهم عمار بن ياسر : « ما أسلموا ولكن . . . » والرسول (ص) قد عاملهم بالفعل على أساس المؤلفة قلوبهم أي أولئك القسم من الناس ممن أسلم ظاهرياً ولمّا يدخل الإسلام في عمق روحه .

والنبي الأكرم لم يُوكل بدوره أية مهمة أساسية لبني أمية ، لكنهم بعد رحيله استطاعوا التسلل إلى داخل أجهزة الدولة الإسلامية تدريجياً . وأكبر خطإ *تاريخي وسياسي حصل في أيام عمر بن الخطاب هو تمكّن احد اولاد ابي سفيان* المسمى بيزيد من الوصول إلى منصب والي الشام مما مهد الطريق فيما بعد لمعا... *نفسه ليستلم تلك الولاية لمدة عشرين عاماً اي ما بعد عهد حكومة عثمان*

كانت الشام تشمل آنذاك تحت لوائها إضافة إلى سورية الحالية قسماً من تركيا وقسماً من لبنان وقسماً من فلسطين .

وبهذا يكون بنو أمية قد ثبّتوا لأنفسهم موطىء قدم هام جداً في دار الخلافة، وأي موطىء قدم !

عندما تولى عثمان الخلافة بدا عليه وكأنه يختلف عن سائر أفراد بني أمية من حيث السمات الروحية المتفاوتة (فقد كان إنساناً خاصاً يختلف عن أبي سفيان) لكنه كان أموياً في النهاية . إذ سرعان ما توسعت مواقع نفوذ بني أمية في داخل أجهزة السلطة الإسلامية في عهده . فقد وقع كثير من المواقع الهامة الإسلامية في عهده كولايات الدولة الكبرى أمثال مصر والكوفة والبصرة بيد بني أمية . حتى بيت مال الخليفة ودار الخلافة نفسها وقعت بيد مروان بن الحكم . وقد شكل هذا الشرخ خطوةً هامة ساعدت بني أمية على المضي في تحقيق أهدافهم قُدُماً .

وقد كان معاوية في هذه الأثناء يُركّز موقعه ويُعزّز حكمه يوماً بعد يوم . ومع اقتراب عهد عثمان من نهايته كانت بنو أمية قد تمكنت من القبض على مركزين هامين فقط من مراكز القوة في الدولة الإسلامية هما مركز القوة السياسية أي السلطة السياسية و مركز السلطة الاقتصادية أي بيت المال . ولكن مع مقتل (عثمان) راح (معاوية) يستدرج قوة جديدة إلى جانبه وذلك من خلال تشبثه فجأةً بقصة الخليفة المقتول والمظلوم وبالتالي محاولة كسب العواطف الدينية والعقائدية للناس (على الأقل أهل الشام منهم) وصار يقول بأن خليفة الإسلام والمسلمين قد قُتل ، وقد قُتل مظلوماً ، وأنه : ﴿ **مَنْ قُتِلَ مظلوماً فقد جعلنا لوليه سُلطاناً** ﴾[1] وأنّ المطالبة بدم الخليفة المظلوم أمر واجبٌ لا بد من القيام به . وبهذا يكون قد كسب وضم إليه العواطف الدينية لمئات الألاف وربما الملايين من الناس . والله يعلمُ فقط مقدار الدموع التي استطاع (معاوية) أن يسكبها من مآقي الناس بفعل التعزية والندبة على (عثمان) .

---

(١) سورة الإسراء : الآية ٣٣ .

كان هذا عمل بني أمية قبل خلافة (عثمان) وفي عهد عثمان وهذا هو حالهم مع مقتل (عثمان) الذي كان مقارناً مع خلافة علي عليه السلام .

أمّا بعد استشهاد علي عليه السلام فقد صار معاوية الخليفة المطلق للمسلمين وبذلك تكون كل السلطات والإمكانات قد أصبحت تحت تصرفه . بل إنه استطاع كذلك مع غصبه للسلطة الدينية أن يستثمر قوة رابعة وذلك من خلال تحويل الشخصيات والوجوه الدينية والذين يُسمون اليوم برجال الدين ، إلى أُجراء يعملون عنده . ومنذ ذلك اليوم بدأت فجأةً موجة الوضع والجعل في الحديث سواء في مدح (عثمان) أو حتىٰ مدح الشيخين أحياناً ذلك أنَّ (معاوية) كان يرىٰ كل ذلك في مصلحته وضرراً لعلي عليه السلام . وما أكثر الأموال التي صُرفت في هذا المجال .

وقد أشار علي(ع) في خطبه وأحاديثه مراراً إلى الخطر العظيم الذي يتمثّل في بني أمية . ففي إحدى خطبه التي تطرق فيها إلى الخوارج وهي من الخُطب التي أوردها في أواخر عمره حيث يقول عليه السلام : « فأنا فقأتُ عين الفتنةَ »[1] ثم يقفز فجأة فوق الموضوع ويعود لبني أمية فيقول : « إلاّ وإنّ أخوفَ الفِتَن عندي عليكُم فتنةُ بني أمية فإنها فتنةٌ عمياءُ مُظْلمة »[2] .

لقد وردت الإشارة إلى فتنة بني أمية في خطب كثيرة للإمام علي (ع) . ومن النقاط التي يُشير إليها عليه السلام عندما يتطرق لذكر فتنتهم هي ضربهم للمساواة الإسلامية بشكل كامل بالإضافة إلى محاولاتهم الحثيثة لمحو أي أثر لنظام التآخي الإسلامي الذي دعا إليه الدين الحنيف حيث يؤكد في أكثر من خطبة بأن بني أمية سيقسّمون الناس إلى عبيد وأسياد وأنتم أيها الناس ستتحولون عملياً إلى عبيد بين أيديهم كما جاء في إحدىٰ خطبه : « حتىٰ لا يكون انتصار أحدِكُم بنهُم إلاّ كانتصار العبد من رَبّه »[3] إلى آخر ذلك من الإشارات الكثيرة بهذا الخصوص .

(١، ٢) نهج البلاغة فيض الإسلام الخطبة ٩٢ ص ٢٧٣ .

(٣) نهج البلاغة فيض الإسلام خطبة رقم ٩٢ ص٢٧٤ .

المسألة الثانية التي تمت الإشارة إليها في خطب أمير المؤمنين (ع) وجاءت ضمن تصوراته المستقبلية للعهد الأموي وهو ما حدث بالفعل بعد رحيله عليه السلام ، هي تنبؤه بالقضاء على ذوي العلم والبصيرة من بعده .

يقول عليه السلام في هذا الصدد : « عَمَّتْ خُطَّتُها وخُصَّت بَليتُها »[1] . وهو تعبير بالغ الدقة وحسن التصوير للغاية . ويضيف بعد ذلك : « وأصابَ البلاءُ مَنْ أبصر فيها وأخطأ البلاء من عَمِيَ عنها »[2] .

نعم لأنهم لا يُريدون رؤية الإنسان البصير بينهم . والتاريخ يشهد على أن بني أمية قد قاموا بالفعل بجمع المتنورين وأهل البصر والبصيرة من أفراد الأمة كما تجمع الدجاجات حبوبها وأفنوهم جميعاً . وما أكثر المجازر المفجعة التي ارتكبوها في هذا المجال .

المسألة الثالثة هي مسألة هتك الحرمات الإلهية . حيث يتنبأ عليه السلام بأنهم سوف لن يتركوا من المحرمات شيئاً إلا ويرتكبوه كما جاء في قوله عليه السلام : « لا يَدعوا لله مُحَرَّماً إلاّ استَحلُّوه ولا عَقْداً إلاّ حلُّوه »[3] .

والمسألة الرابعة تصل إلى أبعد من ذلك عندما يصلون إلى حد قلب الإسلام رأساً على عقب وإغفال الناس عنه بهذه الطريقة النكراء حيث يقول عليه السلام : « ولُبِسَ الإسلامُ لُبْسَ الفرو مقلوباً »[4] . ارأيتم كيف أنّ الفرو إنما يتميز بأثره في التدفئة واستخدامه كمادة جمالية وجذّابة وهي المميزات التي سيفقدها تماماً فيما لو لُبس مقلوباً . وأنت إن لَبِستَ الفرو مقلوباً فسيتحول أثره إلى ذلك الشيء الموحش الذي يثير الاشمئزاز والسخرية لدى الناس، إنه باستشهاده عليه السلام لم ينته كما كان يتنبأ معاوية بل إنه بموته تحوّل إلى نموذج حي في المجتمع وإن كان قد قُتل كفرد من أفراد المجتمع . اي إنّ فكر علي قد انتشر بعد

(١، ٢) المصدر السابق .

(٣)نهج البلاغة فيض الإسلام خطبة ٩٧ ص ٢٩٠ .

(٤) نهج البلاغة فيض الإسلام خطبة ١٠٧ ص ٣٢٤ .

مماته أكثر من ذي قبل كما أن الشيعة قد اجتمع شملهم في مقابل الحزب الأموي ، وتجلّت حالة من وحدة الفكر بينهم ، بل إن شيعة علي لم يصبح لهم كيان وتجمع مستقل إلاّ بعد استشهاد علي (ع) .

لقد حارب معاوية فكر علي بشدة طوال فترة حكمه المتجبر فهو قد أمر بسب علي ولعنه من على المنابر وذلك بتعميم حكومي أرسله إلى كافة المحافظات طلب فيه لعن علي في صلوات الجمعة . وهذه علامة بارزة على أنّ علياً إنما كان قد أصبح في حينه قوةً ، ومثلاً أعلىٰ ، وفكراً وعقيدة ، وإيماناً حياً ، في روح الناس .

لقد عمل (معاوية) الكثير من أجل محاربة فكر علي وروحه . فهو قد سمّم هذا وقطع رأس ذاك وكل هذا كان محتملاً حتىٰ ذلك الوقت ، فمعاوية رغم كل الذي حصل كان يحافظ على الظواهر من أجل خداع الناس . ولكن ما أنْ حان عهد (يزيد) حتىٰ كُسرت الجرة وافتضح الأمر تماماً . وفي الحقيقة يمكن القول بأن مجيء يزيد إلى السلطة شكّل غلطةً في السياسة الأموية فهو لم يتمكن من إجراء وتنفيذ السياسة الأموية . بل إنه فوق ذلك قام بعمل مزَّق من خلاله الستار الذي كان يتستر به بنو أمية وفَضَحَ أمرهم .

في مثل هذه الظروف بالذات يبدأ أبو عبد الله الحسين (ع) نهضته وتحركه . والآن سأتحدث إليكم قليلاً عن هذه النهضة . سأقول لكم شيئاً أرجو أنْ تتأملوا فيه وتلاحظوا هل هو كذلك فعلاً أم لا ؟ فكما أنّ كلمات وآيات القرآن الكريم قابلة لاستيعاب نوع خاص من الألحان بسهولة بلحاظ لفظها وفصاحتها وبلاغتها وسلاستها وهو ما يشكّل بدوره آيةً كبيرةً جداً من آيات الحكمة الربّانية ينفذ من خلالها القرآن إلى القلوب ، فإن المرء عندما يطالع تاريخ واقعة عاشوراء يُلاحظ فيه استعداد وقابلية تحول هذه الواقعة إلى مسرح وتمثيلية تاريخية . وكما أنّ القرآن الكريم لم يأتِ بهدف استيعاب الألحان لكنه يحمل في طيّاته هذه القابلية كذلك حادثة كربلاء لم تُصنع بهدف ان تصبح مسرحية أو تمثيلية لكنها تحمل هذه القابلية .

لا ادري بالضبط مدى دقة انطباق هذا الكلام مع الواقع لكنني أعتقد أنّ

أبا عبد الله كان يقصد أنْ يخلق شيئاً من هذا القبيل . صحيح أنني لا أستطيع إثبات هذا الشيء لكنني لا أنفيه أيضاً . لقد دُوِّنت قصة كربلاء قبل حوالي ألف ومائتي عام على الورق وقد دونت في وقت لم يكن أحد يتصور أنها ستأخذ كل هذه الأبعاد . إن المتن الذي أُعِدَّ بهدف عرض وقائع الحادثة ورد أساساً بطابع أدبي مسرحي كما لو أنهم كانوا يهدفون من وراء ذلك عرضه على المسرح . يوجد لدينا في التاريخ العديد من حوادث الاستشهاد الفجيع لكن هل يمكن القول بأن هذه القصة قد حصلت صدفةً بهذا الشكل المأساوي الخاص وإنه لم يكن فيها أي دور تعمدي وهادف من قبل أبي عبد الله الحسين نفسه ؟ لا أعرف ذلك بالضبط . لكن القضية بالنتيجة قد حصلت هكذا وأنا بدوري لا يمكنني التصديق بأنّ الأمر قد حصل على سبيل المصادفة المحضة .

الإمام يُطالب بالبيعة فيخرج مهاجراً بعد ثلاثة أيام من ذلك التاريخ تاركاً مدينة الرسول وراءه متوجهاً إلى (مكة) حيث حرم الله الأمن . وهناك يقصد الإقامة ويبدأ بالنشاط والحركة . فلماذا تراهُ اختار مكة ؟ ألأن مكة موطن حرم الله الأمن وأنه اختارها لتصوره أن بني أمية سيحترمون هذا المكان ؟ فهل تراه كان يعتقد أن سياسة بني أمية إذا ما اقتضت مصلحتها العامة قتله فسوف لن يقتلوه في مكة ؟ أو لا ، فهو قد ذهب إلى مكة حتىٰ يُعلن عن مخالفته للحاكم الجديد من خلال هذه الهجرة لأنه لو بقي في المدينة لم يكن باستطاعته إسماع صوته إلى العالم الإسلامي . وبهذه الطريقة يكون قد أعلن عن رفضه للبيعة وخرج بأهل بيته إلى مكة ، الأمر الذي أدى إلى أن ينعكس صدى عمله هذا في الأطراف والأكناف وإنّ العالم قد فهم بأنّ الحسين بن علي عليه السلام لم يوافق على البيعة مما حدا به لمغادرة المدينة والتوجه إلى (مكة) ، وهذا بحد ذاته (إذا ما صح التعبير) نوع من أنواع العمل الدعائي الهادف إلى إيصال هدف الإمام ورسالته إلى الناس .

إنّ الشيء الأكثر إثارة للعجب والإثارة هو أنه عليه السلام وبعد أن يرد (مكة) في الثالث من شعبان يقضي أشهر ، رمضان ، وشوال ، وذي القعدة ، وذي الحجة (حتى يوم الثامن منه) وهي الأيام التي يُستحب فيها أداء مناسك العمرة حيث يرد الناس من الأطراف والأكناف إلى (مكة) لأداء هذه الوظيفة .

وبعد أن يمضي كل هذه الفترة إلى جانب حرم الله الأمن يبدأ فصل الحج بالاقتراب شيئاً فشيئاً ، وبعد أن يبدأ الناس بالتجمع والقدوم بـأعداد هـائلة من أقصى بلاد خراسان إلى ما شاء الله من المناطق لأداء فريضة الحج الكبرى ، وبالضبط عنـدما يستعد الناس في يوم التروية للتوجه إلى (منى) و(عرفات) في يوم الثامن من ذي الحجة لأداء المناسك يُعلن الإمام الحسين (ع) وبشكل مفـاجىء أنه يُـريد مغـادرة (مكة) متوجهاً نحو (العراق) ، إلى الكوفة .

أي إنه وفي مثل هذه الظروف بالذات يُدير ظهره للكعبة وللحـج ، أي إنه يحتج .

إنه بذلك يُبَيِّنُ احتجاجه ونقده وعدم رضاه بهذه الوسيلة وبهذا الشكل .

أي إنـه يُريـد القول بـأن (الكعبة) التي صـارت مسخرَّة لبني أميـة ، وإن الحج الذي يُديره ويُشرف عليـه (يزيـد) لم يَعُد فيـه فائـدة للمسـلمين . إنَّ هـذا الإعراض عن الكعبة وعن أعمال الحج في مثل تلك المناسبـة والقول فيـها بعد بـأنه إنما أعرض عن الحج لأنه ذاهبٌ إلى الجهـاد وفي سبيل رضـا الله وإنه أعـرض عن الحج لأنه أراد التوجه للأمر بـالمعروف والنهي عن المنكـر ، لهو عمـل بالـغ الأهمية وليس بعمَل بسيط أبداً .

إن القيمة التبليغية وأُسلوب وطريقة ومنهج العمل الـدعائي قـد وصل هنـا إلى أوجه . فهو قد اتخذ قراراً بالسفر في رحلةٍ كان رأي كافة العقلاء فيها (بالطبع العقـلاء الذين يقـوم حكمهم على معـايير المصلحـة)أنها لن تكـون رحلةً مـوفقـة وليست لصالح شخص الإمام الحسين (ع) . أي إنهم كانوا يتنبأون بمقتله في هذه الرحلة . والإمام الحسين يؤيد صحة تنبؤاتهم في أكثر من مورد بقوله : وأنا أعرف ذلك أيضاً .

وعندما يسألونه فما بالك إذن تأخذ معك الأطفال والعيال ؟ يقول : عليّ أنْ آخـذ هؤلاء معي أيضاً . فـوجود أهـل بيت الإمام الحسـين (ع) جعل من مسرح كـربلاء أكـثر حرارةً ولهيبـاً ، وفي الواقـع يمكن القول بـأنّ الإمام الحسين(ع) قد

استخدم عدداً من المُبلّغين الذين أخذهم العدو بيده وبإرادته ، لينفذوا إلى قلب حكومة العدو في الشام . وهذا بحد ذاته تكتيك عجيب يفوق التصور الاعتيادي . كل ذلك كان من أجل أنْ يصل هذا الصوت بأكبر حجم ممكن إلى العالم كله وبأوسع شكل ممكن إلى العالم الإسلامي آنذاك ويشق أبعاد التاريخ وأبعاد الأزمان ، حتى لا يبقى أي مانع في طريقه .

في الطريق إلى (الكوفة) أيضاً نُطالع أعمال الحسين (ع) فنراها عبارة عن تعبير تمثيلي وتصويري عن حقيقة الإسلام والمروءة والإنسانية والروح وحقّانية الإسلام .

دعونا الآن عن كل هذا وانظروا لما يحصل فيما بعد ! أنه أمرٌ ليس بالبسيط ! ففي إحدى المنازل التي ينزلها الحُسين في الطريق إلى (الكوفة) يأمر عليه السلام أصحابه بحمل الكثير من الماء ويقول لهم املأوا كل ما عندكم من القرب بالماء ولا تدعوا واحدةً منها تنقص نقطة ماء .

«وحمّلوا كل الدواب والجمال التي عندكم بالمياه ما استطعتم» (إنّه تنبؤ لذلك اليوم) . وبينما هم في الطريق إذا بأحد أصحابه يُنادي لا حول ولا قوة إلاّ بالله أو يكبّر أو يقول لا إله إلا الله . أو إنا لله وإنا إليه راجعون . فيقولون له : ما الخبر ؟ فيقول لهم . إنني أعرف هذه الأرض جيداً ما بهذه الأرض نخلةٌ قط . ولكنني أرى شيئاً يشبه النخيل من بعيد فيطلب الحسين من أصحابه التدقيق أكثر فيقول أصحاب النظر الحاد منهم : لا يا مولاي إنها ليست نخيلاً . إنها رايات ورجال وخيول ، « لا نراه إلاّ هوادي الخيل » .

وبينما هم بين هذا القول وذاك ينظر الحسين بنفسه فيقول وأنا أراها كذلك أيضاً ، إنها الخيول . انظروا إلى ذلك الجبل على يساركم فضعوا الجبل في ظهوركم واتجهوا لننزل تلك الأرض ونستقبل القوم من وجه واحد . إنه (الحُر بن يزيد الرياحي) ومعه ألفُ فارس . والحسين (ع) كأبيه علي (ع) في معركة (صفين) لا يستغل ظروف المعركة للقيام بأي عمل غير إنساني . بل إنه يرى في

مثل هذه الظروف أن المطلوب إظهار أعلى درجات المروءة والفروسية الإسلامية فيقول لأصحابه وفتيانه : اسقوا القوم ورشّفوا الخيل ترشيفاً . ويُشرف هو بنفسه على ترشيف الخيل . يقول أحدهم (وهو من عسكر العدو) إنه قد أعطاني قربةً في البداية لم استطع فتحها فجاء هو بنفسه وفتحها لي . حتىٰ الخيول فإنه عليه السلام لم يكتف بسقيها مرةً واحدةً بل كان يطلب من أصحابه أن يسقوها حتىٰ يُشبعوها تماماً . تماماً كما فعل بكربلاء فيما بعد فإنه لم يُرد أن يكون هو البادىء بالحرب .

وهنا لا بد لي من التوضيح بأنني لستُ مع وجهة نظر صاحب كتاب « الشهيد الخالد » وهو من أصدقائنا القدامىٰ (المعروف أن صاحب هذا الكتاب الذي أحدث ضجة كبيرة في ذلك الزمان لا يرى أن الإمام الحسين (ع) كان متيقناً تماماً بأنه إنما سيلاقي حتفه حتماً في معركة كربلاء بل إنه كان يحتمل عليه السلام النصر أيضاً مع كون هذا الاحتمال بسيطاً) . وقد سألته كيف يُفسّرُ خطب الإمام الحسين (ع) التي أصبحت أكثر لهيباً وحرارةً بعدما يئس عليه السلام من نصرة أهل (الكوفة) له ، ووصول خبر مقتل (مسلم) إليه ، ووقوع (الكوفة) بيد ابن زياد ؟ قد يأتي أحد ويقول ولكن الحسين نفسه كان فقد طريق العودة . عظيم جداً ولنفرض أنه كذلك فعلاً ، ولكن لماذا لم يقل لأصحابه في ليلة عاشوراء بأن بقاءكم معي هنا حرام بعد أنْ قال لهم أنتم في حل من بيعتي وأصرّوا هم على البقاء معه . لا سيما وأنه كان يعرف أنهم يُريدون قتله هو ، ولا يُريدونهم بِضرٍ ، وبقاؤهم معه في هذه الحال كان يعني إهراق دمائهم هدراً وهو من عمل الحرام ؟ فلماذا لم يقل الحسين لهم بأنّ الواجب يُملي عليهم تركهُ ؟ بل إنه بعد أنْ تأكد من صمودهم أيدهم وشجعهم كثيراً على موقفهم وحينها فقط باح لهم بأسرار المواجهة التي لم يكونوا قد عرفوها بعد .

في ليلة عاشوراء وبعد أن يصبح الأمر حتمياً يبعث عليه السلام بـ(حبيب بن مظاهر) إلى بني أسد ليأتي إليه إنْ أمكن بعددٍ من الأنصار . مما يعني أنه كان يُريد زيادة عدد القتلىٰ ذلك أنه كلما كانت كمية الدماء المُراقة على طريق الاستشهاد أكثر كلما كثر عدد السامعين لهذا النداء في الدنيا واتسع مدى الثورة .

في يوم عاشوراء ينتقل الحُر من معسكر (عمر بن سعد) ويلتحق بمعسكر الحسين ويأتي ليطلب التوبة من أبي عبد الله فيقول له أبو عبد الله أن انزل عن فرسك يا حُر فيقول الحُر هل تأذن لي أنْ أفديك بدمي يا مولاي . ما معنىً أن تُريق دمكَ في طريقنا ؟ هل يعني أنك لو قُتلت فإني سأنجو من الموت ؟ فأنا لستُ بناجٍ . ولم يحصل أنْ سجّل التاريخ أنه كان يطلب النجاة بنفسه أو أنه أراد المحافظة على دمه وروحه .

إنها أمور تدلُ على أنه عليه السلام كان يُريد هذا المسرح الدموي ، بل إنه كان يلوّن ذلك المسرح بنفسه ، ولذا ترى هنا ، وأنت تُطالع حوادث ما قبل عاشوراء ، صوراً عجيبة كما لو أنها وجدت تعمّداً حتى يتبين الموضوع ويتمثّل جيداً . وهنا بالذات ترى هذا الجانب التمثيلي والمسرحي بحدة وبقوة كبيرة . رَحِمَ الله السيد (آيتي) [صديقنا العزيز تذكرناه هذه الليلة] حيث يؤكد على هذه النقطة كثيراً في كتابه (تحليل واقعة عاشوراء) . وتعبيره في هذا المجال هو كما يلي :

إنّ لون الدم أكثر الألوان ثباتاً من الناحية التاريخية . ففي التاريخ والمسائل التاريخية يكون اللون الذي لا يمحىٰ أبداً هو اللون الأحمر ، لون الدم ، والحسين بن علي (ع) إنما أراد بوعي وسابق إصرار أنْ يكتب تاريخه بهذا اللون الثابت الذي لا يزول فكتب بذلك رسالته بدمه .

يُقال إنّ هناك من الناس مَنْ يكتب وصيته بدمه . وهذا بحد ذاته دليل على أنّ من يكتب رسالته ووصيته بدمه له معنىً آخر غير المعنى العادي ، كما أن هناك تقليداً كان يتبعه العرب أيام الجاهلية يقضي بأنْ تأتي القبائل التي تريد أن تعقد تحالفاً مقدساً فيما بينها بإناء من الدم (ليس دمها طبعاً) وتغمس أيديها به وتقول : إنها تعقد اتفاقاً مقدّساً فيما بينها وهو اتفاق غير قابل للنقض أبداً ، فهو تحالف الدم وتحالف الدم غير قابل للنقض ، والحسين بن علي (ع) يبدو أنه كان يلوّن الواقعة تلويناً في يوم عاشوراء لكنه تلوين بالدم . ذلك لأن اللون الأكثر ثباتاً في التاريخ هو لون الدم . إنه يكتب تاريخه بدمه .

نسمع أحياناً، وأحياناً أخرى نقرأ في الكتب، أن كثيراً من السلاطين، أو الملوك، أو الشخصيات، التي كانت تريد أن تُخلّد اسمها في التاريخ قبل مئات السنين، كانت تتوسل بكتابة اسمها واسم سلالتها وكل ما يهمها كتابته من ركوع الجماهير بين يديها والصلاة لها أو انتسابها إلى الآلهة وغير ذلك من الأمور، فوق لوح فلزيّ كبير، أو بواسطة الحك والحفر على الحجر.

والسؤال الآن هو لماذا كانت تكتب ذلك على لوح من الفلز أو الحجر؟ والجواب هو أنْ تبقى خالدة ولا تفنى. وكما نرى ونعرف جميعاً فإن التاريخ قد دفنها جميعاً تحت أطنان من الأنقاض والأتربة ولم يطّلع عليها أحد لآلاف من السنين ثم جاء الحفارون الأوروبيون وأخرجوها من بين الأنقاض، ثم ماذا؟ صحيح أنهم أخرجوها من بين الأنقاض، وأنها قد كتبت على الأحجار لكنها لم تكتب في القلوب.

الإمام الحسين (ع) لم يكتب رسالته على لوح حجري، ولا هو حفرها في أي لوح كان، وما قاله لم يقلْه إلاّ وسط أزيز الرياح، أو نفخه في آذان أصحابه لكنه ثبت وطُبع في القلوب حتى صار لا يمكن محوه منها على الإطلاق. وقد كان واعياً تماماً لهذه الحقيقة. فقد كان يرى المستقبل جيداً ويعرف بأنّ الحسين بعد ذلك غير قابل للقتل ولا يمكن قتله أبداً. فهل هذا الذي جرى كله كان مجرد صدفةً؟ أبداً فأبو عبد الله الحسين قد ظل يطلب النصرة ويستغيث هل من ناصر ينصرني، حتى الساعات الأخيرة من يوم عاشوراء أي إنه كان يطلبُ انصاراً يُقتلون معه وليس أنصاراً يُنقذونه من الموت. فالإمام الحسين وبعد أنْ قُتِل أصحابه وإخوته وأبناؤه لم يكن بالتأكيد يُريد الحياة، ولكنه كان يبحث عن ناصرٍ ومعين ليأتي ويُقتل معه، ولهذا تراه ظلّ ينادي «هل من ناصرٍ ينصرني». لقد وصل صوته إلى خيم النساء فبكين وندبن وعلت أصواتهن بالنحيب. مما دفع أبا عبد الله الحسين (ع) أن يرسل أخاه أبا الفضل العباس وشخصاً آخر من أهل بيته طالباً منهما إسكات النساء وقد فعلا ذلك. ثم أتى هو بنفسه إلى خيمة الحرم وهنا أعطينه طفله الرضيع. لقد كان في حضن عمته (زينب) فأخذه منها أبو عبد الله وضمهُ إلى صدره، ولم يَقل أبو عبد الله لأخته زينب: أُخَيّةَ لِمَ جئت بهذا الطفل

الرضيع وسط هذه المعمعة والرماح تنطلق من كل جانب والأمن مفقود تماماً والعدو كامن لنا ولا يُريد بنا إلاّ السوء بأي شكل كان . بل إنه أخذه منها وأجلسه في حجره وبينما هو في هذه الحال إذ أصاب سهم قادمٌ من طرف العدو رقبة الطفل الرضيع . فماذا يفعل أبو عبد الله في هذه الحال ؟ لاحظوا التلوين كيف يحدث ؟ فما أن يستشهد الطفل بهذه الصورة حتىٰ يتلقّىٰ الحسين الدم بكفه ويرمي به إلى السماء لينتشر في الفضاء ولتشهد السماء على الواقعة !

إنها اللحظات التاريخية الأخيرة من عمره الشريف وقد أصابته جراحات كثيرة وسقط إلى الأرض واشتد ضرب السهام على بدنه الشريف حتىٰ صار يزحف على ركبتيه ، كان كلّما حاول القيام رماه أحدهم بسهم جديد حتىٰ أصاب واحد منها نحره الشريف ، وكما يقول الراوي فقد وضع يده تحت الجُرح ، فلما امتلأت دماً لطخ به رأسه ووجهه وقال : « هكذا أكون حتىٰ ألقىٰ الله وجدي رسول الله وأنا مخضوب بدمي » .

إنها مشاهدٌ تهتز لها الأبدان وفصول مُثيرة للغاية من واقعة كربلاء . إنها أمور وقضايا تجعل من رسالة الإمام الحسين عليه السلام رسالة خالدة إلى الأبد وثابتة لا تتزحزح في لوح التاريخ الأبدي . العدو يهجم على معسكر الحسين في عصر التاسع من محرم ، لكن أبا عبد الله يُرسل أخاه أبا الفضل ويقول له : إني أريد أن أقضي هذه الليلة في الدُّعاء والذكر والمناجاة مع ربي ، والصلاة والاستغفار ، فاذهب إليهم واجعلهم بأية وسيلة كانت يؤخرون المعركة إلى الغد . بالطبع فإننا سنقاتلهم غداً . ويذهب الأعداء بالفعل . وهكذا تمكّن أبو عبد الله الحسين من القيام بعدة أعمال في ليلة العاشر من محرّم يُسجلها لنا التاريخ .

واحدة من هذه الأعمال كانت تتمثّل في دعوته أصحابه (لا سيما أهل الخبرة في هذا الفن من العمل) لشحذ سيوفهم وصقل حرابهم وأسلحتهم وإعدادها للمعركة القادمة، وقد كان يراقب بنفسه هذه العملية . فقد كان أحدهم متخصصاً واسمه ـ جون ـ حيث جعله مُشرفاً ثم راقب هو بنفسه دقة تنفيذ المهام .

العمل الآخر الذي قام به أبو عبد الله في تلك الليلة هو إصداره التعليمات بتقريب الخيم التي كانت متناثرة حتى صارت حبالها متداخلةً مع بعضها البعض بحيث صار من الصعب على الإنسان أن يمر بين الخيمة والأخرى . ثم أمر بنصب الخيم بشكل هلالي .

وأصدر تعليماته بحفر خندق على امتداد الهلال من الخلف يكون مانعاً لعبور الخيل وبالتالي منع الأعداء من مهاجمة مخيم الحسين من الخلف .

كذلك أمر أصحابه بجمع الحطب والقصب الكثير الذي كان متناثراً هناك وإعداده في تلك الليلة لاستخدامه في الصباح وذلك بإضرام النار فيه بعد أن وضع في منخفض ليكون مانعاً آخر يمنع العدو من الاقتراب من المخيم .

وبذلك يكونون قد تهيأوا لقتال العدو من جهة القلب واليمين واليسار فقط وهم مطمئنون من جهة الخلف تماماً .

العمل الآخر الذي قام به عليه السلام في تلك الليلة هو جمعه لأصحابه جميعاً في خيمة واحدةٍ وإتمام الحجة عليهم . فبعد أن شكرهم بشكل بليغ وعميق سواء الأهل منهم أو الأصحاب قائلاً لهم : أما بعدُ فإني لا أعلمُ أصحاباً أوفىٰ ولا خيراً من أصحابي ولا أهل بيتٍ ابرُ ولا اوصلُ من أهل بيتي . . . »

أضاف بعد ذلك : « ألا وإني لأظنُّ يوماً لنا من هؤلاء ، ألا وإني قد أذنت لكم فانطلقوا جميعاً في حل ليس عليكم مني ذمام . هذا الليل قد غشيكم فاتخذوه جملًا ، وليأخذ كل رجلٍ منكم بيدِ رجلٍ من أهل بيتي ، فجزاكم الله جميعاً ثم تفرقوا في البلاد . . . فإنَّ القوم يطلبونني ولو أصابوني لهوا عن طلب غيري » . ولكن ما أن أتم حديثه عليه السلام حتىٰ تصاعدت صيحات أصحابه وأهل بيته واحداً واحداً وكيف نفعل هذا يا أبا عبد الله ! لا أرانا الله ذلك أبداً . وكما يذكرُ الرواة فقد بدأهم بهذا القول العباس بن علي (ع)[1] .

---

(١) بحار الأنوار ج ٤٤ ص ٣٩٢ . إرشاد الشيخ المفيد ص ٢٣١ . اعلام الورى ص ٢٣٥ .

وهنا ترانا مرةً أخرى أمام مسرحٍ تاريخي في الحديث والخطابة . حيث عبّر كل واحد منهم عن مشاعره بطريقته الخاصة .

فهذا أحدهم يقول : « أما والله لو علمتُ أني أُقتل ثمّ أحيى ، ثم أحرق ثم أحيى ، ثم أُذرى يُفعل ذلك بي سبعين مرّة ما فارقتك حتى ألقى حمامي دونك . . . » .

وآخر يقول : « حتىٰ أُقتل هكذا ألف مرة وأنّ الله يدفع بذلك القتل عن نفسك وعن أنفس هؤلاء الفتيان من أهل بيتك . . . » وهكذا يكون الحسين قد فعل كل ما هو مطلوب منه ، وبقي الأصحاب معه يُقاتلون إلى جانبه ، خالصين مُخلصين .

وكما يذكرُ الرواة أيضاً أنه وفي أيام (محرّم) تلك قيل لـ(محمد بن بشير الحضرمي) الذي كان حاضراً مع أبي عبد الله الحسين (ع) إن الأخبار تفيد بأنّ ابنك قد أُسِر بثغر (الري) فقال : عند الله أحتسبه ونفسي ما كُنتُ أُحبُّ أنْ يُؤسر وأنا أبقىٰ بعده حياً . فلمّا سمع الحسين قوله قال له : « رحمك الله ، أنتَ في حلٍ من بيعتي ، فاعمل في فكاك وَلدكَ وخُذ هذه الأثواب والبرود ليستعين بها ابنك الآخر في فكاك أخيه . » وقيل إنّ هذه الأثواب كان يمكن استبدالها بنقود تبلغ قيمتها آنذاك ألف دينار يستطيع فيها والد الأسير أنْ يستبدل بها ابنه مقابل ذلك المال . لكنّ الحضرمي قال : « أكلتني السباعُ حياً إنْ فارقتُك »[1] . صحيح أنّ ابني قد أُسِر لكن روحه ليست عليّ أغلىٰ من روحك !!

في تلك الليلة وبعد أن أتمّ عليه السلام الحجة على أصحابه واطمأنّ إلى موقفهم الصلب جميعاً وبعد أن سمع منهم ذلك الموقف الصامد بكل صراحة وبعد أن أعلنوا عن وفائهم المطلق للمسيرة وعدم استعدادهم للانفصال عنه تغيّر المسرح فجاةً . وإذا بالإمام يخاطبهم قائلاً : فما دام الأمر كذلك « فإني غداً أُقتل وتقتلون كلكم معي » . فقالوا بأجمعهم : الحمد لله الذي أكرمنا بنصرك وشرّفنا بالقتل معك أوَلاَ نَرضىٰ أن نكون معك في درجتك ؟

---

(١) بحار الأنوار ج ٤٤ ص ٣٩٤ .

(القاسم بن الحسن) وهو ذلك الصبي الذي لم يكن يتجاوز الثالثة عشرة من عمره وهو ممن كان حاضراً المجلس كذلك لمّا سمع عمه الحسين يقول بأنّ الجميع سيُقتل أراد هو الآخر أنْ يرفع الشك من أمر مقتله بسبب صغر سنه ويتيقن من كلام عمه فقال له : وأنا فيمن يُقتل - يا عم -؟ يقول الرواة فاشفق عليه الحسين وقال : يا بن أخي كيف تجدُ طعم الموت عندك ؟ قال : « يا عمّاه ، أحلىٰ من العسل » نعم فأنت عندما تُخبرني بموتي معك غداً فإنك تُبشرُني بِبُشرىٰ عظيمة . هذا هو لسان حال القاسم (ع) فقال له الحسين : أي - والله - فداك عَمُّكَ : إنّك لأحدُ من يُقْتَلُ معي بعد أنْ تبلُوَ بِبَلاءٍ عظيم .

والآن لاحظوا المسرح العظيم الذي سيحصل غداً ذلك المسرح الطبيعي الذي ستتلاحق فصوله على واقع الحياة :

قالوا وما زال آل أبي طالب يتسابقون إلى القتال حتىٰ انتهى الدور إلى القاسم وديعة الحسن بن علي عند أخيه الحسين (ع) وهو غلام لم يبلغُ الحُلم . نعم فبعد استشهاد علي الأكبر (ع) يأتي هذا الغلام الذي لم يبلغ الحُلم ويستأذن عمه الحسين بالبراز . قال الراوي :

« خرج علينا غلام كأنّ وجهه شقةُ قمر طالعٍ وبيده سيف ، وعليه قميص وإزار ، وفي رجليه نعلان انقطع شسع أحدهما ، ما أنسىٰ أنها كانت اليسرى . . » إلى آخر الرواية التي تُظهر أنه عليه السلام لم يجد اللباس المناسب له للقتال لصغر سنه .

ففي يوم عاشوراء لم يكن أحد يبرز إلى القتال دون إذن الإمام الحسين (ع) وكل من كان يُريد البراز ، كان يأتي إلى الحسين ويُسلّم عليه أولاً ويقول : السلام عليك يا أبا عبد الله ، أتأذن لي بالقتال ؟

يقول الراوي لم يأذن أبو عبد الله للقاسم بتلك السهولة ويقول الرواة أيضاً : فلم يزل يتوسل إليه ويُقبّل يديه ورجليه حتىٰ أذن لهُ . فهل كان ذلك صدفةً أم إنها إرادة الحسين التي أرادتْ للتاريخ أنْ يحكم على كل صغيرةٍ وكبيرة . فالقاسم يلحُ على عمه والحُسين ينكرُ عليه أولاً الخروج ثم يأذن لهُ ولكن ليس

باللفظ فهو عليه السلام يريد أنْ يقول له وللتاريخ قولاً واحداً فلذلك تراهُ يُعانقُ ابن أخيه وابن أخيه يُعانقهُ وكما ينقل الرواة :

« ونظر إليه الحسين لم يملك نفسه دون أنْ تقدَّم إليه واعتنقه وجعلا يبكيان حتى غُشي عليهما » . [وكان الأصحاب وأهل بيت الحسين (ع) يُراقبان هذا المنظر المهيب عن كثب] وركب هذا الغلام فرسه وانطلق إلى الميدان .

يقول الراوي وهو من معسكر (عمر بن سعد) لقد خرج علينا غلام لا يلبس خوذة الميدان بل يلبس العمة ولا يلبس الحذاء ، بل يلبس نعلاً عادياً وقد كانت اليسرى منهما أكبر من اليمنى وعن وجهه عليه السلام يقول الراوي : بتعبيره : « كأنه فلقةُ القمر »[1] . ويضيف الراوي لقد قدم إلينا وعيناه لا زالتا مغرورقتين بالدموع .

كانت العادة أن يُعرِّف الفارس الذي يبرز إلى الميدان عن نفسه فمن هو هذا الغلام الذي يبرز إلى القوم .

يقول الراوي : فبرز إلى الميدان باكياً وهو يقول :

إنْ تنكروني فأنا ابنُ الحسن ... سبط النبيِّ المصطفى والمؤتمَنْ
هذا الحسين كالأسير المُرتَهن ... بين أُناسٍ لا سُقوا صَوبَ المزَنْ[2]

في هذه الأثناء كان أبو عبد الله الحسين قد أحضر فرسه وأعَدّ عدته وكان رهن إشارة ابن أخيه ، وكأنه ينتظر الفرصة التي سيطلبه فيها ليؤدي واجبه نحو ابن أخيه . لا أدري كيف كان حال أبي عبد الله في تلك اللحظات .

وبينما هو كذلك ينتظر صوت القاسم وإذا بالقاسم يصيح : يا عمّاه ؟يقول الراوي فأتاه الحسين مُسرعاً وانقض كالصقر ، وتخلل الصفوف ثم شدّ بشدّة الليث إذا غضب .

---

(١) مناقب ابن شهر آشوب ج ٤ ص ١٠٦ . كما ورد ما يشبه هذه العبارات في أعلام الورى ص ٢٤٢ واللهوف ص ٤٨ . وبحار الأنوار ج ٤٥ ص ٣٥ . وإرشاد الشيخ المفيد ص ٢٣٩ ومقتل الحسين للمقرم ص ٣٣١ وتاريخ الطبري ص ٢٥٦ .

(٢) بحار الأنوار ج ٤٥ ص ٣٤ .

يقول الراوي : حتى إذا وصل إلى (عمرو بن سعد الأزدي) ضربه بالسيف فاتقاه (عمرو) بساعده فأطنّها من المرفق ثم غُشي عليه فصاح صيحةً عظيمةً سمعها العسكر ، فحملت خيلُ أهل الكوفة ليستنقذوه من الحسين فاستقبلته بصدورها ، ووطئته بحوافرها ، فمات ـ لعنه الله ـ .

نعم مات بحوافر خيل أصحابه وجماعته اللعينة لشدة ما كانوا فيه من فوضى واضطراب، ولا أحد يعرف بالضبط ماذا كان الموقف في تلك اللحظة . ويقول الراوي : « فانجلت الغبرة »[1] فإذا بالحسين قائمٌ على رأس القاسم (لا أنسى هذا الموقف أبداً : يقول الواعظ القمي الشهير المرحوم (الإشراقي) إنه قرأ ذات مرة هذا المقطع من التعزية بحضور المرحوم آية الله (الحائري) وهي تعزية قرأتها من متن المقاتل الحسينية دون زيادةٍ أو نقصانٍ فما كان من المرحوم (الحائري) إلاّ أن بكى بُكاءً شديداً وفقد معها القدرة على الاستمرار في المجلس مما دعاه إلى أن يطلب مني فيما بعد عدم قراءة هذا المقطع كلّما رأيتُه حاضراً لمجلس العزاء الذي أقرأ فيه . ذلك أنه لا يحتمل سماع هذا المقطع الفجيع) . « والغلامُ يفحصُ برجليه »[2] . وأبو عبد الله يقول : « يعزُ والله على عمّك أنْ تدعوه فلا يُجيبك ، وإن أجابك فلا ينفَعُك صوته »[3] .

ولا حول ولا قوة إلاّ بالله العلي العظيم
وصلى الله على محمد وآله الطاهرين .

---

(١) بحار الأنوار ج ٤٥ ص ٣٥ . إرشاد الشيخ المفيد ص ٢٣٩ . مقتل الحسين للمقرم ص ٣٣٢ . أعلام الورى ص ٢٤٣ . اللهوف ص ٤٨ . مقتل الحسين للخوارزمي ج ٢ ص ٢٧ .

(٢) مقتل الحسين للمقرم ص ٣٣٢ . بحار الأنوار ج ٤٥ ص ٣٥ . مقتل الحسين للخوارزمي ج ٢ ص ٢٨ . اللهوف ص ٤٨ . أعلام الورى ص ٢٤٣ . إرشاد الشيخ المفيد ص ٢٣٩ . مناقب ابن شهر آشوب ج ٤ ص ١٠٨ .

(٣) مناقب ابن شهر آشوب ج ٤ ص ١٠٧ . اللهوف ص ٤٨ . بحار الأنوار ج ٤٥ ص ٣٥ . إرشاد الشيخ المفيد ص ٢٣٩ . أعلام الورى ص ٢٤٣ . مقتل الحسين للمقرم ص ٣٣٢ . تاريخ الطبري ج ٦ ص ٢٥٧ .

المحاضرة الخامسة

واقعة كربلاء
تجسيم عملي للاسلام

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين باريء الخلائق أجمعين والصلاة والسلام على عبد الله ورَسُوله وحبيبه وصفيّه ، سيدنا ونبيّنا ومولانا أبي القاسم محمد صلى الله عليه وآله وسلم وعلى آله الطيبين الطاهرين المعصومين .

﴿ الذين يُبَلِّغونَ رسالاتِ الله ويخشوْنَهُ ولا يَخْشوْنَ أحداً إلاّ الله وكفى بالله حسيباً ﴾[1] .

تكلمنا في الجلسات السابقة أنّه يمكن للجملة الواحدة أنْ تُفَسّر عدة تفسيرات ، وتكون كلها تفسيرات صحيحة ، وأنّ الحوادث كذلك يمكن أنْ تأخذ نفس الطابع ، وقلنا إنّ واقعة كربلاء من هذا النوع من الحوادث .

والحقيقة هي أنني عندما أتأمل بهذه الواقعة ، من زاوية الفكر والحقيقة ، أراها كذلك بالفعل ، وكلما يتأمل الإنسان أكثر ، ويتعمق أكثر ، يكتسب دروساً جديدة من هذه الواقعة .

بالأمس قلتُ لكم إنّ هذه الحادثة تحمل في طياتها قابلية التمثيل ، وإمكانية

---

(١) سورة الأحزاب : الآية ٣٩ .



العرض المسرحي ، وإنها تحمل موضوعات كثيرة في سياقها العام ، كما لو أنها أُعدّت للعرض والتمثيل . والآن أقول لكم بأنّ هذه الناحية من حادثة كربلاء فيها سر آخر (وإنني عندما أستخدم تعبير ـ حادثة ـ وليس نهضة أو ثورة ، فإنما لاعتقادي بأنّ هاتين الكلمتين لا تعبّران تماماً عن عظمة هذه القضية ، ولمّا كنت لم أعثر على كلمة مناسبة تُبيّن هذه العظمة ، لذلك أرتأيتُ استخدام هذا التعبير الكلي ، وأقول حادثة كربلاء ولا أقول ثورة لأنها أكثر من ثورة ولا أقول نهضة لأنها أكثر من نهضة) .

وهذا السر هو كون هذه الحادثة ، الحادثة بتمامها وكمالها ، تُجسّم الإسلام في كافة أبعاده ونواحيه ، ومعنىٰ ذلك أنّ سر كون هذه الحادثة قابلة للتمثيل والعرض المسرحي ، يكمن في كونها تجسيماً لفكر الإسلام المتعدد الأبعاد والجوانب فكل المبادىء الإسلامية ، وجوانب العقيدة كافة ، قد تجسمت عملياً في هذه الحادثة . إنك تجد الإسلام في السياق الفكري وفي العمل وفي مرحلة التحقّق والتطبيق .

كلنا يعرف أنّ التماثيل أو اللوحات الفنية ، هي ، في بعض الأحيان ، تعبير عن فكرة معينة ، وقد تكون أحياناً لا تُعبّر عن اية فكرة ، بل نوع من الفن من أجل الفن والجمال . لكنها كما قلنا قد تكون تعبيراً عن فكرة خاصة : فمثلاً ينقل أحد الأشخاص العائدين حديثاً من الخارج أنه رأىٰ في أحد المتاحف مؤخراً تمثال فتاةٍ جميلةٍ جداً نائمة على السرير وإلى جانبها شاب لكنه في حالة نهوض من السرير ، وإعراض عن الفتاة ، وقد مد إحدى رجليه إلى الأرض ، كما لو كان يريد الابتعاد السريع عن تلك الفتاة ، وكان واضحاً أنه كان لتوه إلى جانبها . يقول صاحبنا : فلم أفهم الفكرة ومعناها ؟ فهل هي تعبير وشرح لقصة معينة ؟ ولمّا سألتُ الدليل ، قال :

هذا تجسيم لفكر (أفلاطون) ، وهو الفكر الذي يحمله الفلاسفة حول الإنسان ، والقاضي بأنّ الوصال مقبرة للعشق ذلك أنّ العشق ، الذي يؤدي إلى الوصال الكامل ، يتحول في النهاية إلى شيء سخيف كما يتبدل المعشوق إلى شيء

منفرّ أيضاً . وهذا القول من الأسس التي يبني عليها الحكماء والعرفاء فلسفتهم حيث يقولون إنّ الإنسان يعشق الأشياء التي لا يملكها وطالما هو لم يحصل عليها فإنه سيظل يعشقها ، لكنه إذا ما حصل عليها مائة في المائة فإن حرارة العشق سرعان ما تبدأ بالبرود شيئاً فشيئاً . ويبدأ العاشق في البحث عن معشوق جديد .

ونرى هنا كيف أنّ هذا العمل تجسيم لفكر محدّد لكنه تجسيم فاقد للروح ، فقد تم تمثيل الفكرة بالحجر ، لكن الحجر فاقد للروح .

وهذه ليست حقيقة ولا هي جزء من الواقع ، وقد يتم تصوير هذا الشيء في الرسوم أيضاً ولكن ما أكبر الفرق بين التجسيم الميت الفاقد للروح والتجسيم الحي للفكرة . فالكائن الحي عندما يُجسّم الفكرة تصبح الفكرة حقيقة ، بالطبع ليس كل تمثيل ، وأي مسرحٍ كان لا سيما تلك المسرحيات التي تقام اليوم هنا وهناك فهذه مسرحيات وتمثيليات عارية عن الحقيقة .

إنّ التمثيل الحقيقي هو ليس ذلك التمثيل الذي يتجاوز دور التمثيل فقط بل الذي يتعداه إلى الرسم الواقعي للحقيقة . أي عملية تفريغ واقعي للحدث .

إنّ حادثة كربلاء عبارة عن تمثيل وتصوير واقعي لجنود الإسلام ، ولكن ليس محض تمثيل أو تصوير خارجي لا يتعدىٰ صناعة الشخصيات الخيالية والعرائس والألعاب التمثيلية التي لا تمتُ إلى الواقع بصلة فأنت ترى مثلاً الآية الكريمة : ﴿ **إنّ الله اشترىٰ من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأنّ لهم الجنة** ﴾[1] . قد طُبّقت بشكل عملي في واقعة كربلاء وكذلك الآيات الأخرى من القرآن الكريم التي سنأتي على ذكرها لاحقاً إن شاء الله .

نحن نرىٰ أنّ التحليلات والانطباعات عن واقعة كربلاء متفاوتةٌ على طول التاريخ . فكما سبق وأشرتُ مثلاً فإن انطباع (دعبِل الخزاعي) وهو من الشعراء المعاصرين للإمام الرضا (ع) يختلف عن انطباع ورؤية (الكُميت الأسدي) وهو

(١) سورة التوبة : الآية ١١١ .

من الشعراء المعاصرين للإمامين (السجاد) و(الباقر) عليهما السلام وهذان بدورهما يختلفان عن رؤية (المحتشم الكاشاني) أو(الساماني) أو(صفي عليشاه) مثلاً . فهذان الشاعران الأولان حلّلا الحادثة بشكل يختلف عن رؤية (الكاشاني) لها أو (الساماني) أو(صفي عليشاه) و(إقبال اللاهوري) مثلاً والذي بدوره له رؤيته الخاصة عن واقعة كربلاء . فكيف يكون ذلك ؟

برأيي إنّ هذه الرؤى جميعاً صحيحة في الأساس (بالطبع هناك تحليلات خاطئة للحادثة . ولكنني الآن لست بصدد الحديث عنها) لكنها ناقصة . نعم صحيحة ولكنها ليست كاملة . صحيحة أي ليست خاطئة ولا كاذبة لكنها تبحث أو ترى جانباً واحداً من جوانب الحادثة .

تماماً مثل قضية الفيل التي نقلها إلينا في التاريخ (الملاّ الرومي) وذلك عندما أراد البعض أن يُميِّز الشكل الذي عثر عليه في الظلام من خلال حاسة اللمس . فالذين لمسوا القسم الخلفي من الفيل فقط قالوا عنه شيئاً بينما الذين لمسوه من أُذنيه تصوروه شيئاً آخر . فالتصورات تلك كانت صحيحةً كما كانت خاطئةً في الوقت ذاته . فهي كانت خاطئة لأن الفيل ككيان متكامل لم يكن ذلك الشكل الذي تصوروه. وصحيحةً نسبةً إلى ذلك الجزء الذي لمسته أيديهم من الفيل . فالذي لمست يده أُذن الفيل قال إنها تشبه شكل (المروحة) وهو أمر صحيح فالشيء الذي لمسه يشبه في شكله شكل (المروحة) لكن شكل الفيل ليس كشكل (المروحة) . أما ذلك الذي لمست يده خرطوم الفيل فقد قال إنّ شكله يشبه الميزاب ، وهو أمر صحيح كما أنه خطأ صحيح من حيث أنّ الشيء الذي لمسه كان بشكل الميزاب ، وخطأ بلحاظ أنّ الفيل ليس بشكل الميزاب . فالفيل عبارة عن مجموعة أحد أعضائها يشبه سطح البيت وهو ظهر الفيل وأحد أعضائها يشبه الأسطوانة وهو رجل الفيل وعضوها الآخر يشبه الميزاب وهو خرطوم الفيل . لكن الفيل في مجموعه فيل . ولهذا فإن التصورات صحيحة كما أنها خاطئة في الوقت نفسه .

فالانطباع الذي خرج به أمثال (دعبل الخُزاعي) من نهضة أبي عبد الله

عليه السلام حسب ذلك الزمان هو الانطباع الذي رأى جوانب التمرد والرفض في القضية . في حين أنّ (محتشم الكاشاني) قدر أى الجوانب المحزنة ، والمؤثرة ، والرثائية ، في القضية . بينما كانت تصورات وانطباعات (عمّان الساماني) أو(صفي عليشاه) من النهضة انطباعات عرفانية ، وتدور حول مفاهيم العشق الإلهي ، والمحبة الربّانية ، والطهر الروحاني الخالص السائد على طريق الحق ، وهذا البعد بُعد الخلوص الصادق الطاهر ، في سبيل الحق ، يُمثّل البعد الأكثر عمقاً وأصالةً في النهضة الحسينية .

كل هذه الانطباعات انطباعات صحيحة ولكنّ كل واحدة منها لا تمثّل إلاّ بُعداً واحداً . فهذا رأى فيها الجانب الأخلاقي ، وذاك تحدّث عن الجانب الحماسي فيها ، وآخر تطرق إلى جانب الوعظ والإرشاد فيها ، وكلهم قد قالوا حقاً بشأن القضية ، ولكن كل واحدٍ منهم إنما تحدث عن جانب واحد ، وعضوٍ واحد من الكيان ، وليس عن تمام الكيان ، فعندما نريد البحث في جامعية الإسلام وكليته لا بد لنا من مراجعة ومطالعة النهضة الحسينية ، حيث نرى أنّ الإمام الحسين (ع) قد طبّق كليات الإسلام عملياً في واقعة كربلاء ، وجسّمها تجسيماً حياً حقيقياً وواقعياً ، وليس تجسيماً لا روح فيه .

فالإنسان عندما يتأمل بعمق في حادثة كربلاء يرى أموراً محيرةً ولا يقدر أن يتصور أنها أمور حصلت بمجرّد صدفةً ، ولذلك فإنّ السر وراء الإصرار المتزايد للأئمة الأطهار وتوصياتهم المحققة بضرورة إحياء وتخليد هذه الذكرى يعود في الواقع إلى رغبتهم وإرادتهم القاضية بضرورة إحياء وتخليد هذا الإسلام المجسّم المتمثّل بهذه الحادثة ، فلا تدعوا هذا الإسلام المُجسّم يُنسى أبداً .

ترى ماذا نواجه نحن في مطالعتنا لحادثة كربلاء ؟ إننا نرى اتجاه حركة عجيبة في هذه الواقعة التاريخية . فالرجل له دور في هذه الواقعة ، والمرأة لها دور ، والشيخ ، والشاب ، والطفل ، كلٌ له دور . . . الأبيض له دور ، والأسود له دور كذلك ، العرب وغير العرب لهم أدوارهم أيضاً ، الطبقات الاجتماعية المختلفة لعبت أدوارها أيضاً، كما لو أنّ القضاء والقدر الإلهيّين قد شاءا

أنْ تمثل الطبقات الاجتماعية المختلفة دورها في هذه الواقعة . أي أن يُمثّل الإسلام فيها ، وعندما أقول إنّ للمرأة دورها ، ليس مقصودي الدور الخاص الذي لعبته (زينب) فقط . ففي هذا الجانب من القضية لدينا قصص وحكايات كثيرة قابلة للعرض ، لكن لا بد من القول إنه قد سقط في حادثة كربلاء امرأة شهيدة وهي زوجة الشهيد (عبد الله بن عمير الكلبي) . كما أن امرأتين نزلتا إلى ميدان المبارزة بشكل علني إلاّ أن أبا عبد الله قد منعهما من ذلك وأمرهما بالرجوع فرجعتا . وهناك من الأمهات ممن شهدن استشهاد أبنائهن وهذا ما اعتبر أيضاً من الأعمال الخالصة في سبيل الله . هذا من جانب ومن جانب آخر نرى أنّ هناك خمسة عشر من الموالي[1] قد شاركوا في حادثة كربلاء .

وبالأخص ذلك الذي كان يُسمىٰ بالمولىٰ هو : (المولى شوذب مولى عابس بن عبيد)[2] والعلماء الكبار أمثال المرحوم الحاج (نوري) والمرحوم الحاج (الشيخ عباس القمي) قد أيدوا هذا الموضوع . وهنا ينبغي عدم الوقوع في الخطأ فـ(مولىٰ عابس) هنا لم تأتِ بمعنى غلام عابس أو المُحرر من رق عابس بل بمعنىٰ أنه المتحالف مع (عابس) . ويقال في هذا المجال إنه كان أكبر قدراً وشخصيةً اجتماعية من (عابس) .

سأشرح لكم الليلة بعض جوانب قضية كربلاء ، بالمقدار الذي أتمكن منه ، من أجل تبيان الجوانب التوحيدية والعرفانية والخلوص الصادق النقي في سبيل الله والاعتقاد بأننا نحن خلق الله ليس لنا سوى الله من ملاذ .

---

(١) كلمة مولىٰ من الكلمات التي لها معانٍ متعددة في اللغة العربية . فأحياناً تأتي بمعنى العبد الذي حُرّر من قيد الرق ، وفي أحيان كثيرة تأتي بمعنىٰ الشخص الذي يربطه عقد ولاء مع شخص أو قوم آخرين . أي إنه تحالف مع ذلك الشخص أو أولئك القوم أن يتجاوروا أو أنْ يدافعا عن بعضهما البعض . فإذا قيل إنّ الشخص الفلاني من الموالي ، يعني ذلك أنه من المتحالفين .

وإذا ما قيل بأنّ مولى تعني العبد ، فإن ذلك ليس صحيحاً . فعندما يُقال إنّ العرب كانوا يدعون الإيرانيين بالموالي فإنه من المؤكد لم يكونوا يقصدون بذلك التعبير بالعبيد . فالعرب لم يُسمّوا الإيرانيين يوماً بالعبيد .

(٢) في زيارة الناحية المقدسة ورد الاسم بشكل شوذب مولى شاكر .

ربما كانت عبارة أبي عبد الله (ع) التي وردت في خطبته التي ألقاها في (مكة) وهي من أوائل الخطب التي ألقاها عليه السلام ، ربما كانت هذه العبارة وحدها كافيةً . فقد ورد في خطبته عليه السلام : « رضىٰ الله رضانا أهل البيت »[1] أي إنّ الطريق الذي يختاره الله لنا هو الطريق الذي نحبه ونرغبه .

الإمام الباقر (ع) يذهب لعيادة (جابر الأنصاري) ويسأله عن أحواله . والإمام الباقر (ع) شاب و(جابر) من أصحاب النبي وشيخ كبير في السن ، فيقول له جابر : «يا بن رسول الله ! إنني في حالة أُرجِّح فيها الفقر على الغنىٰ ، والمرض على السلامة ، والموت على الحياة » فيقول له الباقر (ع) : « نحن أهل البيت لسنا كذلك . نحن لا نحب شيئاً من عندنا . ما يراه الله لنا نرضاه » ـ رضىٰ الله رضانا أهل البيت ـ .

فلنقرأ الجمل الأخيرة التي نطق بها أبو عبد الله قبل موته سنرى بروز هذه المفاهيم بالذات مجدداً . وكما جاء في تعبير المرحوم (آيتي) (وهو استنتاج ظريف جداً) فإن هذه الحرب قد بدأت بسهم وانتهت بسهم .

ففي يوم عاشوراء كان (عمر بن سعد) أول من أطلق سهماً في المعركة حيث قال بعدها أخبروا الأمير ـ ابن زياد ـ بأنني أول من رمىٰ الحسين بالسهام . وبعد ذلك السهم كانت الحرب قد بدأت بالفعل (كان الحسين (ع) قد منع أصحابه من أن يكونوا البادئين بالحرب) .

نعم وانتهت بسهم . لقد كان أبو عبد الله بعدُ راكباً على فرسه . ومنهك القوىٰ وقد أصابته جراحات كثيرة وقواه الجسمية كانت قد أشرفت على النهاية وإذا بالسهم الأخير يأتي من طرف العدو فيقع في صدره الشريف ويقع أبو عبد الله عن فرسه إلى الأرض . وفي تلك اللحظة يقول : « **رضا بقضائك وتسليماً لأمرك ، لا معبودَ سواكَ ، يا غياث المستغيثين** »[2] .

---

(١) بحار الأنوار ج ٤٤ ص ٣٦٧ . مقتل الحسين للمقرم ص ١٩٣ . اللهوف ص ٢٥ . كشف الغمة ج ٢ ص ٢٩ .

(٢) لقد جاء ما يشبه هذه العبارة في مقتل المقرم ص ٣٥٧ والقيام للزخار ص ٢٦٢ .

قال الإمام الصادق (ع) : اقرأوا سورة « والفجر » في نوافلكم وفرائضكم فإنها سورة جدّي الحسين بن علي (ع) . ولمّا سألوه بأية مناسبة صارت سورة جدّك ؟ قال : إن تلك الآيات الأخيرة من سورة (والفجر) مصداقها الحسين لا سيما هناك حيث يقول تعالى : ﴿ يا أيتها النفس المطمئنة * ارجعي إلى ربك راضيةً مرضية * فادخلي في عبادي * وادخلي جنتي ﴾[1] .

لاحظوا معي كيف يُمضي أبو عبد الله الحسين ليلة العاشر من محرم ، وكيف أنه عليه السلام قد أرادها للاستغفار والدُّعاء ، والمناجاة ، والصلاة ، والتحدث إلى البارىء جلّ وعلا .

انظروا إلى صلاة يوم العاشر من محرم ولاحظوا كيف أنّ جوانب القضية التوحيدية والعبودية والربوبية والعرفانية ، تصلُ إلى أوجها .

لقد سبق لي وأنْ أشرتُ مراراً إلىٰ أنّ بعض أصحابه وكل أهل بيته وأبا عبد الله بالذات قد استشهدوا بعد ظهر يوم العاشر . يأتي رجلٍ باسم (أبو الصائدي) إلى الإمام الحسين (ع) ويقول له : يابن رسول الله ! لقد حان وقت الصلاة ، وإننا نُريد أنْ نُصلي صلاتنا الأخيرة جماعةً بإمامتك . فانظروا أيةِ صلاةٍ كانتِ ! كانت السهام تنزل من حولهم كالمطر ، لكن الحسين وأصحابه كانوا يغرقون في الذكر والخشوع الله أكبر ، بسم الله الرحمن الرحيم ، الحمد لله رب العالمين . يقول أحد الغربيين :

ما أعظمها من صلاةٍ تلك التي صلّاها الحسين بن علي ، صلاةٍ لن تجد لها نظيراً في الدُّنيا كلها ، كان يضع وجهه الشريف فوق التراب الحارق ويقول : بسم الله وبالله وعلى ملّة رسول الله[2] .

وكلّما اتجهنا بعد ذلك كانت أبعاد النهضة الحسينية قد أصبحت عرفانية خالصة لله ولله فقط ، لا يوجد فيها غير الحسين ورب الحسين . كما لو أنّ شيئاً

---

(١) سورة الفجر : الآيات ٢٧ـ٣٠ .

(٢) بحار الأنوار ج ٤٥ ص ٥٣ .

آخر لا يوجد أبداً . ولكننا عندما نُطلُّ على الواقعة من زاوية أخرى (من الزاوية التي نظر إليها كل من (دعبل الخزاعي) و(كُميت الأسدي) ، نرى رجلاً متمرداً يقف مقابل سلطات الجبارين لا يمكن لأية قوة دنيوية أنْ تُخضعهُ. كما لو انّ النار تخرج من فمه كالمطر . فحديثه كله يدور حول العزة والشرف والحرية : « لا والله لا أعطيكم بيدي إعطاء الذليل ولا أفِرُّ فِرار العبيد »[1] . « وهيهات منّا الذلّة »[2] و« الموت أولىٰ من ركوب العار »[3] و« لا أرىٰ الموت إلا سعادةً والحياة مع الظالمين إلاّ بَرَماً »[4] .

فكل واحدة منها قالها في مناسبة معينة . وعندما يطالعها الإنسان جيداً يرىٰ فيها الحماسة والشجاعة . وبتعبير العرب ـ الإباء ـ أي العصيان والامتناع وعدم التسليم والخضوع . والعرب يدعون القوم الذين لا يقبلون بالخضوع والتسليم للظلم والقمع بالقوم (الأُباة) ، أي القوم الذين لا يخضعون للقوة والقمع بأي شكل من الأشكال .

يقول ابن أبي الحديد وهو من علماء السُنّة وهو يصف الحسين (ع) :

« الحسين بن علي (ع) سيد الأُباة » .

ونحن عندما نُلقي النظر عليه من هذه الزاوية نرىٰ صورةً كلها حماسٌ وتمردٌ وعصيان ورفض واعتراض . وإذا ألقينا النظر على القضية من زاوية أخرىٰ فإننا سنرى وجهاً آخر من مآثر الحسين (ع) نراه ذلك الرجل الخبير الواعظ الحكيم الذي لا يرضىٰ حتىٰ لعدوه أن يُصاب بذلك المصير المشؤوم الذي يؤدّي به إلى النار حيث لسان حاله يقول وهو يتصور أعداءه فلماذا هم بائسون إلى هذا الحد الذي يُلقُونَ فيه بأنفسهم إلى النار ؟ .

وفي هذه الحالة ترىٰ حركة الحماسة تُعطي موقعها إلى سكون الحكمة . فكم هي المواعظ التي أعطاها للناس في يوم عاشوراء وقبل عاشوراء . وكم من

---

(١) إرشاد الشيخ المفيد ص ٢٣٥ . مقتل الحسين للمقرم ص٢٨٠ .

(٢،٣،٤) راجع مصادر الكتاب التي وردت في صفحات الكتاب ٣٦ ، ١٠٥ .

المواعظ التي أعطاها أصحابه للناس . المواعظ التي أعطاها (حنظلة بن أسعد الشامي) و(زهير بن القين) و(حبيب بن مظاهر) ! إنّ وجوده المبارك كان يتأثر كثيراً عندما كان يرى عذاب أعدائه . فهو لم يكن يُريد لأي منهم أنْ يصبح بتلك الحال .

كان حريصاً على الناس ، وكان يحاول بكل الطرق أن يتجنّب ـ ولو واحد منهم ـ . لقد كان نموذجاً عن جده : ﴿ لقد جاءكم رسولٌ من أنفُسِكُم عزيزٌ عليه ما عنتُم ، حريصٌ عليكم بالمؤمنين رؤوفٌ رحيم ﴾[1] .

فهل تعرفون ما معنى (عزيزٌ عليه ما عنِتُّم) ؟

معناها أن بؤسكم قاس عليه وشديد ، فبؤس وتعاسة أعداء النبي كانت كبيرة على النبي . لكن الطرف المقابل لم يكن ليدري ما الخبر ؟ فجأة يركب الجمل وينطلق ثم يرجع مرة أخرى يضع عمامة النبي على رأسه ويلبس لباسه ويركب الفرس ويتجه نحو القوم علّهُ يستطيع أن يُقلّل من شقاوة القوم قدر المستطاع .

وهنا نرى الحسين وقد تحوّل إلى قطعة محبة وصداقة بحيث إنه يصبح على درجةٍ من المحبة والوداد حتىٰ تجاه عدوه .

نأتي الآن إلى ما يُسمىٰ بالأخلاق (الأخلاق الإسلامية بالطبع) فعندما ننظر إلى حادثة كربلاء من هذه الزاوية نراها تمثيلاً حقيقياً للأخلاق الإسلامية . باختصار يمكن الحديث عن قيم ثلاث كانت بارزة في هذا المقطع الحسيني ـ المروءة والإيثار والوفاء ـ وسأوضح لكم :

فالمروءة لها معنىٰ آخر غير الشجاعة ، وكما يبدو فإنها تعني الرجولة ولكن لها معنىٰ خاصاً أيضاً . ولقد بلور معنىٰ المروءة أكثر من غيره ذلك الرجل العارف الشهيد الملّا (جلال الدين الرومي) وهو ينقل لنا قصة مبارزة علي (ع) مع

---

(١) سورة التوبة : الآية ١٢٨ .

(عمرو بن ود العامري) ففي الوقت الذي كان فيه علي جالساً فوق صدر (عمرو بن ود) وقد همّ بالقضاء عليه إذا به يقوم عن صدره لّما رآه قد بصق بوجهه ولكن سرعان ما يعود إلى صدره بعد أن نزع عن نفسه الغضب الشخصي وذلك حتىٰ يقتله في سبيل الله خالصاً . وهنا بالذات ينظم (الرومي) مدحه الشهير بحق علي (ع) والذي يأتي في مضمونه ما معناه : إنك يا عليُّ أسد الله في الشجاعة وأما في المروءة فلا من يستطيع وصفك يا علي ! نعم فالمروءة هي أن يحب المرء عدوه أيضاً .

إنّ الإسلام يصل في مفهوم المروءة إلى أعلى درجات المحبة والإنسانية إذ يأمرنا ديننا أن نعامل الصديق بالمروءة كما نعامل العدو بالمروءة أيضاً . فما معنى أن يُعطي أبو عبد الله الحسين الماء لعدوه الذي يُعاني من العطش . إنها المروءة بعينها . إنها أعلى مرتبةً من الشجاعة وهذا ما فعله عليه (ع) أيضاً .

الزمان هو صبح يوم العاشر من محرم وأول من جرى باتجاه خيام الحسين بن علي (ع) حتىٰ يستطلع الوضع هناك هو (شمر ذي الجوشن) . ولما كان قد أتى المخيم من الخلف ورأىٰ كيف أنّ الخيام قد اقتربت من بعضها البعض وأحيط المخيم بخندق يمنع عنه اقتحام العدو بالإضافة إلى إشعال النار في الحطب والقصب الذي جمع لهذا الغرض انزعج كثيراً لعدم قدرته على الغدر وصار يلعن ويسب ويشتم فانبرى أحد أصحاب الحسين هنا وقال « يا مولاي ! أتسمح لي بأن ارميه بسهم وبذلك نتخلص منه ؟ » فقال له الحسين : « كلا » . فقال : « أنا أعرفه يا مولاي وأعرف طينته الخبيثة فهو فاسق وفاجر » . فقال الحسين : « أعرف ذلك ولكننا آلينا آلاّ نبدأهم الحرب أبداً ، حتىٰ وإن كانت لمصلحتنا » .

فهذه هي تعاليم الإسلام . ولدينا أمثلة كثيرة في هذا المجال . وقصص أمير المؤمنين علي (ع) في حرب (صفين) في هذا المجال كثيرة وسأذكر لكم هنا واحدة منها . فقد برز رجلٌ باسم (كُرَيب بن صبّاح) من معسكر (معاوية) يطلب البراز فبرز إليه أحد شجعان معسكر علي (ع) من الذين كانوا في المقدمة وما هي إلاّ لحظات حتىٰ صَرَعَهُ (كُريب) وألقىٰ به جانباً وطلب مبارزاً جديداً . فبرز

إليه آخر فقتله أيضاً وما أن قتل هذا الأخير حتىٰ نزل عن فرسه ورمىٰ بجثته فوق جثة القتيل الأول وطلب مبارزاً جديداً فقتل على هذا المنوال أربعة مبارزين من أصحاب الإمام علي (ع) ، وينقل المؤرخون أن ساعد هذا الرجل وأصابعه كانت من القوة بمكان بحيث إنه كان يُمسك بقطعة النقد ويفركُها حتىٰ يمحو آثار الرسوم عليها . لقد كتبوا عنه كذلك أنه لِشدة ما ظهر من الرجل من سرعة الحركة والمهارة والقدر الكبير من الشجاعة والاقتدار صار أصحاب علي (ع) المتقدمون في طليعة العسكر يتراجعون إلى الخلف حتىٰ لا يُحرجوا في النزال والمبارزة مع هذا الرجل القوي . فما كان من علي (ع) في هذه الحالة إلاّ أن تقدّم بنفسه إلى الميدان وبارزه بالفعل وما هي إلا لحظةً حتىٰ قضىٰ عليه وألقىٰ بجثته جانباً . ثم نادى في معسكر معاوية : ألاَ رجُل فبرز إليه الثاني ففعل به كما فعل بالأول وألقىٰ بجثته فوقه وهكذا حتىٰ النفر الرابع فلم يجرؤ بعد ذلك أحد منهم على التقدم وعندها قرأ علي (ع) الآية الكريمة : ﴿ فمن اعتدىٰ عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدىٰ عليكم واتقوا الله ﴾[1] ، ثم قال لهم يا أهل الشام لو لم تشرعوا لَما شرعنا ولكن ما دمتم قد شرعتم فقد شرعنا بدورنا[2] .

وأبو عبد الله الحسين (ع) كان كذلك أيضاً . فقد ظل ينتظرهم طوال الوقت حتىٰ يشرعوا هم . فالعدو مسلم في الظاهر وهو ينطق بالشهادتين فلذلك تراه عليه السلام يقول لن نكون البادئين بحربهم أبداً .

ونأتي الآن للحديث عن الإيثار . وهو المظهر الأخلاقي الآخر الذي يتبلور في هذه الواقعة . وهل هناك مشهد للإيثار أبرز وأوضح من مشهد كربلاء ؟! ثم هل يمكن العثور على تجسيد لهذا المظهر أفضل من تجسيد أبي الفضل العباس له؟ سأعرض عليكم نموذجاً من إيثار صدر الإسلام كان فيه البطل عبارة عن عددٍ من الأشخاص . ينقل أحد الأشخاص أنه وفي إحدى المعارك الإسلامية صادف أنْ مرّ على أحد الجرحىٰ وكان الجريح في حالة من العطش الشديد باعتبار أنّ من

---

(١) سورة البقرة : الآية ١٩٤ .

(٢) وقعة صفين تأليف نصر بن مزاحم المنقري ص ٣١٥ .

ينزف دمهُ يتسارع مقدار عطشه أكثر فأكثر . يقول : فما كان مني إلّا ان احسستُ بحاجته الشديدة إلى الماء فانطلقتُ مُسرعاً وأتيتُ له بالماء فما كان من الجريح إلّا أن أشار إلى جريح آخر طالباً مني أن أُقدّم الماء إليه أولاً (يقول البعض إنهم كانوا ثلاثة والبعض الأخر قال إنهم كانوا عشرة أشخاص) فذهبتُ نحو الثاني فقال لي ما قاله الأول فلمّا وصلت إلى الجريح الأخير وجدته قد فارق الحياة فعرَّجتُ على البقية من الجرحىٰ فلقيتهم قد أصيبوا بمثل ما أُصيب به الأخير ولَمّا وصلتُ إلى الجريح الأول وجدته هو الأخر قد فارق الحياة . وبالتالي فإنني لم أوفق بإعطاء الماء لأي أحدٍ منهم لأن كل واحدٍ منهم كان يبعثني عند أخيه الأخر . وهذا العمل يُطلق عليه الإيثار ، وهو من أرفع ظواهر تجليات العاطفة لدى الروح الإنسانية .

لماذا نزُّل الله سورة (هل أتىٰ) التي يقول فيها سبحانه وتعالى : **﴿ ويُطعمون الطعام على حُبه مسكيناً ويتيماً وأسيراً * إنّما نُطعمكم لوجه الله لا نُريد منكم جزاءً ولا شكوراً ﴾**[1] . لتبيان قدر الإيثار ؟ .

وتجلي هذه العاطفة الإنسانية والإسلامية كانت إحدىٰ وظائف حادثة كربلاء . ويبدو أنّ الدور فيها كان قد عُهِد به إلى أبي الفضل العباس . يقول الراوي :

بعد أن فرّق أبو الفضل العباس أربعة آلاف فارس ، ممن كانوا موكلين بشريعة الفرات ، وخاض بفرسه في ماء النهر داخل الماء حتىٰ وصل الماء إلى بطن الفرس ، وصار باستطاعته أن يملأ قربته دون أن ينزل عن الفرس ، وبعد أن ملأ القربة اغترف من الماء غرفةً وأدناها من فمه ليشرب ، ورآه بعضهم من بعيد وهو يرمي ما اغترفه من الماء في الفرات ، ولم يشرب ! لم يفهم أحد في البداية لماذا فعل (العباس) هذا ؟ لكن التاريخ يقول :

«فتذكر عطش أخيه الحسين»[2] . نعم فهو قد تذكر عطش أخيه في المخيم

---

(١) سورة الدهر : الأيتان ٨و٩ .

(٢) ينابيع المودة ج ٢ ص ١٦٥ .

فكيف يشرب هو وأخوه ينتظر الماء . ولكن كيف عرف التاريخ هذا ؟ فذلك لأن (أبا الفضل) خرج من الشريعة بعد أنْ رمىٰ بغرفة الماء وهو يرتجز على الفور :

يا نفس من بعد الحسين هوني ... وبعده لا كنتِ أن تكوني
هذا الحسين واردُ المنون ... وتشربين باردَ المعين[1]

إنه الوفاء بأعلى درجاته وأوضح تجلياته . رجل باسم (عمرو بن قرضة بن كعب الأنصاري) وهو من أولاد الأنصار في المدينة ، وكما يبدو فإنه كان من حرس أبي عبد الله وقت الصلاة . لقد جعل من بدنه درعاً ومتراساً لأبي عبد الله الحسين (ع) . يقول الراوي :

إنه قد أتته السهام من كل جانب حتىٰ أوقعته صريع الموت ، وهو يعيش لحظاته الأخيرة يصل إليه أبو عبد الله الحسين ليناجيه وإذا به يشكُّ بنفسه إذا ما كان قد أدىٰ واجبه وأوفى بالعهد أو لا ! فيقول كلماته الأخيرة : « أَوَفَيْتُ يا أبا عبد الله ؟ » .

ونأتي الآن للحديث عن المساواة الإسلامية والتآخي العقيدي . نقول :

إنَّ الذين احتضنهم الحسين (ع) في آخر لحظات حياتهم كانوا أفراداً معدودين ، اثنان منهم بالتأكيد كانا من الموالي - أي العبيد المحرَّرين - كان أحدهما يدعى - جون - وكما يذكر التاريخ فإنه كان مولى (أبي ذر الغفاري) وهو من العبيد السود ويبدو أنه يُلازم أهل بيت أبي عبد الله الحسين (ع) من بعد تحريره حتىٰ يوم استشهاده . أي إنه كان أشبه بخادم بيت الحسين (ع) . وفي يوم عاشوراء يأتي هذا العبد الأسود ويقف أمام الحسين (ع) ويستأذنه في البراز فيقول له الحسين (ع) :

« يا جون ، أنتَ في إذن مني ، إنما تبعتنا طلباً للعافية ، فلا تبتل بطريقتنا » .

---

(١) بحار الأنوار ج ٤٥ ص ٤١ .

يقول الراوي :

فوقع جون على قدمي أبي عبد الله الحُسين يُقبِّلها ويبكي وهو يقول : « يا ابن رسول الله ، أنا في الرخاء الحسُ قصاعكم وفي الشدة أخذلكم ؟ والله إنّ ريحي لَنَتِن ، وإنّ حسبي للئيم ، وإنّ لوني لأسود فتنفس عليّ بالجنة ليطيب ريحي ، ويشرف حسبي ، ويبيض لوني ، لا والله لا أفارقكم حتىٰ يختلط هذا الدم الأسود مع دمائكم » .

فما كان من أبي عبد الله الحسين إلاّ أن أذن له بعد ما رأىٰ منه نوعاً من الشعور بعدم المساواة في المقام . فبرز جون بالفعل إلى القتال وظل يقاتل حتىٰ استشهد . ولمّا سقط ذهب الحسين واحتضنه وقال : « اللهم بيِّض وجهه ، وطيِّب ريحهُ ، واحشرهُ مع الأبرار ، وعرِّف بينه وبين محمد وآل محمد » . (الأبرار هم أولئك النفر ممن يفوقون في مقامهم مقام المتقين) ﴿ إن كتاب الأبرار لفي عليين ﴾[1] .

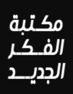
وأما ذلك الغلام الرومي (قيل إنه تركي أيضاً) فإنّ ما ينقله التاريخ عنه لمشهد عجيب حقاً . يقول الرواة :

إنّه وبعد أن سقط الغلام صريعاً واستغاث بالحسين وهو مغشي عليه والدم قد غطىٰ عينيه فإنّ أبا عبد الله أتاه واعتنقه ووضع رأسه على حضنه وصار يمسح عنه الدم ففتح الغلام عينيه فرأى الحسين فتبسّم . وكان به رمقٌ ، فأخذ يفتخر ويقول : « من مثلي وابن رسول الله واضعٌ خده على خدي » . نعم فأبو عبد الله قد وضع خده على خد هذا الغلام وهذا لم يحصل إلاّ مع هذا الغلام ومع علي الأكبر بن الحسين فقط إذ إنّ التاريخ لم يكتب عن سواهما في مثل هذه الحالة . « ووضع خدّه على خدّه »[2] ومن ثم يقول الراوي : فتبسّم ثم صار إلى ربه (رضي الله عنه)[3] .

---

(١) سورة المطففين : الآية ١٨ .

(٢، ٣) بحار الأنوارج ٤٥ ص ٣٠ .



رسول الله ! ثم أخذ يرجو أبا عبد الله الحسين ليأذن لـه بالخـروج فأذن لـه . ولم يعـرف التاريـخ بالضبط إذا مـا كان هـذا الشـاب ابن (مسلم بن عـوسجـة) أو (الحـارث بن جنادة) لأن الاثنـين قد أتيـا إلى المعركـة مع أهلهـما ، بالـطبع فـإن (عبد الله بن عمير الكلبي) هو الآخر كان قد أتى بعياله معـه إلى المعركـة . لكن هـذا الشاب لم يكن بـالتأكيـد ابن (عبد الله بن عمـير الكلبي) . على كـل حال فعندما خرج هذا الشاب إلى ميدان الجهاد عمل خلافاً لما كان يعمله سائر الفرسان والأصحـاب وبذلـك يكون قـد سبقهم جميعاً في هـذه البادرة الـرفيعة فلم ينتسب بحسبه ونسبه كما هي العادة بـل عرّف عن نفسـه بأمـيره الحسين (ع) حيث خـرج يقول :

أمـيري حُسـينٌ وَنِعْمَ الأمـير ... سُرورُ فؤادِ البـشـير الـنـذيـر
عـليٌ وفـاطـمـةٌ والـداه ... فهـل تعلمـون لـهُ من نـظير ؟
لـه طلعةٌ مثـل شمس الضحىٰ ... لـهُ غُرةٌ مثـل بـدر مُنـير[1]

فهل ترون معي الآن الأدوار العجيبة والفريدة التي لعبها الجميـع في حادثـة كربلاء . فكل فئة لعبت دورها وشاركت في المعـركة حسـب الأصـول من الطفـل الـرضيع حتى الشـاب والشيخ والعجـوز . بالـطبع فـإن رسـالـة أهـل بيت النبي ومقامهم الخطير الذي كانـوا يحملونه أرفـع وأبلغ من الجميع (وهـذا أمرٌ أكيـد لا سيما مقام أهل بيت أبي عبد الله الحسين (ع) .

وفي الختام أقرأ عليكم مرثية أحد أبناء الإمـام الحسين (ع) ، فـالقاسم بن الحسن (ع) كان له أخ أصغـر منه يُـدعىٰ عبد الله (وشهـادة الإمام الحسن سبقت شهادة الحسين بعشر سنوات . وهذا الطفل عبد الله ولد قبل عشر سنوات أيضاً . أي إن هذا الطفل قد أتىٰ إلى الدنيا ولم يَرَ أباه وبالتالي فإنه لم يعـرف شيئاً عن أبيـه وإنه قد كبر في بيت أبي عبد الله الحسين ومعنىٰ ذلك أنّ أبا عبد الله كان بمثابة العم والأب معاً بالنسبة لهذا الطفل) وكان أبو عبد الله قد كلّف أختـه (زينب) لترعىٰ

(١) بحار الأنوار ج ٤٥ ص ٢٧ . مناقب ابن شهر آشوب ج ٤ ص ١٠٤ . مقتل الحسين للخوارزمي ج ٢ ص ٢٢ .

وهكـذا ترانـا نعيش في حادثـة عاشـوراء كل جـوانب الإسلام الأخـلاقيـة والاجتماعية بالإضافـة إلى جوانب المـوعظة والحكمـة والتمرد والتـوحيد والعـرفان والعقيدة مُجسَّمةً ومبلورةً في الحسـين وأصحاب الحسـين وأهل بيتـه حيث ترى أن كل واحدٍ من أفراد المجتمع قد أخذ دوره من الطفل الـرضيع حتىٰ الشيـخ الجليل الذي يناهز عمره الثمانين عاماً ، أو الإمرأة العجوز ، كـزوجة (عبـد الله بن عمير الكلبي) ، وقـد كانـوا ثلاثـة هم الذين أتـوا مع زوجـاتهم وأولادهم ليقاتلوا إلى جانب الحسين (ع) حيث التحقت نـساؤهم بحرم أبي عبد الله . أما الآخـرون من أصحاب الإمام الحسـين فإنهم لم يـأتوا بـأهليهم معهم . والثلاثـة هم (مـسلم بن عـوسجـة) و(عبـد الله بن عمـير الكلبي) وآخـر بـاسم(جنـادة بن حـرث الأنصاري) .

لقد كتب التاريخ عن الكلبي أنه كان خارج الكوفة عنـدما سـمع بحوادث الكوفة وأخبار تجهيز الجيش لمقـاتلة أبي عبد الله الحسـين ولَمّا كـان هو من مجاهدي الإسلام الأوائل فإنه صـار يُفكر بينـه وبين نفسـه ويقول والله لقـد قاتلتُ الكفـار لسنوات من أجل الإسـلام ولكن ذلك الجهـاد لا يمكن أن يصل الآن إلى مسـتوى هذا الجهاد جهاد الدفاع عن آل بيت الرسول . فاتجه فوراً إلى البيت وأخبر زوجته بالأفكار التي تدور في خَلَدِه فقالت له : بارك الله فيك ، إنها لفكرة حسنة بالفعل ولكن بشرط . فقال لها وما هو الشرط ؟ قـالت ؛ أن تأخـذني معك . فلم يكتف الرجل بأخذ زوجته معه بل أخذ أمه أيضاً . وما أعظمهنّ من نسـاء ! وهذا الرجل كان معروفاً بالشجاعة وقد نازل بالفعل اثنـين من الرجال الأقويـاء اللذين تطوعـا لقتاله هما مولى (عمر بن سعد) ومولى (ابن زياد) وقد صرعهما . وهو الذي قـد قـال عنه أبـو عبد الله الحسـين (ع) : إنه لفـارس الميـدان الـذي ينـاسب هـذين الرجلين ، وبالفعل كان كذلك .

فبعد أن كان قد قضىٰ على ـ يسار ـ وهو مولى عمر بن سعد ، غدره في هذه الأثنـاء الرجـل الآخـر الـذي أتـاه من الخلف واستـطاع قـطع يـده اليمنى ولكنـه استطاع أي الكلبي رغم ذلك من مقاتلته بيد واحدة والقضـاء عليه أيضـاً . وبينما

هو في هذه الحال عاد نحو أبي عبد الله وهو يرتجز وكانت أمه حاضرة فقال لها :

يا أماه : أرضيت عني أم لا ؟ فقالت أمهُ : ما رضيتُ حتىٰ تُقتَل بين يدي الحسين (ع) ابن بنت رسول الله (ص) . لكن زوجته التي كانت امرأةً شابةً تعلّقت بثيابه وقالت له : بالله عليك لا تُفجعني بنفسك . فردّت عليه أمهُ : يا بُني اعزُب عن قولها وارجع فقاتل بين يدي ابن بنت رسول الله تَنل شفاعة جده يوم القيامة .

ويذهب هذا الرجل بالفعل ويُقاتل حتى يستشهد . فيقطع رأسه الأعداء ويرمون به نحو مخيم الحسين . (هناك عدد من الشهداء قد رُميت رؤوسهم نحو مخيم الحسين وهذا الرجل كان من جملة هذه الرؤوس) وما كان من أمه إلاّ أن تناولت رأس ابنها وضمته إلى صدرها وهي تدمدم بينها وبين نفسها وتقول : بُني الآن قد رضيتُ عنك فقد أديتَ واجبك . ثم تقول نحن لا نسترد ما بذلناه في سبيل الله وترمي برأس ابنها مرة أخرى وتضرب به أحد أفراد العدو ثم ترفع عمود خيمةٍ من الخيام وتحمل على العدو وهي ترتجز :

أنا عجوزٌ سيدي ضعيفة   خاويةٌ باليةٌ نحيفة
أضربكم بضربةٍ عنيفة   دون بني فاطمة الشريفة[1]

لقد استشهد في كربلاء كما يذكر التاريخ عشرة أو تسعة أنفار لم يبلغوا سن الحلم . ويكتب التاريخ حول أحدهم قائلاً : « وخرج شابٌ قُتِل أبوه في المعركة »[2] [ولكن لم يذكر من هو أبوه] .

يقول الراوي :

فقال الحسين : هذا شابٌ قُتِلَ أبوه ولعل أمهُ تكرهُ خروجه . فيردُ الشاب : أمي هي التي أمرتني بذلك وقالت لي : اخرج يا بُني وقاتل بين يدي ابن

---

(١) بحار الأنوار ج ٤٥ ص ٢٨ . مناقب ابن شهر آشوب ج ٤ ص ١٠٤ . مقتل الحسين للخوارزمي ج ٢ ص ٢٢ . مقتل المقرم ص ٣١٥ .

(٢) بحار الأنوار ج ٤٥ ص ٢٧ . مقتل الحسين للخوارزمي ج ٢ ص ٢٢ .

هذا الطفل بالذات بعناية وتهتم به بشكل خاص . ولكن هذا الطفل وسائر الصّبية في خيام الحرم كانت تتوق لساعة الخروجُ إلى الميدان وما أن لقي الفرصة مناسبةً حتىٰ أفلت من يد عمته (زينب) وخرج إلى الميدان وقبل أن تلحق به عمته انطلق نحو أبي عبد الله وهو يقول : « والله لا أفارقُ عمي »[1] وبالفعل فقد بلغ مكان عمه الحسين ، وهو مُلقىً على الأرض في الساعات الأخيرة وقد صَعُب عليه الحراك ، وتعلّق بثيابه ، فضمّه الحسين (ع) إلى صدره رغم ما هو فيه من ضعف .

يقول الراوي :

وفي هذه الأثناء حَمَلَ أبجر بن كعب وقيل حرملة بن كاهل على الحُسين وأراد ضربه بالسيف . فقال الغلام الذي رأى عمهُ في هذه الحالة موجهاً كلامه نحو العدو اللعين: «ويلك يا ابن الخبيثة أتَقْتل عمّي»؟ لكن العدو ضرب الطفل بالسيف فاتقاهُ الغلام بيده فاطّنها إلى الجلد فإذا هي معلّقة فنادىٰ الغلام في تلك اللحظة : يا أماه ، يا عمّاه ! فأخذه الحسين فضمه إليه وقال : « يا بن أخي اصبر على ما نزل بك واحتسب في ذلك الخير فإن الله يلحقك بآبائك الصالحين » .

ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم
وصلى اللهِ على سيدنا محمد وآله الطاهرين.

ooo

(١) بحار الأنوار ج ٤٥ ص ٥٣ . اعلام الورىٰ ص ٢٤٣ . إرشاد الشيخ المفيد ص ٢٤١ .

المحاضرة السادسة

دور أهل بيت سيد الشهداء
في تبليغ النهضة الحسينية

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين بارىء الخلائق أجمعين والصلاة والسلام على عبد الله ورسوله وحبيبه وصفيّه سيدنا ونبينا ومولانا أبي القاسم محمد صلى الله عليه وآله وسلم وعلى آله الطيبين الطاهرين المعصومين .

﴿الذين يُبلّغون رسالات الله ويخشونه ولا يخشون أحداً إلا الله وكفى بالله حسيباً﴾(1) .

البحث حول دور أهل بيت سيد الشهداء المكرّمين في تبليغ النهضة الحسينية والإسلام يحتاج إلى مقدمتين أجد من الواجب عليّ أن أعرضهما عليكم أولاً وقبل الدخول في صلب الموضوع .

فطبقاً للروايات التاريخية واستناداً إلى معتقداتنا نحن المؤمنين بإمامة حضرة سيد الشهداء نقول : إنّ أعمال أبي عبد الله الحسين كافة لا بد وأن تكون قائمة منذ اليوم الأول على أساس من المنطق والحساب العقلائي المدعوم بالدليل والبرهان . أي إننا لا نستطيع القول بأنّ القضايا كانت تحدث بالصدفة . بل إن

---

(1) سورة الأحزاب : الآية ٣٩ .



كل ما كان يحدث في تاريخه ما كان يحدث إلا ضمن حساب وميزان دقيق . وهذا الأمر يمكن إثباته والبرهنة عليه بالقرائن التاريخية بالإضافة إلى أنّ المنطق والروايات التاريخية ومعتقداتنا القائمة على إمامة حضرة سيد الشهداء تثبت ذلك وتدعمه .

إنّ إحدى المسائل التي تعرّض إليها المؤرخون كما تعرضت إليها الروايات والأحاديث كانت تبحث في الأسباب التي جعلت أبا عبد الله يأخذ معه أهل بيته وعياله في هذه الرحلة الخطرة ؟ وخطر هذه الرحلة كان في مقدور أي إنسان عادي أن يتصوره . ولهذا ترى أن كل من قابل أبا عبد الله وأراد نصحه أو تحدث معه في المصلحة العامة رأى من الخطورة بمكان أنْ يأخذ أبو عبد الله الحسين عياله وأهله معه في هذه الرحلة . أي إنّ أولئك الأصحاب قد أجمعوا كلهم وبدون استثناء بناءً على المنطق والحسابات المتداولة في المستوى العادي ، واستناداً إلى معايير حفظ النفس ، والمحافظة على حياة أبي عبد الله وأهل بيته ، أنّ رحلته عليه السلام بحد ذاتها خطر كبير يُعرض حياة أبي عبد الله للفناء وليس فيها مصلحةٌ له ناهيك عن أخذه لأهل بيته في مثل هذه الرحلة . لكن رد أبي عبد الله كان قاطعاً بقوله يجب أن آخذهم معي . إنه كان يرد عليهم ردّاً لا يستطيعون معه قول أي شيء وذلك من خلال بيان الجانب المعنوي للقضية وهو الأمر الذي لا بد أنكم قد سمعتموه مراراً من حيث استناده إلى الرؤيا التي جاءته بهذا الشأن والتي هي بحكم الوحي القاطع . وكان مما قاله لأخيه محمد بن الحنفية : « أتاني رسول الله (ص) بعدما فارقتك فقال : « يا حسين اخرج ، فإن الله شاء أن يراك قتيلاً » . فقال محمد بن الحنفية : إنّا لله وإنّا إليه راجعون ، فما معنى حملك هؤلاء النساء معك وأنت تخرج على مثل هذا الحال ؟ قال : فقال [لي (ص)] : « إن الله قد شاء أن يراهنّ سبايا » . فسلّم عليه ومضى[1] .

وهنا أود أن أشرح لكم شيئاً بخصوص معنى هاتين الجملتين ، وهو ما كان يفهمه جميع الذين كان يخاطبهم أبو عبد الله الحسين (ع) آنذاك وليس بالشيء أو

---

(١) بحار الأنوار ج ٤٤ ص ٣٦٤ . مقتل الحسين للمقرم ص ١٩٥ .

الرمز والسر الذي اكتشف في هذا العصر وأصبح شائعاً بين الألسن فكلمة مشيئة الله أو إرادة الله التي يأتي ذكرها واستخدامها في القرآن الكريم أيضاً ، تستخدم في الحقيقة في موردين : أحدهما يطلق عليه مفهوم الإرادة التكوينية ، والثاني الإرادة التشريعية . والإرادة التكوينية : تعني القضاء والقدر الإلهيين، ومعنى ذلك أنّ الشيء الذي يجري عليه القضاء والقدر الإلهي الحتمي واقع لا محالة ، ولا يمكن فعل أي شيء تجاهه أبداً .

أما معنى الإرادة التشريعية فإنها تعني أنّ الله قد رضي بهذا الشيء وهو يريد كذلك . فعندما يقول سبحانه وتعالى مثلاً حول الصوم : ﴿ يُرِيدُ الله بكم اليُسر ولا يُريدُ بكم العُسر ﴾[1] . أو عندما يرد في قوله تعالى حول مفهوم الزكاة : ﴿ يُريدُ لِيُطَهركم ﴾[2] . فإنّ الغاية من وراء ذلك القول بأنّ الله قد شرّع مثل هذه التعليمات وأنّ الله قد أمر بذلك ، وأنه يُريد للأمور أنْ تمضي كذلك . أي إنّ رضا الباريء الحق يتحقق في تلك الإرادة . فالله هو الذي أراد أن تكون شهيداً ، أو أنّ جدي قد قال لي بأنّ رضا الله إنما يحصل بشهادتك أو أنّ جدي قال لي إنّ الله قد شاء أن يراهنّ سبايا . أي إنّ أسرهن فيه رضا الحق وفيه المصلحة . ورضا الحق دائماً في المصلحة والمصلحة تعني كمال الفرد والبشرية .

وفي مقابل هذا الحديث لم يقل أحدٌ شيئاً . أي لم يكن باستطاعة أحد أنْ يقول شيئاً . لأنه ما دام جدك قد أتاك في عالم الرؤيا وقال لك إنّ المصلحة تقتضي بأن تُقتل فأي حديث وأي قولٍ نستطيع قوله تجاه هذا القول . وإن كل الذين تلقوا هذا الجواب من أبي عبد الله الحسين (ع) لم يتخيلوا كما لو أنّ أبا عبد الله الحسين كان مُحرجاً في موقفه نتيجة ما أتاه في عالم الرؤيا وأنه مثلاً كان يقول بأنّ المقدّر لا بد له أنْ يحصل وأنّه لا حيلة لي بما سيقع . لا أبداً ، بل إنه كان يقول لهم إنه ونتيجة الإلهام الذي أتاني بواسطة عالم الرؤيا فإنني أرى أنّ المصلحة تقتضي القيام بمثل هذا العمل وإنه العمل الذي سأقوم به بكامل إرادتي ، وهو ما يتناسب مع المصلحة العليا .

---

(١) سورة البقرة : الآية ١٨٥ .

(٢) سورة المائدة : الآية ٦ .

ولـذا ترى أنّ جميـع من تدخّـل لدى أبي عبـد الله لثنيه عن الخـروج كانـوا يُفكرون بطريقة واحدة لكن أبـا عبد الله كـان يرى الأمـور من منظار أرفـعُ درجَةً فحكمهم في وادٍ ، وحكمه في وادٍ آخر إذ كان يقول عليه السلام : إن الأمـر ليس كما تتصورون، فأنا أعملُ وأتصرفُ بشكـل آخر ، ممـا يعني أنّ عمله عليه السـلام وفعله ونشاطه وكل حركةٍ من حركاته كـانت محسـوبـةً بدقـةٍ وكلها عبـارة عن نداءٍ ورسالة يقتضي منه القيام بها . إنها المهمة التي وكّل بها . ولم يكن قد أخذ أهل بيته بمثابة الكم الثانوي الذي لا دور له . أو إنـه تصرّف على طـريقة النـاس العاديـين وقال ما دمتُ ذاهباً فليأت معي أهـلي وعيالي ، لا فـالأمر ليس كـذلك . فـما عدا الأسماء التي سبق وأنْ ذكرتها من الأصحاب فإن أحداً من الآخرين لم يأتِ بالنسـاء والأطفال معه . فالإنسان الذي يتهيأ لسفر محفوف بالمخاطر لا يأخـذ أهله وعيالـه معـه . لكن أبا عبـد الله قد أخـذ زوجته وأطفـاله معـه ، ولكن ليس لأنه أراد أنْ يـأخذ أهله وأطفـاله هكـذا معـه دون أي حسـاب يـذكـر . (من المعلوم أنّ بيت وسكن واستقرار حياة الإمام الحسين (ع) كل ذلك كان في المدينة) بل إنه أخذهم معه من حيث إنّ لهم دوراً ورسالةً عليهم أنْ يؤدوها . كانت هذه المقدمة الأولىٰ .

المقدمة الثانية عبارة عن : البحث حول « دور المرأة في التاريـخ » وهل إنّ للمرأة دوراً ما في صناعة التاريخ أم لا ؟ ومـا إذا كان في الأسـاس باستـطاعتها أن تمثـل دوراً ما أم لا ؟ وهـل يجب أن يكون لهـا دور أو أنـه لا ينبغي أن يكـون لهـا دور ؟ بالإضافة إلى نظرة الإسلام لهذه القضية ؟

إنّ للمرأة دوراً في التاريخ كان وسيظل ولا أحد ينكر هذا الدور وهو دورها غير المباشر في صناعة التـاريخ . يقـولون إن المرأة تصنع الـرجل والـرجل يصنـع التاريخ . يعني إنّ للمرأة دوراً في صناعة الرجل أكثر ممّا للرجل من دور في صناعة المرأة .

وهذه مسألة بحد ذاتهـا لسـتُ بصدد الحـديث عنها هـذه الليلة . ولكن هل هو الرجل الذي يصنع روح وشخصية المرأة أكانت المرأة أُمّاً أم زوجـةً أم إنها المرأة التي تصنع الابن بل وحتىٰ الزوج ؟ (ولا سيما الزوج) وهل هي المرأة التي تؤثّر في

صناعة الزوج أكثر أم إنه الزوج الذي يُساهم في صناعة المرأة أكثر ؟

إنكم ستعجبون بالتأكيد لو قلتُ لكم إنّ التحقيقات التاريخية والدراسات النفسية قد أثبتت أنّها المرأة التي تؤثر في شخصية الرجل أكثر مما يؤثّر الرجل في شخصية المرأة . ولذلك فإنّ التأثير غير المباشر للمرأة في صناعة التاريخ أمرٌ مفروغٌ منه لا يمكن إنكاره ولنترك الآن قصة أنّ المرأة تصنع الرجل والرجل يصنع التاريخ فتلك قصة مطوّلة وبحثها ذو شجون .

ولنتوجه للبحث حول مدى دور المرأة المباشر في صناعة التاريخ وكيف يجب أن يكون وكيف يمكن أن يكون ؟ إنه يمكن أن يكون على ثلاثة أشكال :

الشكل الأول أن لا يكون للمرأة أساساً أي دور مباشر في صناعة التاريخ . أي أن يكون دور المرأة دوراً سلبياً محضاً ، ففي كثير من المجتمعات لا نجد للمرأة أي دور يخرج عن إطار الحمل والولادة ورعاية الطفل وإدارة شؤون البيت الداخلية . أي إنه لم يكن للمرأة دور مباشر في المجتمع الكبير . ودورها لم يتجاوز الدور غير المباشر . ذلك الدور المتأتي من خلال تأثيرها ولعب دورها في داخل العائلة وصناعتها لفرد وعنصر العائلة الذي سيلعب دوره في المجتمع الكبير . وهذا ما نستخلص منه أنّ المرأة في كثير من المجتمعات لا تمثل أي دورٍ مباشر خاصٍ بها سوى ذلك الدور الذي تمثله بواسطة الرجل . والمرأة في هذه المجتمعات ، وخلافاً لما يُشاع في هذا المجال ، فإنها رغم عدم تمثيلها الدور المباشر في صناعة التاريخ والمجتمع فقد كانت تعيش بمثابة ذلك الشيء الثمين القدر والقيمة . أي إنها وعلى الرغم من قلة تأثيرها كشخص لكنها ظلت ذلك الشيء الثمين والدليل على ذلك تأثيرها في صناعة الرجل ولم تكن يوماً رخيصةً تتوفر هكذا في الأزقة والطرقات ويستطيع نوالها من يُريد الاستفادة منها في الأماكن العمومية ، بل إنها كانت ذلك الشيء الذي انحصرت الإفادة منه في دائرة الحياة العائلية فقط لا غير . ولذلك فإنها كانت بالتأكيد بالنسبة لرجل العائلة موجوداً ثميناً للغاية ، لأنها الموجودة الوحيدة التي كانت تُشبع إحساساته الجنسية والعاطفية ، وبالطبع فإن الرجل في هذه الحالة كان عملياً في خدمة المرأة . لكن المرأة ظلت رغم ذلك شيئاً

ثميناً مثل الماس والجواهر الثمينة الأخرى لكنها ليست شخصاً وإنما شيئاً ثميناً .

الشكل الآخر لتأثير المرأة في التاريخ وهو الشكل الذي كان رائجاً وشائعاً في المجتمعات القديمة بأن تكون المرأة عاملاً مؤثراً في التاريخ وأن تمثل دوراً مباشراً فيه وأن تكون بمثابة شخص مؤثر وليس شيئاً . لكنها تكون شخصاً لا قيمة له وشخصاً رخيصاً وتصبح ذلك الشخص الذي نزعت عنه الحصانة والحرمة التي تفصل بينه وبين الرجل . إنّ الجزئيات الدقيقة في علم النفس أثبتت إنّ هناك لمسات دقيقة جداً معجونة في خلقة الإنسان جعلت من المرأة كياناً عزيزاً . لكن في الوقت الذي ترى فيه هذه الحرمة قد كُسِرت كُلياً وهذا السياج قد قُلَّ نهائياً ، وتحلّل تماماً ، فإنّ شخصية المرأة تكون قد انحدرت سواءً من حيث العزة أو الاحترام . بالطبع من الممكن أن تكون قد اكتسبت امتيازات ترفع من شخصيتها في الجوانب الأخرى من الحياة ، كأن تكون قد أصبحت متعلّمة ، أو عالمة ، لكنها لم تعُدْ ذلك الموجود الثمين للرجل . لكن المرأة لا تستطيع أن تخرج من كونها امرأة وإنّ من طبيعة المرأة أن تكون ثمينة للرجل . ولو سُلبَ هذا الشيء من المرأة فإنها تفقد روحيتها بشكل تام .

إنّ ما يلاحظ على الرجل في العلاقة الجنسية هو رغبته في امتلاك المرأة بمثابة موجود ثمين ، وليس امتلاك المرأة له بمثابة الموجود الثمين لها .

في حين إن الكامن في طبيعة المرأة ليس امتلاك الرجل لها على أنها شيء ثمين ، بل أنْ تعمل هي بمثابة شيء ثمين في السيطرة على الرجل .

لكن في الوقت الذي تخرج فيه المرأة من موقع الاختصاص ـ حالة الخصوصية ـ (ليس بالضرورة أن ينتشر ويعم التخصص والاختصاص من خلال الزواج فقط) أي أنْ تصبح المرأة رخيصة ، وتصبح الشوارع والأزقة واجهات لها تعرض من خلالها نفسها للرجل ، وأن يكون بمقدور الرجل أنْ يستثمر ويُشبع حاجته في النظرة ، والتمتع الشهواني ، وسماع الموسيقى ، وغناء النساء ، واللمس ، وغير ذلك ، بأرخص الأثمان . هنا تفقد المرأة قيمتها ، وأهميتها الخاصة بالنسبة للرجل . أي إنها لم تَعُد شيئاً ثميناً رغم أنها أصبحت معلمة

مثلاً ، أو خريجة جامعة ، أو معلّمة مدرسة ، وباستطاعتها أن تدير مدرسة ما ، أو أن تكون طبيبةً . كل هذا يمكن أن تكونه لكنها في مثل هذه الظروف (رخص المرأة) لن تجد فيها تلك القيمة الموجودة في طبيعة كل امرأة ، وفي الحقيقة تصبح عندها المرأة ليست أكثر من العوبة في مجتمع الرجال دون أنْ تجد لها تلك العزة وذلك الاحترام المطلوبين لدى أي فرد من أفراد عالم الرجال .

إنّ المجتمع الأوروبي ينحو بهذا الاتجاه أي إنه يمنح المرأة من جهة ، بعض الامتيازات المتعلقة بنموها من الناحية الإنسانية مثل العلم وإرادة الشخصية ، لكنه من جهة أخرىٰ يفقدها قيمتها الخاصة .

وهناك شكل ثالث للمرأة يمكن له أن يكون ، وهو أن تصبح المرأة « الشخص الثمين » أن تكون شخصاً وثمينةً في آن معاً . أي أن تمتلك من جهة تلك الشخصية الروحية والمعنوية المطلوبة وتحمل في طياتها الكمالات الروحية والإنسانية نظير المعرفة وغيرها (العلم والمعرفة من أركان شخصية المرأة . والاختيار والإرادة المستقلة والقوية والشجاعة والبطولة الكافية ركن آخر من أركان شخصية المرأة . والإبداع بدوره ركن آخر من الأركان المعنوية لكل إنسان رجلاً كان أو امرأة ، وكون المرأة عابدةً لله تعالى أي أن تكون لها رابطة مباشرة مع ربها ومطيعةً له هذه وغيرها من العلاقات المعنوية التي تربط بين المرأة وبين الله وهي العلاقة الشبيهة بعلاقة الأنبياء مع ربهم يمكن أن تكون هي الأخرى عاملاً من عوامل تدعيم شخصية المرأة) . وأن لا تكون مبتذلةً في المجتمع من ناحية أخرىٰ . فلا تكون حالتها محدودة ومحددة ولا تكون مختلطة . بل حريماً وسطاً . والحريم حالة وسط بين حالة المحدودية وحالة الاختلاط بين المرأة والرجل .

عندما نطالع المصادر الإسلامية بخصوص المرأة نرى أن الإسلام يُريد للمرأة باختصار أن تحافظ على شخصيتها كما يُريد لها أن تحافظ على قيمتها . وفي إطار هذه الشخصية والقيمة تستقر حالة العفاف في المجتمع ، وتبقىٰ النفوس سليمةً والنواة العائلية سالمةً ورشيدةً وعلى ما يُرام . أنْ تكون المرأة ثمينة وكريمة يعني أن تحفظ الحرمة التي تفصل بينها وبين الرجل في الحدود التي وضعها الإسلام . أي

إنّ الإسلام لا يفسح لغير النواة العائلية في المجتمع مكاناً للتلذذ الجنسي بين الرجل والمرأة سواء أكان ذلك بصورة النظر إلى البدن والقامة ، أو بصورة اللمس ، أو بصورة استشمام العطر النسائي ، أو سماع صوت الأرجل ، إذا كان ذلك مُهيِّجاً . ولكن إذا قيل وما هو الموقف من العلم والاختيار والإرادة والإيمان والعبادة والفن والإبداع؟ نقول عظيم جداً . مثلها مثل الرجل. فالشارع المقدس قد حرَّم أشياءً خاصةً بالمرأة وما لم يُحرِّمه الشارع فإنه ليس حراماً على أحدٍ منهما . نقول إنّ الإسلام يُريد الشخصية للمرأة وليس الابتذال .

بناءً على ما تقدم فإنّ السؤال عمّا إذا كان التاريخ قد صنعه الرجل أم الرجل والمرأة معاً يمكن الجواب عليه بأشكال ثلاثة فنقول :

إنّ هناك تاريخاً يمكن نعته بالتاريخ المذكر وهو التاريخ الذي تم صنعه بواسطة الجنس المذكر بشكل مباشر ولم يكن للجنس المؤنث أي دور يُذكر فيه .

وهناك تاريخ آخر هو تاريخ المذكر والمؤنث أي من النوع المختلط ولا يكون فيه الرجل في مداره ولا المرأة في مدارها . أي ذلك التاريخ تعرضت فيه هذه المنظومة إلى الفوضى والاضطراب حيث الرجل أصبح يدور في مدار المرأة المرأة صارت تدور في مدار الرجل . ولو ألقينا نظرةً اليوم على لباس بعض الشباب والشابات المنتشرين في مجتمعاتنا لرأينا كيف أنهم صاروا يستبدلون مواقعهم مع بعضهم البعض .

ثم هناك الشكل الثالث من التاريخ وهو تاريخ المذكر والمؤنث المصنوع على يد الرجل كما على يد المرأة لكن الرجل فيه لم يغادر مداره كما أن المرأة بقيت في مدارها . ونحن عندما نطالع القرآن الكريم نرى أن تاريخنا الديني والعقيدي كما شرحه لنا القرآن الكريم عبارة عن تاريخ مذكر مؤنث والذي اصطلحتُ عليه بالتاريخ ـ المنذنث ـ أي التاريخ الذي مثّل فيه المذكر دوره كما مثلت الأنثى دورها ولكن ليس بالصورة المختلطة بل إن الرجل حافظ فيه على مداره الخاص كما حافظت المرأة على مدارها أيضاً .

وكما يُلاحظ فإن القرآن الكريم قد تعمد في إظهار دور القدّيسات

والصّديقات في التاريخ تماماً كما بينَ دور القديسين والصدِّيقين فيه . ففي قصة (آدم وحواء) هناك ملاحظة سبق لي وأن أشرتُ إليها مراراً في محاضراتي في السنين الماضية وأود هنا أن أذكركم بها مجدداً . أقول :

هناك فكر خاطىء أدخله المسيحيون في تاريخ الفكر الديني العالمي وهو نوع من الخيانة الحقيقية في عالم الدين . (وذلك بخصوص عزوبة المسيح عيسىٰ بن مريم وعدم زواج القسس والمطارنة والكرادلة) فمن خلال إلقاء ذلك الفكر الخاطىء صارت المرأة مع الزمن تُشَكِّل عاملاً من عوامل الذنوب والخداع . أي بمثابة الشيطان الصغير الذي يُوسوس باستمرار في نفس الرجل ويدفعه إلى ارتكاب الذنوب . فقد قالوا إن قصة (آدم وحواء والشيطان) قد حصلت على الشكل التالي :

لَمّا كان الشيطان لم يستطع النفوذ إلى قلب (آدم) تحوّل إلى (حواء) فاستطاع خداعها ثم قامت (حواء) من بعد ذلك بخداع (آدم) . وعليه فإن التاريخ بأجمعه يسير بهذا الاتجاه فالشيطان الكبير يبدأ أولاً بخداع المرأة ثم تأتي المرأة فتخدع الرجل وتوسوس في نفسه . في حين أن قصة (آدم وحواء) والشيطان بالشكل الآنف الذكر قد اخترعها المسيحيون من عندياتهم . إذ إنّ القرآن الكريم يقول بخلاف ذلك ويُصرّح بحقيقة الأمر بوضوح وهو أمرٌ عجيب فعلاً . فعندما يأتي القرآن على ذكر (آدم والشيطان) يجعل أصل الغواية في آدم ومن ثم يتبعها بحوّاء . ثم إنه بعد ذلك عندما يتحدث عن مسير الغواية والانحراف ينقل القصة على الشكل التالي إذ يقول تعالى : ﴿**ولا تقربا هذه الشجرة . . * فوسوس لهما الشيطان**﴾[1] فهو لم يَقُل وسوس للواحد منهما وجاء هذا فوسوس في نفس الآخر . ثم يضيف تعالى : ﴿ **فدلّاهما بغرور** ﴾[2] مرة ثانية يأتي ضمير التثنية . ثم ﴿ **وقاسَمَهُما إني لكما لَمِنَ الناصحين** ﴾[3] أي إنه

---

(١) سورة الأعراف : الأيتان ١٩و٢٠ .
(٢) سورة الأعراف : الآية ٢٢ .
(٣) سورة الأعراف : الآية ٢١ .

بمقدار ما تزلزلت (حواء) تزلـزل (آدم) وبمقدار مـا تعرضت (حـواء) للغوايـة تعرّض (آدم) .

فـالإسلام أتى وطـرد هذه الفكـرة وهذا الكـذب الذي ألصقـه المنحـرفـون بتـاريخ الفكـر الديني وأوضـح بما لا يقبـل الشك والـترديد بـأن قضيـة عصيـان الإنسـان وتمرّده عـلى أوامر ربّـه ليست كما يـدعي المنحرفـون من أن الشيطان قـد أغوى المرأة أولاً ثم جاءت هي ووسوست بنفس الرجل وبالتالي فإن المرأة عامل من عوامل الذنب والمنكر ! وربما كان هذا هو السبب الـذي حمل القـرآن الكريم عـلى ذكر القدّيسات العظيـمات إلى جانب القـدّيسين وقـد جاءت مـواردهن كافـة أكثر عظمةً وأرفع علُواً من القدّيسين .

فـانـظر إلى القـرآن الكـريم كيف يـأتي عـلى ذكر سارة (زوجــة إبـراهيم عليـه السلام) ويُجلّهـا ذلك الإجـلال العظيم ! ويُحـدّث عنهـا بـأنها عـلى شـاكلة (إبراهيم) وفي مقامه فكما أن (إبـراهيم) مرتبطٌ بـالملكوت ولـه عين ملكـوتية ، يـرى فيها المـلائكـة ، ويسمـع أصـواتهم ، فـإن (سـارة) هي الأخـرى تسمـع أصواتهم أيضاً . فعندما قال الملائكة لإبراهيم (كان إبراهيم شيخـاً كبيراً وامـرأته سارة امرأة عجوزاً) . إن الله يُريد أن يهبـك ولداً فإن (سارة) قد صاحت عالياً وقالت : ﴿ أألِدُ وأنا عجوزٌ وهذا بَعلي شيخاً ﴾[1] ؟! فخاطبت الملائكة هذه المرة (سارة) وليس (إبراهيم) وقالت لها : ﴿ أتَعْجَبينَ من أمر الله ﴾[2] ! كذلك الأمر عندما يـرد ذكر (أم مـوسىٰ) في القرآن الكـريم فترى الآيـة الكريمـة تخاطب تلك المرأة الجليلة بقوله تعالى : ﴿ وأوحينا إلى أم موسىٰ أن أرضعيه ، فإذا خفتِ عليه فألقيه في اليمِّ ولا تخافي ولا تحزني إنّا رادُّوهُ إليك وجاعلُوهُ مِنَ المُرْسَلِينَ ﴾[3] .

ثم انظر إلى القرآن الكريم ماذا يعمل عندما يصل في الحديث عن (مريم) فإنه يأتي على ذكرها بعظمةٍ منقطعةِ النظير . فإذا بالأنبياء يركعون أمـام هذه المـرأة

---

(١) سورة هود : الآية ٧٢ .

(٢) سورة هود : الآية ٧٣ .

(٣) سورة القصص : الآية ٧ .

الجليلة . فعندما يأتي إليها (زكريا) يراها جالسةً وحولها من النعم التي لا وجود لها في البلاد التي يُقيم فيها أولئك القوم .

ثم يقول القرآن الكريم بينما كانت مريم جالسةً في المحراب فإن الملائكة كانت تُحدِّثها قائلةً : ﴿ إذْ قالتْ الملائكةُ يا مَرْيَمُ أنَّ الله يُبَشِّرِكِ بكلمةٍ منه اسمُهُ المسيحُ عيسىٰ بن مريم وجيهاً في الدنيا والآخرة ومن المُقرَّبين ﴾[1] .

فالملائكةُ هنا كانت تتحدث مباشرةً إلى (مريم) وهي لم تكن من المبعوثين . لأنّ القرآن لا يرى من المصلحة والصلاح أن يبعث رسولاً من النساء لِيُبَشِّر بين الرجال والنساء فمريم هنا خلافاً لشأنها لم تكن مبعوثةً لكن مقامها أعلى وأرفع من كثير من المبعوثين والرُسُل . فمريمُ غير المبعوثة لا شك أعلى مقاماً وأرفع درجةً من زكريا المبعوث والرسول .

يقول القرآن الكريم في ذكره للصدِّيقة الطاهرة فاطمة الزهراء : ﴿ إنّا أعطيناكَ الكوثر ﴾[2] وهل هناك كلمةٌ أرفعُ من كلمة « الكوثر » ؟!! ففي وسط العالم الذي كان يرى في المرأة شراً مطلقاً وعنصر خداع وعامل ذنب يأتي االقرآن ليقول إنها ليست خيراً فحسب بل أنها الكوثر ، أي الخير الوسيع ، أي عالم من الخير .

ثم نأتي الآن إلى متن التاريخ الإسلامي ، فمنذ اليوم الأول للدعوة وإذا بشخصين اثنين يلتحقان بالإسلام ، هما عليٌ وخديجة وكلاهما مثّل دوراً مهماً على مسرح صناعة تاريخ الإسلام . فلو لم تكن تضحيات هذه المرأة التي كانت تكبر النبي بخمسة عشر عاماً فمن أين كانت القدرة ستأتي للنبي ـ من زاوية العلل الظاهرية ـ للقيام بكل ما قام به من نشاط في الدعوة ؟ فكما ورد في تاريخ (ابن اسحاق) بعد قرنٍ ونصف من الهجرة حول مقام خديجة ودورها في مساعدة الرسول (ص) ، ولا سيما دورها في مواساته عليه أفضل الصلاة والسلام يقول الراوي :

---

(١) سورة آل عمران : الآية ٤٥ .

(٢) سورة الكوثر : الآية ١ .

إنَّ الدنيا قد ضاقت كثيراً بوجه النبي الأكرم (ص) بعد وفاة (خديجة) وهي *السنة التي توفي فيها عمه (أبو طالب) أيضاً* حيث إنه صار بعد ذلك كلما يُذكر اسم (خديجة) أمامه تسيل الدموع المقدسة من عينيه حُزناً عليها وعندما كانت (عائشة) تعترض وتقول له لماذا كل هذه القيمة والتقدير لعجوز مثل (خديجة) كان يقول لها : إنني لا أبكي (خديجة) لشكلها بل أبكيها لمقامها. فأين أنت وغيركِ من خديجة ؟!

إن تاريخ الإسلام هو تاريخ المذكر ـ المؤنث. صنعه المذكر كما صنعه المؤنث لكن المذكر فيه ظل في مداره والمؤنث أيضاً بقي في مداره ولم يغادره . فالرسول الأكرم (ص) كان لديه أصحاب من الرجال كما لديه أصحاب من النساء وكان هناك الرجل الراوي كما كان هناك المرأة الراوية وهي أسماء معروفة دوَّنها المؤرخون في كتبهم قبل ألف عام ولدينا روايات كثيرة كان رواتها من النساء . فهناك كتاب مثلاً باسم (بلاغات النساء) وفيه خطب وأقوال بليغة أوردها النساء في التاريخ الإسلامي وهو كتاب حرّره البغدادي الذي كان يعيش في حدود العام (٢٥٠هـ) أي في زمن الإمام الحسن العسكري (ع) (من المعلوم أن الإمام العسكري (ع) قد توفي في العام (٢٦٠هـ) ومن جملة الخطب التي ذكرها البغدادي في هذا الكتاب خطبة السيدة (زينب) عليها السلام في مجلس (يزيد) وخطبتها أيضاً في مجلس (ابن زياد) وخطبة (الزهراء (ع)) في أوائل خلافة أبي بكر .

في الضريح الجديد الذي تم بناؤه للسيدة المعصومة (وهي أخت الإمام الرضا (ع) المدفونة في مدينة قم المقدسة) يوجد رواية جميع رواتها من النساء إلى أن نصل إلى الرسول الأكرم(ص). وبالمناسبة فإن أسماءهنّ جميعاً فاطمة (حوالي أربعون فاطمة) . فهي معنعنة هكذا روي عن فاطمة . . . عن فاطمة بنت . . . حتىٰ يصل الأمر إلى فاطمة بنت موسىٰ بن جعفر ، ثم يستمر التسلسل حتىٰ فاطمة بنت الحسين بن علي بن أبي طالب إلى أن تصل أخيراً إلى فاطمة بنت النبي .

أي إنّ مشاركة النساء في المجتمع كانت منتشرة إلى هذا الحد الكبير ولكن لم

يحصل الاختلاط يوماً . فقد كان الكثير من الرواة يحضرون المجالس ليُحدِّثوا الناس بروايات وأحاديث النبي ، وكانت النساء تأتي وتجلس وتستمع إليهم . لكن الرجال كانوا في ناحية والنساء في ناحية أخرىٰ .

لا كما هي الحالة اليوم حيث يأتون بالكراسي ويجلس الرجل على كرسي والمرأة على الكرسي المُحاذي لهُ وهي تلبس الميني جوب وتعرض سيقانها أمام الرجال ومن ثم تقول إنها جاءت لتتعلم في حين أن الأمر واضح جداً فالظاهر شيّء والباطن شيّء آخر . فالإسلام يُريد العلم للجميع لكنه يرفض الابتذال ، ومجالس الشهوة ، والسخرية ، والاحتيال . إنه يُريد الشخصية للإنسان .

لقد أراد كل من فاطمة (ع) والإمام علي (ع) بعد زواجهما أن يُقسِّما أعمال البيت بينهما لكنهما أرادا أن يحصل ذلك بإشراف النبي (ص) وتعليماته فذهبا إليه ليستأنسا برأيه وقالا له : يا رسول الله ! نوّد أن نسمع منك عن واجبات علي (ع) في هذا البيت وواجبات فاطمة . فأوكل رسول الله أعمال البيت الخارجية إلى علي (ع) وأعمال البيت الداخلية لفاطمة . فما كان من فاطمة إلا أنْ عبّرت عن شديد فرحها وبهجتها بارتفاع كاهل أعمال البيت الخارجية عن كتفها . لمثل هذه المرأة يُقال المرأة العالمة . والمرأة الخالية من الحرص تُفكر وتعمل كما عملت فاطمة (ع) .

ولكن هل دققتم بشخصية (الزهراء) هذه التي تفرح بما أوكل إليها الرسول (ص) من شؤون الأعمال البيتية ؟ إنها هي نفسها فاطمة صاحبة العلم والإرادة العظيمة والخطابة والبلاغة والنمو الفكري والتسامي الأخلاقي الراقي .

لقد رحلت (الزهراء) من هذه الدنيا وهي في عز شبابها ولكثرة ما كان لديها من أعداء ، لم يبق كثير من آثارها محفوظاً . ولكن لحسن الحظ فإن خطبةً طويلة جداً (في حدود ساعة) مفصلة لا زالت محفوظة منها ويقال إنها أوردتها وهي في عمر يناهز الثمانية عشر عاماً (أو كما ورد في بعض الروايات (٢٧) عاماً) وهي رواية مُتّفق عليها أي إنّ رواتها ليس الشيعة فقط فكما ذكرنا فإنّ البغدادي قد ذكرها في كتابه في القرن الثالث الهجري . وهذه الخطبة الواحدة بحد ذاتها

كافية لِتُبَيّنَ لنا كيف أن المرأة قادرة في الوقت الذي تحافظ فيه على الحريم الفاصل بينها وبين الرجل أو بالأحرى عندما لا تجعل زينة نفسها وبدنها وكيانها ، معرضاً للرجال . هذه المرأة نفسها تستطيع أن تصل إلى هذا المستوى الرفيع من العلم . ثم تُحدّد هي لنا وتُبين المدى المقبول في خوضها للمجتمع الكبير .

إن خطبة (الزهراء(ع) فيها من التوحيد في مستوى توحيد (نهج البلاغة). أي المستوى الذي لا يتمكّن الفلاسفة من الوصول إليه . فهي عندما تتحدث في الخطبة عن الذات القدسية وصفات الله توازي في مستواها مستوى أكبر فلاسفة العالم . وليس بمقدور فيلسوف كبير مثل (ابن سينا) أن يخطب خطبة مثلها . ثم تراها فجأةً تنتقل للحديث عن فلسفة أحكام العبادات فتُحدِّثك عن حيثيات حكم وجوب الصلاة والصوم والحج والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والزكاة . . الخ ثم تنتقل إلى تقويم حالة العرب ما قبل الإسلام والتحوُّل الذي أدخله الإسلام في هيكلية وكيان هذه الأمة التي كانت على ما كانت عليه من تفتت وتمزق وجاهلية . فتراها تُحلّل وضع الحياة المادية والمعنوية التي مرّت بها القومية العربية قبل الإسلام ، ومن بعد ذلك تُذكّرهم بما قدّمه لهم النبي الكريم من وسائل تطور ونمو الحياة المادية والمعنوية ، إلى أن تصل في الحديث إلى موضوع الاستدلال والمحاجّة وغير ذلك .

إنها كانت تخطب في مسجد المدينة بحضور الآلاف من الناس لكنها لم تصعد على المنبر والعياذُ بالله لِتُبَيّنَ نفسها وتتباهى بشخصيتها . فسُنة النبي كانت تُفرِّق بين مجلس النساء ومجلس الرجال إذ كانت هناك ستارة تفصل بين المجلسين .

والزهراء البتول ألقت بخطبتها كاملةً من وراء الستارة ولكنها قلبت المجلس نساءً ورجالاً . وهذا هو الترجمة الفعلية لِما قُلناه قبل قليل فهي مثالُ الجمع بين الشخصية والعفاف ، بين الطهارة والحدود الفاصلة المُسماة ـ بالحريم ـ . فهي لا تعرض نفسها لأعينُ الرجال الجائعة أبداً لكنها من جهةٍ أخرى ليست موجودة بلهاء لا تعرف شيئاً من هذه الدنيا .

إن تاريخ كربلاء أيضاً عبارة عن تاريخ مذكر ومؤنث . تاريخ واقعةٍ اشترك في صنعها الرجال والنساء معاً . ولكن هنا أيضاً كانت المرأة في مدارها وفلكها والرجل في مداره وفلكه . ومعجزة الإسلام تكمن في هذا الطرح وعالمنا اليوم حُرٌ بقبوله أو رفضه فالمستقبل لا بد سيقبل به بالتأكيد .

إن أبا عبد الله الحسين عندما قرر تحريك أهل بيته في تلك القافلة إنما أراد منهم أن يؤدوا الرسالة التي تنتظرهم في هذا التاريخ العظيم وبالتالي لعب الدور المباشر في صناعة هذا التاريخ العظيم من خلال أميرة القافلة السيدة (زينب (ع)) ولكن ضمن مدارها وفلكها النسائي .

ابتداءً من عصر عاشوراء تبدأ (زينب) تتجلىٰ فمنذ تلك اللحظة انتقلت المهمة الأولىٰ إليها فقد أصبحت هي رئيسة القافلة . ذلك أن الرجل الوحيد الذي بقي من أهل بيت الحسين في كربلاء كان الإمام زين العابدين (ع) ، حيث كان في حالة صحية متردية يحتاج فيها إلى الرعاية والمداواة ، هذا بالإضافة إلى أن العدو كان يُريد الإجهاز عليه بناءً على تعليمات (ابن زياد) القائلة بالقضاء على كل الذكور من نسل الحسين لكنه في كل مرة كان يعرض عن هذه المهمة بسبب مرض (زين العابدين) وقولهم إنه لا بد سيموت وحده فيذكر التاريخ أنهم قالوا : « إنما هذا صبي وأنه لِما به . . . »[1]

وهذه بدورها أيضاً كانت حكمة إلهية ومصلحة ربّانية أرادت بقاء الإمام (زين العابدين (ع)) حياً حتىٰ لا يُقطع نسل الحسين (ع) . على كل حال فقد كانت إحدى المهام الموكلة لـ(زينب) بعد عاشوراء رعاية الإمام (زين العابدين (ع)) والاعتناء به .

لقد جاؤوا بالأسرى من آل بيت النبي عصر يوم الحادي عشر من محرم وأركبوهم على الجمال والدواب التي كان قد وضع فوقها الهوادج والبراذع المصنوعة من الخشب وتعمدوا أن لا يضعوا فوقها قطعة قماش زيادةً في العذاب والأذىٰ .

---

(١) بحار الأنوار ج ٤٥ ص ٦١ . أعلام الورى ص ٢٤٦ . إرشاد المفيد ص ٢٤٢ .

ولكن أهل بيت الحسين سألوا العدو وطلبوا منه مطلباً تمت الموافقة عليه . يقول الراوي :

وقلنَ ـ أي السبايا ـ بحق الله إلاّ ما مررتم بنا على مصرع الحسين «[1] حتىٰ نودع أعزاءنا وأحباءنا الوداع الأخير . وكان الجميع مُطلقي الأرجل فوق الدواب ما عدا الإمام زين العابدين (ع) حيث رُبطت رجلاه على بطن الدابة بسبب مرضه الشديد .

وما أن وصلت القافلة إلى مصرع الحسين حتى نزلن جميعاً عن دوابّهنّ دون اختيار وصرنَ يضربن على وجوهن ويبكين وتنطلق (زينب) نحو جسد الحُسين فترى أخاها في وضع لم ترهُ من قبل : جَسدٌ مُقطّع الأعضاء ، مرمّلٌ بالدماء ، مقطوع الرأس ، دون لباس فتقترب من ذلك البدن الشريف وتعتنقه وتقول :

« . . . بأبي المهموم حتىٰ قضىٰ ، بأبي العطشان حتىٰ مضىٰ . . »[2] إلى آخر القول الذي يُقطّع القلوب ويُحرّق الأكباد حتىٰ قيل إنها : « فأبكتْ والله كُلَّ عدوٍ وصديقٍ »[3] .

إنّ أول من أقام مجلس عزاء للحسين (ع) هي السيدة (زينب (ع)) لكنها في الوقت ذاته لم تغفل عن واجباتها الأخرىٰ ، فرعاية زين العابدين في عهدتها . نظرت إلى زين العابدين فرأته في حالة من الأسىٰ والحُزن الشديدين بعد أن رأى المشهد الرهيب للمصرع الحسيني فتركت بدن أبي عبد الله الحسين على الفور وتوجهت إلى زين العابدين ونادته :

يابن أخي ! لماذا أراك وكأن روحك تُريد الخروج نحو السماء فيردّ عليها : عمة زينب وكيف أستطيع أن أرىٰ أبدان أحبتي وأعزائي هي بهذا الشكل ثم لا

---

(١) بحار الأنوار ج ٤٥ ص ٥٨ . اللهوف ص ٥٥ . كما وردت عبارات نظيرة لها في مقتل الحسين للمقرم ص ٣٩٦ . ومقتل الحسين للخوارزمي ج ٢ ص ٣٩ وكلها برواية حميد بن مسلم .

(٢، ٣) بحار الأنوار ج ٤٥ ص ٥٩ ، اللهوف ص ٥٦ ، مقتل الحسين للمقرم ص ٣٩٦ .

أحزن عليهم فتشرع زينب في تلك الظروف بتهدئة خاطر أخيها وتواسي روحه الكئيبة .

وفي هذا المجال لا بد من ذكر (أم أيمن) وهي امرأة جليلة القدر ويبدو أنها كانت من إماء خديجة التي تحررت فيما بعد وعاشت في بيت النبي ونالت الاحترام والتقدير الفائقين وصارت تروي الحديث عنه صلى الله عليه وآله وسلم .

ولّما كانت هذه المرأة قد عاشت سنين طويلة في بيت النبي فإنها قد نقلت ذات مرة حديثاً عن النبي إلى (زينب) وهو حديث يخص آل البيت عليهم السلام ولّما كان يخص آل البيت فإن زينب أرادت أن تتيقن من دقة نقلها للحديث فذهبت تسألُ أباها علياً(ع) في أواخر عمره عن مدى دقة ما نقلته (أم أيمن) لها فصادق علي (ع) على صحة ذلك الحديث كما نقلته (أم أيمن) دون زيادة أو نقصان .

ولّما رأت زينب ابن أخيها بهذه الحال نقلت إليه هذه الرواية التي وردت على لسان أم أيمن . وهي الرواية التي جاء فيها أن الحسين (ع) لم يُقتل هكذا عبثاً بل أن مقتله كان ضمن حسابات المصلحة العُليا وأن دمه هذا لن يذهب هدراً وأنه سيُدفن عليه السلام في هذا الموقع الذي صُرع فيه هكذا بدون كفن ، وقبره إنما سيتحول إلى مطاف الزائرين على مر الأيام . وهو في المستقبل سيتحول إلى كعبةٍ لأهل الإخلاص والخلوص . كان هذا ما نقلته زينب لابن أخيها زين العابدين .

بعد ظهر يوم الحادي عشر من محرم حيث بقي (عمر بن سعد) مع جنده ليدفن الأجساد الخبيثة لأصحابه . لكن أبدان أصحاب أبي عبد الله بقيت هكذا وسط الصحراء . وتركوها في العراء وحرّكوا السبايا والأسرى وانطلقوا بهم مثل هذه الليلة نحو الكوفة دون توقف والمسافة تقارب الاثني عشر فرسخاً . كانت الخطة أن يدخلوا بالسبايا إلى الكوفة في يوم الثاني عشر من محرم بطريقة احتفالية تُدقّ فيها الطبول ويُنفخ في الأبواق مما يُعطي للجيش المنتصر حالة الجيش الفاتح كما لو أنهم قد ضربوا ضربتهم النهائية وتخلصوا من أهل بيت النبوة إلى الأبد .

الرؤوس الشريفة كانت قد أُرسلت قبل الأسرى لتكون في استقبال الأسرى

هنـاك ، والأسرى ، وعلى رأسهم (زينب) كما أسلفنا ، كـان من المفـروض أن يصلوا الكـوفة بعـد ساعـات قليلة من طلوع الشمْس . وفي مثـل تلك الـظروف الصعبـة حيث كانت زينب لم تـذق طعم النوم ربمـا منـذ عصر التـاسـع من محـرم وصلت زينب وسبايا آل البيت إلى أبواب (الكوفة) .

إنه وضع منقـطع النظير ولا يقبـل الوصف أبـداً (هنا تتجـلىٰ زينب وتصل أوج عـروجها إنها بنت عـلي وفاطمـة) وهاهي المـرأة صاحبـة الشخصيـة الفـريـدة التي بقيت امـرأة لكنها كـريمة وثمينـة للغايـة تورد خـطبتها الشـهيرة أمام المـلأ . يقول الرواة :

إن زينب كـانت تنتظر تلك اللحـظة وعنـدمـا شخصّت اللحـظة المنـاسبـة بـالضبط : « وقـد أومـأتْ إلى النـاس أن اسكتـوا فـارْتَـدّت الأنفـاسُ وسَكَتَتْ الأجراس »[1]

وهكذا تكون الشخصية التاريخية إذ بإيماءةٍ منها سكت الجميع وهدأ الكـل وتسمرّت حتىٰ الدواب في أماكنها وامتنعت الحركة بتاتاً . يقـول الراوي : « وَلَمْ أرَ واللّهِ خَفِـرَةً قطُّ أنْطَـقَ منهـا . . »[2] و« وخَفِرَة » هـذه كلمـة فـوق العـادة مهمـة وقيّمة .

فهي أي زينب خطبت في الناس وكـانت في منتهىٰ الحياء والعفّـة والعظمـة وبذلك تكون قد عجنت في شخصيتها حياء المرأة وشجاعة علي (ع) .

في الكوفة حيث كـان علي (ع) قـد خطب فيهـا قبل عشرين عـاماً خلت . وطـوال خمس سنوات من خـلافتـه عليـه السـلام كـان قـد أورد عـدداً كثيـراً من الخطب ، لا تزال مضرب أمثال الناس . يقول الراوي :

عنـدما نـطقت زينب تبادر إلى ذهن النـاس جميعـاً خـطبـة عـلي (ع) حيث

(١، ٢) بحار الأنوار ج ٤٥ ص ١٠٨ . مقتل الحسين للمقرم ص ٤٠٢ مقتل الحسين للخوارزمي ج ٢ ص ٤٠ . اللهوف ص ٦٢ .

يقـول : « كأنمـا تفرع عن لســان أمير المؤمنـين علي بن أبي طـالب (ع) . . . »[1]

ويقول الراوي :

ومـا ان أتمت زينب خطبتهـا (وهي لم تكن بالخـطبـة الـطويلة) حتىٰ رأيتُ الناس يومئذٍ حيارىٰ يبكون وقد وضعوا أيديهم في أفواههم . . .

نعم فهذا هو دور المرأة بالشكل الذي يريده الإسلام . يُريد لها الشخصيـة والإرادة القوية الصلبة ولكن في ذات الوقت الحفـاظ على الحيـاء والعفة والعفـاف والطهارة والحُرمة ولهذا السبب يمكن القول إن تاريخ كربلاء تاريخ الذكور والإناث معـاً ، تاريخ اشترك في صنعه الذكور ولكن في إطار ذكورتهم ومدارها ، والإناث ولكن في إطار أنوثتهن ومدارها ، إنه التاريخ الذي صنعه الجنسـان معاً .

لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم



---

(١) نفس المصدر السابق .

المحاضرة السابعة
شروط المبلغ والتأثير الدعائي (التبليغي) لأهل بيت الامام الحسين (ع) في مدة الأسر

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين باریء الخلائق أجمعين والصلاة والسلام على عبد الله ورسوله وحبيبه وصفيّه سيدنا ونبيّنا ومولانا أبي القاسم محمد صلى الله عليه وآله الطيبين الطاهرين المعصومين .

﴿ الذين يُبلّغون رسالات الله ويخشونه ولا يخشون أحداً إلّا الله وكفى بالله حسيباً ﴾[1] .

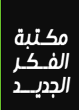
لم يبق من البحث العام حول شروط التبليغ في النهضة الحسينية إلّا موضوعان أحدهما هو الجزء الأخير المتبقي من شروط نجاح الرسول التي سبق لنا أن شرحناها عندما تطرقنا إلى موضوع التبليغ وقلنا في حينها إن نجاح أية رسالة يتطلب تحقيق أربعة شروط :

أولها كان قوة المضمون أو كما يُعبِّر عنه القرآن الكريم بالحقّانية .

وثانيها استخدام الوسائل والطرق أو المنهج الصحيح .

والثالث كان عبارة عن استخدام الوسائل والإمكانات الطبيعية والتقنية معاً

(١) سورة الأحزاب : الآية ٣٩ .



ولكن بشكل مشروع دون الوقوع في الإفراط أو التفريط [الإفراط بمعنى استخدام الوسائل غير المشروعة في تحقيق هذه الغاية والتي تعطي نتائج معكوسة والتفريط بمعنى الجمود وعدم استخدام الوسائل المشروعة وهو ما يؤدي بدوره أيضاً إلى إضعاف القوة التبليغية] .

وفي هذه المحاضرة بقي لنا أن نشرح الشرط الرابع لنجاح الرسالة وهو قوة الشخصية والكفاءات التي يتميز بها الرسول .

ولمّا كان الموضوع الثاني المتبقي وهو التأثير التبليغي لأهل البيت (ع) في مدة أسرهم يرتبط بشكل أو بآخر بموضوع شخصية الرسول وكفاءاته ويتداخل معه ارتأينا لذلك دمجهما في محاضرة واحدة حيث سنبحث عن شروط المبلِّغ أولاً ومن ثم نأتي على التأثير التبليغي لأهل البيت عليهم السلام سواء في مدة أسرهم التي أمضوها بين كربلاء والكوفة أو الكوفة والشام أو في الكوفة والشام نفسها أو بعد تحريرهم وانطلاقهم من الشام نحو المدينة .

إن قضية شروط المُبلِّغ والرسول هي من المسائل التي لا أدري سبب إهمالها من قبل مجتمعاتنا. فقيمة بعض القضايا والعناوين في مجتمعنا لا تزال محفوظة ولكن القيمة الواقعية لبعض المسائل الأخرى تذهب وتضيع لأسباب خاصة غير مفهومة . وسأعرض عليكم مثالاً على ذلك :

فأحد الشؤون الدينية والاجتماعية الخاصة بمجتمعنا هو مقام الإفتاء والمرجعية الدينية ـ مرجع التقليد ـ وهو مقام روحاني رفيع ، ولحسن الحظ فإن مجتمعنا يعرف ويُقدّر هذا المقام بحدوده الخاصة به . فأي مُطلّع وعارف بالشؤون الدينية عندما يسمع باصطلاح مرجع التقليد فإنه سيتبادر إلى ذهنه على الفور ذلك الرجل الذي لا يقل عمره كحد أدنى عن أربعين أو خمسين عاماً قضاها في السعي والتحصيل والمعاناة ودراسة القرآن والتفسير والحديث والفقه لدى عدد من الأساتذة العظام إضافة إلى سنوات التدريس التي أمضاها في تخريج طلبة العلم وكتابة الكتب التي حررها قلمه الشريف .

وهذا انطباع صحيح ولا بد له أن يكون كذلك ونطلب من الله أن لا يأتي

ذلك اليوم الذي يسقط فيه هذا المقام في أذهان الناس ويصبح حاله كما هو الحال اليوم بالنسبة لمقام التبليغ والمُبلِّغ .

في عصور الإسلام الماضية لم يكن الأمر كذلك . فلو راجعنا كتب الرجال سنرى أن عدداً كبيراً من العلماء كان يعرف باسم الواعظ والخطيب : كالخطيب (الرازي) والخطيب التبريزي والخطيب (البغدادي) والخطيب (الدمشقي) وكلمة الخطيب هذه لم تكن جزءاً من أسمائهم . فما هو مقام هؤلاء العلماء الذين ذكرناهم الآن ؟

هل كانوا مثلاً بمرتبة أحد الوعاظ أو قُراء التعزية الذين نعرفهم اليوم في مجتمعنا ؟

إنّ كل واحد من هؤلاء الذين لُقّبوا بالخطباء كان بحد ذاته بحراً من العلم . فالخطيب الرازي مثلاً وهو نفسه (فخر الدين الرازي) المشهور وهو ذلك العالِم الذي اشتهر بأحد كتبه باسم « التفسير الكبير » والذي تم طبعه بثلاثين جزءاً ، وهو كتاب ضخم للغاية ، ومن التفاسير العظيمة المميزة ، إضافة إلى اشتهاره بعلوم الطب والنجوم والفلسفة والمنطق والحديث والفقه والوعظ والخطابة ، وهو أول من شرح (إشارات ابن سينا) وعلّق عليها وأورد بعض الملاحظات الهامة التي كادت أن تُسقط (إشارات ابن سينا) من سموها العلمي لولا ظهور العالِم الخواجة (نصير الدين الطوسي) الذي استطاع إنقاذ (ابن سينا) ورد ملاحظات (الرازي) عليه . نعم فهذا العالم الكبير المشهور بالرازي كان يُلقّب آنذاك بالواعظ والخطيب وقد كان واعظاً وخطيباً إسلامياً من الدرجة الأولى بالفعل .

وأما الشخص الذي عُرف بالخطيب البغدادي صاحب « تاريخ بغداد » الذي يُعتبر من الأسناد التاريخية الإسلامية المعتبرة . وأما ذلك الشخص الذي أُطلق عليه اسم « الخطيب التبريزي » فهو نفسه ذلك الشخص الذي حرّر وأعدّ متن كتاب « المطوّل » وهو من المتون الأصلية في الأدب العربي وعلم المعاني والبديع والبيان . والأمر نفسه ينطبق على المرحوم (المجلسي) رضوان الله عليه

مثلاً فهو من علماء الشيعة الكبار لكنه في نفس الوقت كان واعظاً وخطيباً إسلامياً .

في الماضي كان مقام الخطيب والواعظ والمبلّغ بين علماء الإسلام بمستوى مقام مرجع التقليد وكان مقامه يستوحى منه واجب التعريف بالإسلام . يعني تماماً كما لو جاءك اليوم أحدهم وأدعى بأنه صاحب رسالة في المسائل الفقهية والدينية العامة وأنه من مراجع التقليد فإنه من المستحيل أن تقبل به هكذا بل إنك ستسأله على الفور أين قرأت وعلى يد أي مجتهد تتلمذت ؟ أو أنه كيف صار مجتهداً وهو لا يزال في سن الأربعين مثلاً ؟ فلقد كانوا في الماضي ينظرون إلى مقام المبلّغ بهذه الدقة أيضاً . فالأمر ليس سهلاً بهذه الصورة حتى يأتي أحدهم ويدّعي المرجعية وهو لا يزال في سن الأربعين . ولا يدري أن المسألة تحتاج إلى الدرس الكثير وربما تحتاج القضية إلى أربعين أو خمسين عاماً من الدرس والتحصيل والتدريس حتى يستطيع المرء الوصول إلى هذه المرتبة التي تسمح للآخرين منحه لقب المجتهد والفقيه والمُفتي بحق ، ويصبح عندها جديراً وكفوءاً لاستنباط واستخراج الأحكام الفقهية والشرعية .

فلو جئنا اليوم على ذكر المرحوم آية الله (البروجردي) مثلاً فإنكم تعرفون بالإجمال أن هذا الرجل قد تعب على نفسه كثيراً ، وبذل جهوداً جبارة حتى حصل على تلك المرتبة الدينية العُليا . فهذا الرجل ظل يدرس في مدينة (إصفهان) على يد علماء كبار حتى بلغ سن الثلاثين حيث أخذ منها المبادىء الأولية في الفقه والأصول والفلسفة والمنطق .

وفي الوقت الذي لم يكن فيه سوى أستاذ ومحقق ومجتهد واحد في (إصفهان) تراه يهاجر إلى النجف فيحضر دروس الحوزة التابعة للمرحوم آية الله (الآخوند الخراساني) ذلك العالم الشهير ويصبح واحداً من أفضل تلامذته والمعهم . يذكر لنا في هذا المجال المرحوم السيد (محمد باقر القزويني) [وهو من علماء (قم) الذين رحلوا عنّا قبل ثلاثين عاماً وقد كنت في بداية عهدي في الحوزة العلمية في قم المقدسة] قصةً يقول فيها :

إنه كان حاضراً مرةً درس المرحوم الأخوند الخراساني (والأخوند الخراساني هذا من المُدرّسين الذين قلّ نظيرهم في العالم الإسلامي فهو أستاذ كبير من أساتذة الأصـول ، وعالم متميـز في هذا الفـرع وهو ثـانياً أستـاذ فريـد من نـوعـه في الفن التعليمي ، كما أنه متخصـص في البيان والتحقيق والتقرير . وكان يحضر درسـه ما لا يقل عن ألف ومـئتي شخص من طلبة العلوم الدينية يـوجد من بينهم خمسـمائة مجتهد وقد عُرف بصوته الجهوري الذي يصل إلى كل أنحاء المسجد، والمعترض من تلامذته كان عليه أن ينهض ويُنادي بـأعلى صـوته حتىٰ يستـطيع إسـماع اعتراضـه لأستـاذه) وحصل أن كـان للمرحـوم (البروجـردي) الـذي كـان شـابـاً آنـذاك اعـتراض على شرح أستـاذه وقد نهض بـالفعل وقـرَّر الاعتراض (وبـالمناسبـة فإن البـروجـردي من المُقررين المشهورين أيضـاً) فقال لـه المرحـوم (الأخونـد) أعِد تقريرك مرةً أخرىٰ ولمّا كرّر (البروجردي) اعـتراضه وفهم (الآخـوند) المـوضوع جيداً قال : الحمد لله الذي وهبني طول العمر حتىٰ أستفيد من تلميذي .

تصوّر الآن هذا الرجل الذي يعود من النجف بعـد عدة سنـين من الدرس إلى (إيران) فهل يصبح مرجعاً للتقليد ؟ لا فهو يبدأ من جديد ثلاثين سنة أخرىٰ من الدرس والتحصيل والجهد والبذل والعطاء أولاً ثم يأتي موقع المرجعية .

لقـد وفقت قبل عـدة سنوات إلى زيارة المرحـوم (البروجـردي) في مدينـة (بروجرد) قبل أن يتوجـه إلى (قم) المقدسـة وكانت مـناسبةً لي لحضـور دروس هذا المرجع الكبير . كانت المناسبة مناسبة (١٥شـعبان) وكـانت العادة أن تُعـطّل دروس الحوزة إذ كان يُـدرّس (مكاسب الأصـول) ويبدأ السـيـد لمدة خمسـة عشر يوماً بتدريس موضوعات خارجة عن سياق دروس الحوزة في مثل هذه الأيام .

ولا زلت أتذكر أن الدروس كانت حول المسيحية وقد قال وقتها إنـه سبق له وأن بحث في هذا الموضوع قبل أربعة وأربعين عـاماً وأنـه الآن يُريـد أن يبحث في هذا الموضوع معنا دون أن يُراجع المـلاحظات والتقـريرات التي لا زال يحتفظ بهـا منذ ذلك الحين ومن ثم يقارن بين فهمه لهـذا الموضـوع حينذاك مـع فهمه لـه قبل أربعة وأربعين عاماً وبالفعل فقد انتهىٰ بحثه الذي استمر خمـسة عشر يومـاً ثم عاد

وقارن بين البحثين فوجد أنه قد توصل إلى نفس النتائج وسجّل نفس الملاحظات عن الموضوع مع فارق واحد هو أن بحثه قبل أربعة وأربعين عاماً كان بحثاً أصولياً وأساسياً أكثر من بحثه الجديد في حين إنّ بحثه الجديد كان يتميز بنضج أكثر وبذهن متفتح وأفق واسع أكثر منه في ذلك العهد القديم أي كما قال هو رحمة الله عليه إنه صار أكثر فهماً للإسلام ، وإنه لم يختلف من حيث التحقيق لكن ذهنه كان قد أصبح أكثر فقاهةً منه في السنوات الماضية .

والآن تعالوا واحكموا أنتم على هذا الرجل العظيم مرجع تقليد المسلمين نعم فمثله لا بد أن يكون كذلك أيضاً . وما أخافه اليوم فعلاً أن ينسىٰ مجتمعنا هذه القيم ويبدأ الناس بقبول أشخاص في سلك المرجعية ممن ليس لهم صلاحية مثل هذا المقام والموقع . لكن هذا المقام محفوظ والحمد لله ويجب أن نحافظ عليه أكثر .

وإذا قلتُ لكم إنّ مقام المبلّغ للإسلام والداعية الإسلامي الذي يُبَلِّغ أهداف الرسالة الإسلامية لعموم الناس والتعريف بالإسلام باعتباره مدرسة الحياة هو في الواقع ليس أقل قيمةً من مرجع تقليد المسلمين لا يحتاج الأمر منكم إلى العجب . فهو مقام بهذه الحدود . بالطبع هناك أمور مطلوب توافرها في مرجع التقليد لكنها غير مطلوبة في شروط المبلّغ . لكن مجتمعنا للأسف عندما يصل عند هذه المسألة تراه ينسىٰ كل شيء . فما هو رأسمال المُبلّغ في مجتمعنا الراهن ؟ ومن أين يبدأ المُبلّغ في صعود سُلّم المقام التبليغي ؟ فأي فرد في المجتمع اليوم يملك صوتاً جميلاً ولديه قدرة بسيطة في تلحين الشعر وحفظ عددٍ بسيط من الأشعار تراهُ يتدرجُ شيئاً فشيئاً ليصبح مداحاً في المناسبات الحسينية ، فيقف جنب المنبر الحسيني ويبدأ بقراءة بعض المديح وبعض المراثي الحسينية في البداية .

ثم تراه فجأةً بعد مرور فترةٍ بسيطة قد وضع شالاً (أسود أو أخضر) على كتفه وأخذ يقف هذه المرة على الدرجة الأولى من المنبر الحسيني ـ وليس بجانبه ـ ثم يبدأ بالقراءة والخطاب الحسيني مدةً من الزمان ويأخذ ينقل من كتاب (الجودي) أو(الجوهري) أو(جامع التفصيل) وقصةً من هنا وحكايةً من

هناك ، أو إنك إذا سألته من أين لك بهذه الحكاية قال لك من صدر الواعظين أو لسان الواعظين فتتصور أنت للوهلة الأولى أنه يُحدِّثك عن كتاب لا تعرفه أو لم تسمع به ولكنك إذا ما دققت قليلاً تفهم انه يقصد ان احداً من الوعاظ قد نقل له شفهياً هذه الحكاية أو تلك القصة . وبالتالي فإنّ حكاياته أغلبها قد سمعها من هذا أو ذاك من الناس ، ولا يهمه أن كانت صحيحة أو كاذبة أو مُلفَّقة . فهو لا يدري ما الخبر أصلاً وعمّ يدور الحديث . فكل ما يهمه هو الاستمرار في المهمة بهذا الشكل التصاعدي فتراه قد جمع في هذه الأثناء عدداً من المنبريين الخاصين به (من مستمعيه) وشيئاً فشيئاً تراه يصعد الدرجة الثانية من المنبر الحسيني ويبدأ عوام الناس بالالتفاف حوله . ولّما كانت أكثرية للناس تبحث عن المجالس المكتظة ، ولّما كان أصحاب المجالس الحسينية لا يهمهم في الدرجة الأولى سوى كثافة الحاضرين ، فإن أمثال هؤلاء الوعاظ ! يزدادون وينتشر سوقهم دون أن يفكر صاحب المجلس الحسيني عن السبب وراء هذا الحشد من الناس . فهل المهم أن يكتظ المجلس بالمستمعين ؟ أم إنّ المهم ماذا سيسمعون ؟! إنها خيانة للإسلام أن يكون الوعظ والتبليغ قد بدأ من مرتبة القدرة على تلحين بعض الأشعار . ويبدو أن هذا الأمر قد أصبح قاعدة عامة ومنتشرة في كل مكان وقد أصبحت للأسف معياراً وملاكاً وهو ما رأيناه ولمسناه في كثير من الأماكن التي زرناها . ولكن الويل لنا إذا ما بقينا على ما نحن عليه في هذا المجال فنحن الآن نعيش عصر العلم والشك والتردّد ؛ إننا نعيش عصراً مليئاً بالشبهات التي تُثار حول الإسلام ويزداد فيه المخالفون للإسلام . وليس هناك يوم يمر إلّا ويقرأ الإنسان مقالة أو حديثاً أو خبراً ضد الإسلام في المجلات والصحف اليومية أو يسمع من هذا القبيل عن طريق الراديو أو التلفزيون وسائر الوسائل الإعلامية الحديثة .

في مثل هذا العصر لا بد للمبلّغ أن يُحسن القول ويملك القدرة على الاستدلال . وإذا ما كانت شروط المُبلّغ في الأزمان السابقة صعبة وخطيرة ، فهي في العصر الحاضر أصعبُ منها وأخطر بعشرات بل بمئات المرات .

إنّ الشرط الأول الذي ينبغي أن يتوفر في أي مُبلّغ هو معرفته بالرسالة التي

يريد تبليغها : أن يعرف ماهية تلك الرسالة وجوهرها . أي إنّ من يريد أن ينقل رسالة ما إلى المجتمع لا بد له قبل كل شيء أن يكون عارفاً ومُطلّعاً على محتوى ومضمون تلك الرسالة . لا بد أن يكون مُدركاً لهدف تلك الرسالة وأسسها ومبادئها ، لا بد له أن يعرف الطريق الذي يسير عليه وإلى أين يوصل ذلك الطريق . لا بد أن يطلّع على أخلاق واقتصاد وسياسة تلك الرسالة ومعارفها وتوحيدها ومعادها وأحكامها ومقرراتها وكل شيء يتعلق بتلك الرسالة . وإلّا فكيف يمكننا أن نتصور أنّ بإمكان أحدٍ أن يُبلّغ رسالة ما إلى الناس دون أن يعرف هو ويُدرك معنىٰ تلك الرسالة ؟ إذ إنّ هذا يشبه قولنا مثلاً إنّ بإمكان المرء أن يصبح مرجع تقليد الأمة دون أن يكون قد قرأ الفقه !!

فكيف نتصور مرجعاً للتقليد يُريد أن يُصدر الفتاوى الفقهية وهو لم يقرأ الفقه ؟! أو أن نتصور المرء طبيباً ولم يدرس الطب مثلاً ! من هنا يتبيّن لنا حجم وسعة المعلومات العلمية والمعرفية المطلوبة من أي مبلّغ يُريد تبليغ الإسلام .

فالإسلام مدرسة متكاملة ومجموعة عظمىٰ منسجمة ومتناسقة . أي إنه لا يُفيد فهم الإسلام جزءاً جزءاً بل إنه لا بد للمرء من أن يفهم الجسم الكامل والتركيبة العامة للإسلام بشكل متكامل .

ثمّ إنّ تقييمنا لمسائل الإسلام المختلفة يجب أن يكون صحيحاً أيضاً . فأي عضو في جسم الإسلام لا قيمة له بمفرده . ففي جسم الإنسان مثلاً هناك اليد والرجل والعين والأذن والأعضاء الداخلية مثل المعدة والقلب والمخ وكل واحد منها عضو من أعضاء هذا الجسم . ولكن هل إنّ أعضاء هذا الجسم بالرغم من أنها جميعاً ضرورية ومطلوبة ذات قيمة واحدةٍ ومتساوية ؟ وإذا ما اضطررنا إلى أن نضحي بأحد الأعضاء من أجل عضوٍ آخر فأي الأعضاء نضحي به مثلاً ؟ فهل يمكن لنا أن نضحي بالقلب مقابل الحفاظ على اليد أو العكس من ذلك ؟ من الواضح هنا بأنه ينبغي التضحية باليد حفاظاً على القلب . ذلك أنّ الإنسان يمكن له أن يعيش بدون اليد لكنه يستحيل عليه العيش بدون القلب أو بدون الكبد أو المخ أو الأعصاب .

والإسلام أيضاً يشبه أمره أمر جسم الإنسان وهذا بدوره بحث خاص بالإسلام يأتي ضمن عنوان الأهم والمهم .

الشرط الثاني الذي ينبغي أن يتوفر في حامل الرسالة ومُبلِّغها هو معرفته في طريق وأساليب التبليغ والمهارة الخاصة بذلك وكيفية استخدامها . أي إنّ عليه أن يعرف الوسائل التي يجب الاستفادة منها والوسائل التي لا يجوز الاستفادة منها بل وإنّ عليه أن يعرف أيضاً ما هي الوسائل والإمكانات الطبيعية التي ينبغي عليه أن يمتلكها والوسائل والإمكانات التي لا يجوز له أن يمتلكها .

قبل حوالي اثني عشر عاماً من الآن كنتُ قد ألقيتُ عدداً من المحاضرات تحت عنوان « المنبر والخطابة » وقد طبعت فيها بعد في كتاب سُمي « أحاديث عاشوراء » ذكرتُ في حينها سلسلة من البحوث حول هذا الموضوع . وقد كتب العلماء الكثير من الكتب في هذا الموضوع . والخطابة أساساً فن من الفنون . ويبدو أنّ أول من كتب في هذا الفن هو (أرسطو) . وعندما ترجم المسلمون (أرسطو) ألحقوا فن الخطابة بموضوع المنطق . ومن بعد ذلك كثر الحديث والقول حول الخطابة . فـ(ابن سينا) مثلاً ألّف كتاباً من خمسمائة صفحة حول الخطابة وشروط الخطيب حيث يقول فيه : « لا شكّ أنّ من شروط أي خطيب توافر بعض الصفات الطبيعية فيه مثل الصوت الجهوري والقدرة على البيان » . وهذه نعمة من أنعم الله الكبرى ولا بد من وجود مثل هذا الفن الطبيعي لدى المبلّغ الذي يُريد حمل رسالة التبليغ وكما ورد في القرآن الكريم في قوله تعالى : ﴿ الرّحمن * علّم القرآن * خلَقَ الإنسان * عَلّمَهُ البيان ﴾[1] .

لا بد أنكم سمعتم بقصة بعثة (موسى بن عمران) عليه السلام للرسالة . فبعد مضي عشر سنين من هجرته وأثناء طريق العودة إلى (مصر) وبينما هو في الطريق إليها برفقة زوجته وقد حلّ الظلام ونزل المطر الشديد وإذ كانت زوجته حاملاً وقد اقترب موعد ولادتها وكان الهواء بارداً وزوجته بحاجةٍ ماسة إلى الدفء والحرارة وعدم توفر أية وسيلة للتدفئة . في هذه الظروف الصعبة جال بنظره في

---

(١) سورة الرحمٰن : الآيات ١ـ٤ .

الصحـراء وإذا بنور بعيـد يراه في أقصىٰ الأفق (في وادي طـور ، أو وادي سيناء) فيتصوّر أنها النار فينطلق نحوها وهو يحاول الاقتراب منها بسرعة ، لكنه سرعان ما يكتشف أنها ليست نـاراً ، فالأمـر غير ذلـك تمـامـاً . إنـه نـور بعثـة (مـوسى بن عمران) . فهناك تأتيه الرسالة عليه الصلاة والسلام . يـأتيه النـداء من السماء أن أبشـر يا موسىٰ فإنك رسولنا ومُبلّغ رسـالتنا وإنّ عليـك أن تُبَلّغ هذه الـرسالـة إلى فرعون والفراعنة .

فَيُدْرك موسىٰ أهمية المهمة المُلقاة على عاتقه ولا يكتفي بمـوقع النبـوة فيطلب من ربّه على الفـور : ﴿ **ربِّ اشرح لي صدري** ﴾[1] أي يـا ربِّ أعطني من سعـة الصدر والقدرة على التحمل بما فيه الكفاية حتىٰ لا أغضب وأحنق بل اجعل قلبي يا رب بسعة البحر والمحيط فالرسالة بحاجة إلى مثل هـذه المواصفـات . ﴿ **ويسّر لي أمري** ﴾[2] .

[انظروا الآن كم نحن نُهمل ونستصغر عمل التبليغ وكم يراه (مـوسىٰ بن عمران) كبيراً وعظيماً] وفي هذا السياق أيضـاً يمكن الحديث عن مُخاطبة الخالق سبحانه وتعالى للنبي الأكرم محمد (ص) وهو يبعثـه لهدايـة البشر وتبليغ الإسـلام حيث تراه يقول له تعالى : ﴿ **إنّا سنُلقي عليك قولاً ثقيلاً** ﴾[3] . تصوروا تلك المهمة التي تُثقل كاهل الأنبياء ! فما بالنا نحن أمام مثل هذه المهمة ؟!

ويستمر موسىٰ عليه السلام في مخاطبة ربّه طالباً منه العون على أداء الرسالـة فيقـول : ﴿ **وأحْلل عُقدةً من لســاني** ﴾[4] . أي أعطني الجهـورية والقـدرة عـلى البيان والأداء الحسن . من أجل ماذا ؟ من أجل أن : ﴿ **يفقهُـوا قولي** ﴾[5] تلك القـدرة التي تجعل النـاس تُدرك وتفقـه ما سـأبلّغهم إيّاه ممـا جـاءني من الـوحي يـا رب .

---

(١) سورة طه : الآية ٢٥ .
(٢) سورة طه : الآية ٢٦ .
(٣) سورة المزمل : الآية ٥ .
(٤) سورة طه : الآية ٢٧ .
(٥) سورة طه : الآية ٢٨ .

أي اجعل الرابطة بيني وبين الناس سهلةً عن طريق الأداء الحسن وغير ذلك من الملكات الإنسانية حتى يفهم الناس الرسالة مني كما توجهها إليّ يا رب وكما تطلبها مني لا أنْ أقول شيئاً ويفهم الناس شيئاً آخر غير الذي أقوله لهم . (طبعاً ليس المقصود أن موسىٰ غير قادرٍ على البيان) . فالقدرة على البيان وقوة الشرح والبيان مَلَكَةٌ طبيعية لدى الإنسان (بالطبع هناك جزء بسيط منها اكتسابي أيضاً) لكن الأمور الطبيعية أيضاً بحاجةٍ إلى التمرين والاكتساب حتىٰ تتقوىٰ وتتصلب . تماماً مثل الأعمال الرياضية فلا بد للمرء من امتلاك الاستعداد البدني والنفسي أولاً ثم يمكنه تنمية وتقوية ذلك الاستعداد من خلال التمرينات الرياضية .

في الوقت نفسه نقول إنه لمن حسن الحظ أن عالم التشيع قد برز فيه ببركة الإمام الحسين (ع) عدد لا بأس به من الخطباء الأقوياء والقديرين والرفيعين جداً سواء بلحاظ بيانهم أو قدراتهم وملكاتهم الأخرىٰ وإنّ مثل هؤلاء الأفراد موجودون أيضاً الآن والحمد لله وهم آيةٌ في البيان والنطق والجهورية ونقولها بغرض الإنصاف فقط ولا أُريد هنا تسمية أحد من هؤلاء ، ولكن أقول إنهم مشكورون فعلاً على جهودهم وسعيهم المستمر في هذا المجال وإنهم والحق يُقال من الأفراد الذين تعبوا على أنفسهم وبذلوا الكثير في سبيل تطوير وتنمية ملكاتهم بمقدار ما كانت الظروف مساعدة لهم .

ويستمر (موسىٰ) عليه السلام في مخاطبة ربه فيقول : ﴿ واجعل لي وزيراً من أهلي * هارُون أخي ﴾[1] تصوّر (موسى) عليه السلام فهو يطلب مساعداً ومعاوناً له في هذه المهمة الصعبة والخطيرة التي أوكلت إليه : فالمهمة خطيرة بالفعل بالنسبة لموسىٰ فالأمر أمر هداية الناس وإبلاغهم الرسالة وهذا لا يمكن له أن يحصل من إنسان لوحده . هكذا يفكّر موسىٰ على الأقل وأمّا نحن البؤساء فلسان حالنا يقول : لا داعي لمساعدة أحد فأنا لوحدي كفء لمثل هذه المهمة وماذا يعني المساعد والمعاون ؟ فأنا وحدي كفيل بكل ذلك بينما موسىٰ عليه السلام يقول : ربي إنه التبليغ والهداية والإرشاد ، إرشاد الناس وهدايتهم . هذا أمر صعب عليّ

---

(١) سورة طه : الآيتان ٢٩و٣٠ .

أنا النبي وأطلب منكَ يا رب العون بتكليف شريك ومساعد ومعاون لي في هذا الأمر الخطير . ثم يُسمّي ويقترح مُرّشحهُ لهذا العمل . إنه (هارون) الذي يراهُ كفؤاً وقديراً لمثل هذه المهمة . نعم : ﴿ كَي نُسبِّحَكَ كثيراً ۞ونَذْكُرَكَ كثيراً ﴾[1] . انظروا الخلوص في النية والعمل ، لماذا كل هذه الطلبات وهذا العون والمدد ؟ حتى يزيد عدد المُسبِّحين باسمك ، والعابدين لك ، والشاكرين لك في هذه الدنيا يا رب العباد .

القرآن الكريم يذكر عين هذه الأمور بالنسبة إلى الرسول الأكرم محمد (ص) ولكن هذه المرة بصورة أخرىٰ . يذكرها كأمر محقق ومفروغ منه . ففي مورد (موسىٰ) تأتي الأمور كأنها مطالب (موسىٰ) وقد لُبّيت بالطبع لكن بالنسبة إلى النبي محمد (ص) أتت بصورة أخرى ولكن يبدو أنّ الهدف والغاية واحدة إذ إنَّ المواصفات واحدة فهي مواصفات الرسول والرسالة . إذ يقول تعالى : ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ۞ أَلَمْ نَشرَحْ لَكَ صَدرَكَ ۞ ووضعنا عنكَ وِزْرَكَ ﴾[2] وانشراح الصدر باللغة العربية يعني الروح الواسعة نعم فقد أعطيناك الروح الواسعة ومن ثم وضعنا عنك أي ألقينا عن كاهلك ذلك الحمل الثقيل . والوِزر تأتي باللغة العربية بمعنىٰ الذنب أيضاً وهو خلاف العمل الحسن أو عمل الخير الذي يُعتبر جناحاً يطير الإنسان به ويُحلّق بواسطته نحو الأفق العالي . في حين أنّ الوزر ـ الذنب ـ يُثقل روح الإنسان ويمنعه من الحركة .

لقد قال موسىٰ ﴿ يسر لي أمري ﴾[3] ويقول تعالى هنا : « ووضعنا عنك وِزرَكَ » نعم فالسياق واحد ثم يضيف تعالى : ﴿ الذي أنْقَضَ ظَهْرَكَ ﴾[4] وهنا لا بد من التوقف قليلاً عند هذا التعبير العجيب . إنه لبيان بالفعل فريد وعجيب . أي إنَّ الله تعالى يُريد أن يرفع ذلك الثقل والحمل الذي يكاد أن يكسر

---

(١) سورة طه : الأيتان ٣٣و٣٤ .

(٢) سورة الانشراح : الأيات ١ـ٢ .

(٣) سورة طه : الأية ٢٦ .

(٤) سورة الانشراح : الأية ٣ .

ظهر النبي ويحني جسمه وربما يُفتت فقرات عموده الفقري . فما هو هذا الثقل وهذا الحمل الذي يكادُ أنْ يوقع بالنبي ، إنه حمل الرسالة والتبليغ .

ثم يأخذ سبحانه وتعالى منحي المواساة مع رسوله فيقول : ﴿ فإنّ مع العُسر يُسراً * إنّ مع العُسر يسراً * فإذا فرَغتَ فانصب * وإلى ربِّك فارغب ﴾[1] .

فلا تخف يا عبدي ولا تيأس فالسهولة تأتي مع الصعوبة والعُسر. والسهولة تبقىٰ وتستمر فيها بين الصعوبات . وعندما نزلت هذه الآية على الرسول (ص) يُقال إن وجههُ الشريف قد أضاء وأشرق وانفرجت أساريره فالله سبحانه وتعالى يَعِدهُ بالتسهيل والتيسير ويطلب منه عدم الخوف ويؤكد عليه ذلك في الآية . ثم يقول له : ﴿ فإذا فرغت فانصب ﴾ أي إذا ما فرغتَ من تلك المهمة الأولىٰ فعليك حمل المهمات الأخرى الصعبة أيضاً فسوف لن تجد ضرراً ولن تلقىٰ المشقّة التي تُقعدك عن الاستمرار في الرسالة . ﴿ وإلى ربك فارغب ﴾ . والشيعة بالمناسبة تُفسّر هذه الآية على أن التسهيل والتيسير الذي حصل للنبي محمد (ص) إنما قد حصل عن طريق علي (ع) . فهو المساعد وهو المعاون . والشيعة على حق في ذلك عندما تقول بهذا القول لأن المنطق أيضاً يحكم لها بهذا التفسير .

والرسول الكريم في حديث له ينقله الشيعة كما ينقله السنة وهو حديث متواتر ولا يستطيع أحد إنكاره لأنه ورد على لسان رواة السنة أكثر مما ورد على لسان الشيعة والحديث فيه خطاب لعلي عليه السلام حيث يقول :

« يا عليّ أنت مني بمنزلة هارون من موسى إلاّ أنّه لا نبي بعدي »[2] .

---

(١) سورة الانشراح : الآيات ٥ـ ٨ .

(٢) ينابيع المودة ج ١ ص ٥٦ . ذخائر العقبى ص ٦٣ . الصواعق المحرقة ص ١١٩ . مروج الذهب ج ٢ ص ٤٢٥ . حلية الأبرار ج ١ ص ٥٨٩ . مسند الإمام الرضا ج ١ ص ١٤٩ . مناقب ابن مغازلي ص ٢٧ـ٣١ . شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ج ٣ ص ٢٥٨ . الاحتجاج للطبرسي ج ١ ص ١١٨ .

والمعنىٰ واضحٌ هنا فكما أن الله تعالى استجاب لموسىٰ بإرساله معاوناً له هو (هارون) فقد أرسلك الله لي يا علي مساعداً ومعاوناً مثل (هارون لموسىٰ) ولذلك يقول له صلى الله عليه وآله وسلم : « أنت وزيري . . » فكلمة وزير في أصل اللغة تعني المساعد والمعاون . وقد كان يُطلق على مساعدي الملك قديماً بالوزراء . ولذلك فإن النبي عندما يقول لعلي بأنك وزيري يعني بأنك مُساعدي ومعاوني كما كان هارون مساعداً ومعاوناً لموسى عليه السلام .

والآن أليست طلبات موسىٰ عليه السلام من ربِّه : ﴿ **رب اشرح لي صدري ويسّر لي أمري واحلُل عقدة من لساني يفقهوا قولي واجعل لي وزيراً من أهلي هارون أخي** ﴾[1] هي نفسها الطلبات التي وهبها الله لمحمد (ص) : ﴿ **ألم نشرح لك صدرَك ووضعنا عنكَ وِزْرَكَ الذي أنقض ظهرك ورفعنا لك ذكرك فإن مع العسر يُسراً ، إن مع العُسر يُسراً فإذا فَرَغْتَ فانصب وإلى ربّك فارغب** ﴾[2] . لا سيما إذا ما فسَّرنا معنىٰ « فانصَبْ » من خلال إرجاعها إلى مادة « نَصَبَ » وليس « نَصِبَ » فتكون بمعنى نصب علي (ع) وصياً وخليفةً وبذلك يكون المعنى منطبقاً مائة في المائة .

ماذا نستنتج من كل ما تقدم ؟

نستنتج أنّ منطق القرآن يعتبر عمل التبليغ والهداية والإرشاد عملاً صعباً وشاقاً للغاية في حين أنّ مجتمعنا لا زال يرى هذا العمل عملاً صغيراً وخفيفاً ، بل إنّ الأمر قد وصل إلى درجة أنّ أهل العلم والفضل وكل من له ثقافة عامة ، صار يخجل من صعود المنبر وتولي أمر الخطابة . وصار يُقال إنّ فلاناً من الناس عالم ولا يجوز الحط من شأنه والطلب إليه بصعود المنبر والقيام بمهمة التبليغ . فذنبُ من هذا ؟ إنه ذنب المجتمع والجمهور العام . إنّ المجتمع بشكل عام قد خفّض وحطّ من شأن التبليغ حتىٰ صار العالم يستنكف الصعود إلى المنبر ويرى أنه من العار عليه أن يُنزِّل من مقامه إلى الحد الذي يتولى فيه أمر التبليغ والهداية . لكن نحن

---

(١) سورة طه : الآيات ٢٥ـ٣٠ .

(٢) سورة الإنشراح : الآيات ١ ـ ٨ .

لدينا الآن والحمد لله في مقابل ذلك أفراد يحملون الفضيلتين معاً أي إنهم في موقع إمام الجماعة كما أنهم في الوقت ذاته لم يتركوا عمل الخطابة والتبليغ (مثل الدكتور مُفتّح) غير أن مجتمعنا للأسف ينظر إلى إمام الجماعة نظرة احترام وتقدير أفضل مما هي نظرته إلى الخطيب والمُبلّغ . في حين أن القيام بواجب إمام الجماعة بالوقوف أمام المُصلين والصلاة بالناس لا يحتاج إلى فن . ولأنني شخصياً عايشتُ جو الوظيفتين ومررتُ في الحالتين أي إنني كنت إمام جماعة لفترة من الفترات وكنت خطيباً لفترة أخرى لذلك أقولها بكل صراحة إنّ الناس كانت تعاملني وأنا في المحراب باحترام أكثر مما تعاملني وأنا خطيب وهذه حقيقة والله شاهد على ذلك .

فقد قضيت فترةً في شهر رمضان وأنا أصلي في الناس جماعة في أحد المساجد ثم صرتُ خطيب المسجد في فترةٍ أخرى فرأيتُ الفارق بين المعاملتين إذ كانوا يعاملونني عندما كنتُ إمام جماعتهم باحترام أكثر من معاملتهم لي وأنا خطيبهم . مما جعلني أعتقدُ أن الناس تفضّل وتُقدّر اللافن على العمل الفني . فلماذا ينبغي أن يكون وضعنا هكذا ؟

فها نحن بأيدينا نُنزّل ونحطُّ من هذا المقام العظيم والرفيع . فالنبي الأكرم نفسه كان مُبلّغاً وواعظاً ورجل منبر. صحيح أنه لم يكن هناك منبر في البداية وأن الرسول (ص) كان يقف إلى جانب عمودٍ من الأعمدة فيسند نفسه إليه ثم يبدأ بوعظ الناس وإرشادهم واقفاً . لكنه أمر فيما بعد بصناعة المنبر وصار يصعد عليه ويجلس مخاطباً الناس من فوقه ، (طبعاً المنبر اليوم ليس كما هو المنبر أيام الرسول) ثم إن أكثر ما جاء في (نهج البلاغة) هو من نتاج المنبر ، منبر علي (ع) . فنهج البلاغة للإمام علي (ع) يتألف من ثلاثة أقسام : الخُطب والرسائل والكلمات القصار .

فالكلمات القصار عبارة عن حكم ومواعظ قالها علي (ع) في مواقع مختلفة ومجموع هذه الكلمات والرسائل معاً لا تُشكّل إلّا ثلث مجموع (نهج البلاغة) . في حين أن الثلثين الباقيين عبارة عن خُطب ألقاها الإمام علي (ع) عن المنبر

خطيباً في الناس . وهي بالمناسبة ليست كل خَطبه كما يقول السيد (الرضي) رضوان الله عليه إذ يقول عنها بأنها الخُطب المختارة من مجموع خُطبِ الإمام علي (ع) . وإلّا فإنّ خطب الإمام علي أكثر بكثير مما هو موجود الآن .

يقول (المسعودي) وهو المؤرخ الإسلامي الذي سبق السيد (الرضي) بمائة عام في كتابه « مروج الذهب » وهو من الأسناد المعتبرة جداً في تاريخ الإسلام ، يقول إنه يوجد الآن [أي في عصره] ما يُقارب الأربعمائة وثمانين خطبة من خطب علي (ع) بين أيدي الناس[1] . في حين أن (نهج البلاغة) لا يحتوي الآن سوى على مائتي خطبة فقط . وهذه بدورها قد أتى بها السيد الرضي مختارةً ومُنتخبةً ، أي إن قسماً من تلك الخُطب قد أوردها غير كاملة . وعليه فإن خُطب الإمام علي (ع) ربما كانت أربع أضعاف ما هو موجود الآن في (نهج البلاغة) . فما هو القسم الأعظم لنهج البلاغة إذن ؟

إنه منبر الإمام علي (ع) . فعليٌ إذن كان خطيباً في الناس وقد سجّل لنا التاريخ خطاباته هذه . فصارت مجموعةً في (نهج البلاغة) . وهذا دليل آخر على اهمية وعظمة مقام التبليغ في الإسلام في حين أن مقامه بيننا الآن صغير وحقير . وكانت نتيجة ذلك أن رسالة الإسلام لم تَعُد تصل إلى الأسماع . والعلة تكمن فينا نحنُ ، فنحنُ قد خرّبنا الموضوع بأيدينا ، فعندما يأخذ وضع الخطابة والخطيب هذا الموقع المتدني في أعين الناس ويسقط هذا السقوط الكُلي اجتماعياً فإنه عند ذاك سيجد كل عالم أن كرامته ومقامه لا يسمحان له (سواء أكان عذره بمحله وكان عذراً موجّهاً أم لا . هذا أمرٌ آخر . فالأمر عندما يأخذ هذا المنحى الاجتماعي العام يصبح لا شك مؤثراً ويجرف الجميع معه) بممارسة مهمة الخطابة والتبليغ وهداية الناس وإرشادهم ومن ثم فإن هذه المهمة ستقع بأيدي أفرادٍ غير مؤهلين لمثل هذا المقام الرفيع وتصبح مهمة الوعظ والتبليغ تراوح مكانها ولا تغادر موقع الشعر المُلحّن والقدرة على نقل أشعار المديح وبعض المراثي الشعرية . وهل بالإمكان عند ذلك أن نتوقع أن يصل نداء الإسلام ونداء السماء الربّاني ونداء محمد

(١) مروج الذهب ج ٢ ص ٤١٩ .

ونداء علي وفلسفة هذا الدين العظيم الواسع ذي الأبعاد المتنوعة والمختلفة الدنيوية منها والأخروية . أن يصل كل هذا سالماً إلى الناس ؟ إنه انتظار وتوقع في غير محله وخاطىء لا محالة !

إن المقام الشامخ لزينب عليها السلام إنما تبلور في الواقع في عملها التبليغي . لقد مارس أهل بيت الإمام الحسين (ع) في الحقيقة مهمة التبليغ بكل جدارة ومهارة . وما لم يُلاحظ المرء هذه النقاط في تقويمه لعمل أهل بيت الإمام الحسين (ع) فإنه لا يستطيع في الحقيقة إدراك القيمة التبليغية لهم وبعبارة أخرىٰ قيمة رحلتهم التبليغية تلك . فعمل أبي عبد الله الحسين (ع) كان دقيقاً ومحسوباً منذ البداية . وقد كان عليه السلام يتوقع مثل هذه الرحلة التبليغية على يد العدو . فالعدو كان يتصور أنه يجر قافلةً من الأسرىٰ ولا يدري أنه في الواقع يحمل فرقةً (دعائية) تبليغية ضده .

هناك مسألة هامة لا بد من شرحها هنا . أقول إن كل قوة جبارة ومتسلطة مهما كانت تملك من القوة والسلطان فإنها لا بد بحاجة إلى خلفية فكرية وفلسفية وعقيدية تستند إليها . أي إنها بحاجة إلى نظام عقائدي يكون هو قاعدة النظام الاقتصادي والسياسي الحاكم . فالبشر في النهاية بحاجة إلى فكر ما يستند إليه في أعماله . وإذا ما فكّر أي مجتمع بشكل جيد بالنظام الفاسد الحاكم والمتسلط عليه فإن من المستحيل على ذلك النظام أن يقدر على البقاء والدوام . ولذلك ترىٰ أن كل الأنظمة الموجودة بحاجة إلى نظام فكري وعقيدي يُشكّل لها القاعدة والخلفية لبقاء الحكم واستمراره . وسيّان أكانت هذه القاعدة فلسفية أو دينية أو أي نوع من أنواع المدارس الفكرية المنتشرة حديثاً . وحكومة يزيد وأجهزة سلطته لم يكن بمقدورها أبداً أن تحكم دون تلك الخلفية الفكرية والعقيدية أو كحد أدنىٰ دون تبرير وتزوير واستخدام العقائد والأفكار التي كان الناس يحملونها في أذهانهم آنذاك .

فلا تتصوروا أنهم كانوا حمقىٰ إلى هذا الحد الذي يقولون فيه فلتقطع الرؤوس بالحراب وليس مهماً ما يقوله الناس . لا أبداً بل إنهم بأي حال كانوا

يقومون بخداع الناس وتشويش أفكارهم من خلال إلقاء سلسلة من الأفكار والمفاهيم في أذهانهم حتىٰ يقتنعوا بأن ذلك الوضعُ الموجود إنما هو الأفضل وأنه لا بد أن تسير الأمور كما سارت عليه .

وطبيعي هنا أن يُفكروا بإضفاء طابع التدين على أعمالهم وممارساتهم تلك لأن الناس كانت ذات مشارب دينية . وإلاّ ما معنىٰ الاستعانة بشخص مثل شُريح القاضي ؟ أليس من أجل إغواء فكر الناس وتهذيب وتلطيف أعمال السلطة وإضفاء طابع الشرعية عليها وهو ما مارسوه . وقد نفع معهم هذا الأسلوب بالفعل ونجحت هذه الخطة وظلّت موفقة عملياً حتىٰ عصر يوم العاشر من محرم . فالإمام الباقر عليه السلام يقول : إن ثلاثين ألفاً اجتمعوا في كربلاء لقتل ابن النبي : « وكُلٌّ يَتَقَرَّبون إلى الله عزّ وجلّ بدمه »[1] نعم فهم كانوا يطلبون الجنة من وراء قتله . بالطبع فالأمر لا يتعدى جمهور العامة المُغرر بهم أما الرؤساء وكما عبّر (الفرزدق) عن حالهم فإن جيوبهم قد امتلأت بالرشوة . في حين أنّ الناس العاديين قد كانوا جزءاً من برنامج (ابن زياد) الذي قام باحتوائهم وإغوائهم حسب الأصول والبرنامج الموضوع . ولولا أن يزيد كان شارباً للخمرة بشكل مُزرٍ وأن لسانه قد زلّ من شدة السكر لما افتضح أمره ونطق بكل ما نطق به وصرّح أمام أشياعه وحزبه بأنه لا يؤمن بأي شيء مُطلقاً . فيزيد نفسه كان يعتمد على أسلوب (ابن زياد) أيضاً في التشبث بأمور الدين والعقيدة لخداع الرأي العام .

فهذا ابن زياد نراه وبعد استشهاد أبي عبد الله الحسين قد جمع الناس في مسجد الكوفة الكبير وهو يُريد إعلامهم بما حدث قد أخَذَ هيئة الرجل المتدين المقدّس وذلك عندما قال : « الحمد لله الذي أظهر الحق وأهْلَهُ ونصر أمير المؤمنين وأشياعَهُ وقتل الكذّاب ابن الكذّاب »[2] ولو لم يكن بين الحاضرين ذلك الأعمى البصير لكان قد تمكن من خداع الناس بشكل عجيب .

---

(١) بحار الأنوارج ٤٥ ص ١١٩ ، مقتل الحسين للخوارزمي ج ٢ ص ٥٢ ، مقتل الحسين للمقرم ص ٤٢٦ ، الإرشاد للشيخ المفيد ص ٢٤٤ ، الكامل في التاريخ ج ٤ ص ٨٢ ، اللهوف ص ٦٩ ، كشف الغمة ج ٢ ص ٦٧ .

(٢) بحار الأنوارج ٤٤ ص ٢٩٨ .

كان هناك رجل اسمه عبد الله بن عفيف الأزدي رحمة الله عليه . والحقيقة أن هناك أفراداً في المجتمع يُضحّون بأنفسهم في مواقع حسّاسة يُساوي عملهم الدنيا كلها . وهذا الرجل كان قد فقد إحدى عينيه في معركة (الجمل) والأخرى في معركة (صفين) وهكذا خسر عينيه وهو يقاتل بجانب علي (ع) . ولمّا كان أعمى العينين فإنه لم يَعُد صالحاً للجهاد وبالتالي فإنه كان يُلازم المسجد الأعظم فيُصلي فيه إلى الليل وقد كان من الطبيعي أن يكون حاضراً في ذلك اليوم في المسجد . فما أن وصل ابن زياد إلى هذا الموقع في كلامه حتى انتفض صاحبنا من مكانه وردّ على (ابن زياد) بقوله له بأنك أنت الكذّاب ابن الكذّاب وشرع في الخطابة والتبليغ ضد السلطة الغاشمة لكنهم سرعان ما ألقوا القبض عليه ومن ثم قتلوه بالطبع . ولكنه استطاع أن يكشف الستار ويفضح أمر السلطة الفاسدة في حينه .

إنّ ابن زياد من أولاد الحرام بالفعل سواء بالمعنى الحقيقي أو بالمعنى المجازي [فهو ابن حرام (أي ابن زنى) وهذه حقيقة يعرفها الجميع] وهو ابن حرام وشيطان بالمعنى المتداول المعروف . فعندما تتسلط القوى الجبارة والقمعية على المجتمعات الدينية وتُريد تبرير أعمالها تبدأ على الفور باتخاذ المنهج الجبري وسيلةً لإعمال نفوذها وتعزيز مواقعها الفكرية لدى الناس . ومن ثم فإنها ستُرجع كل أعمالها إلى إرادة الله والقدر وتبدأ بالقول بأن الله أراد ذلك ولو لم يكن مصلحة في ذلك لما سمح الله لهذا العمل أن يحصل ، وإنّ ما هو موجود وحاصل هو ما يجب أن يحصل وما لم يحصل فإنه كان لابد له أن لا يحصل . وهذا شكل من أشكال المنطق الجبري كان هذا منطق (ابن زياد) عندما واجه (زينب) سلام الله عليها إذ طرح على الفور مسألة إرادة الخالق ومشيئته عندما قال مخاطباً زينب : « الحمد لله الذي فضحكم وقتلكم وَأكذَبَ أُحدوثَتَكم » . إنه منطق عجيب بالفعل . فهو يدّعي أن الحسين وأصحابه أرادوا الفتنة وقد شاء الله أن تفشل الفتنة بقتلهم . لأن منطقه هو أن الفشل إنما هو الفشل العسكري المادي .
لكن (زينب) عليها السلام تقف له بالمرصاد وتفضح أمره فترد عليه قائلةً :
« الحمد لله الذي أكرمَنَا بِنَبِيه . . . إنما يفتضحُ الفاسق ويكذبُ الفاجِر وهو غيرُنا والحمد لله . . . »

نعم فالمنهزم في الجبهة العسكرية ليس هو المفتضح . فمعيار الفضيحة شيء آخر . معيار العار والفضيحة هو طلب الحق والحقيقة . والذي يستشهد في سبيل الله لا يفتضح . المفتضح هو الظالم والمنحرف عن الحق ومعيار الأمور هو ليس في الموت أو عدمه ،وأن من يموت سيكون هو الكذّاب ! بل إن معيار الكذب والصدق يكمن في الإنسان وفي أعماله وأفكاره التي مات من أجلها . فحسيننا إنْ مات فهو قد مات صادقاً وإن بقي حياً فهو قد عاش صادقاً وأمّا أنت فإن مُتّ فقد مُتّ كذّاباً وإن عشت فقد عشت كذّاباً . هذا هو معيار الحق والحقيقة . ثم تحمل عليه العقيلة زينب أكثر من ذلك وأشد فتقول له : « يا بن مرجانة ! . . . » ومرجانة هي أم (ابن زياد) وهي امرأة سيئة الصيت لم يكن يحب ابن زياد أن يُعرف أنه من أبنائها . أي إنّ الفضيحة والعار لك أنتَ يا بن مرجانة . وليس لنا نحن آل البيت .

وهنا كان ابن زياد قد اشتد غضبه وازداد حنقه بشكل فقد فيه السيطرة على أعصابه فنادى جلّاده ليأتي ويقطع عنق العقيلة زينب . لكن واحداً من الحاضرين في المجلس وهو من الخوارج الذين خرجوا على الإمام علي (ع) بعد حرب (صفين) أراد الاستفادة من الحمية العربية فقال لابن زياد وهل تعرف يا أمير بأنك إنما تُكلّم امرأةً قُتِل إخوانها وفُقِد أحبّتها وبالتالي فإنها محروقة القلب موجوعةً !

وعَرَضَ عليه علي بن الحسين . . » فصاح به كالفرعون « من أنتَ ؟» (لاحظ مرةً أخرى المنطق الجبري) قال : أنا عليُّ بن الحسين . قال : أَلَيْسَ قد قَتَلَ الله علي بن الحسين ؟ . (نعم فكل شيء يجب إرجاعه لمشيئة الله حتى يُظهرون موقفهم بموقف الحق) فقال له زين العابدين كان لي أخٌ يُسمى علي بن الحسين قتلهُ الناس في كربلاء . فقال ابن زياد : بل الله قتلهُ . فقال علي : ﴿ الله يتوفى الأنفس حين موتها والتي لم تمت في منامها ﴾ .

فغضب ابن زياد مرة أخرى وحنق على اسم علي وصار يقول عليٌ وعلي ما هذا يبدو أن أباك سمى كل أولاده باسم علي. ألم تكن أسماء أخرى غير علي؟ فردّ

عليه زين العابدين بأن أباه الحسين (ع) كان يُحب اسم أبيه ويفتخر به ولذلك سمىٰ أبناءه باسم جدهم علي . وهذا يعني أنك يا بن زياد أنت الذي يجب أن تخجل من اسم أبيك .

لم يكن يتوقع ابن زياد من زين العابدين (ع) الكلام أساساً فهو بنظره أسير والأسير مطلوب منه أن يسكت لا سيما إذا قالوا له بأن هذا من مشيئة الله فإن عليه أن يوافق ويقبل بذلك القدر المحتوم ! ولذلك فإن ابن زياد لم يتحمل إجابات علي بن الحسين الجريئة هذه وبالتالي فقد غضب كثيراً وقال :

« ولك جُرأة على جوابي ؟ اذهبوا به فاضربوا عنقه »[1] يقول الراوي فسمعت عمته زينب فقالت :

« يا بن زياد إنك لم تبقِ منا أحداً فإن عزمت على قتله فاقتلني معه » .

وكما يذكر التاريخ فإن ابن زياد ظل يراقب الموقف لفترة عن كثب ثم قال والله إن أردنا قتل هذا الغلام فلا بد لنا من قتل هذه المرأة أولاً ولذلك صرَف النظر عن قتله .

إنها إحدى مميزات فكر آل بيت النبي عليهم السلام أن لا يقبلوا بالمنطق الجبري ، ذلك المنطق الذي يقول بأن الدنيا تسير على منطق الجبر وفي الوقت ذاته يحصلُ العدل أي إن الإنسان لا يملك أية إرادة في التغيير والتبدُّل والتحوُّل وكل ما هو موجود هو ما يجب أن يكون وكل ما هو غير موجود هو ما لا يجب أن يكون وبالتالي فليس للإنسان أي اختيار في الدنيا . فهذا الفكر مرفوض من قبل أهل البيت ومن خصالهم عليهم السلام أنهم كانوا في حرب ضروس ضده .

ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم وبه نستعين

تم الكتاب بعونه تعالى بتاريخ ٧/محرم/١٤٠٩ .

---

(١) إرشاد الشيخ المفيد ص ٢٤٤ . في رحاب أئمة أهل البيت ج ٣ ص ١٤٥ـ ١٤٦ . بحار الأنوار ج ٤٥ ص ١١٧ ـ ١٥٥ . الكامل في التاريخ ج ٤ ص ٨١ ـ ٨٢ . اللهوف ص ٦٧ ـ ٦٨ . أعلام الورى ص ٢٤٧ . مقتل الحسين للخوارزمي ج ٢ ص ٤٢ . كشف الغمة ج ٢ ص ٦٦ .

محتويات الجزء الأول
من كتاب الملحمة الحسينية

المقـدّمة .... أ

القسم الأول : التحريف في واقعة كربلاء ، أنواعه وعوامله ٥

المحاضرة الأولى : معنى التحريف وأنواعه ٧

المحاضرة الثانية : عوامل التحريف ٢٩

المحاضرة الثالثة : التحريفات المعنوية لواقعة كربلاء ٥١

المحاضرة الرابعة : واجبنا ومسؤوليتنا تجاه التحريف ٧١

القسم الثاني : الملحمة الحسينية ٨٧

المحاضرة الأولى : وجهان لواقعة كربلاء ٨٩

المحاضرة الثانية : النهضة الحسينيّة ملحمة مقدّسة ١٠٣

المحاضرة الثالثة : النهضة الحسينيّة وتبلور الشخصيّة المستقلة للمجتمع الإسلامي ١٢١

القسم الثالث : عامل التبليغ في النهضة الحسينيّة (التبليغ في الإسلام) . . ١٣٧

المحاضرة الأولى : مفهوم التبليغ ١٣٩

المحاضرة الثانية : أدوات ووسائل إبلاغ الرسالة ١٥٩

المحاضرة الثالثة : منهج التبليغ ١٨١

المحاضرة الرابعة : أساليب التبليغ في النهضة الحسينيّة ٢٠١

المحاضرة الخامسة : واقعة كربلاء تجسيم عملي للإسلام ٢١٩

المحاضرة السادسة : دور أهل بيت سيّد الشهداء في تبليغ النهضة الحسينية ٢٣٩
المحاضرة السابعة : شروط المبلّغ والتأثير الدعائي (التبليغي) لأهل بيت
الإمام الحسين (ع) في مدّة الأسر ٢٥٩
المحتويات ٢٨١

